

أنبياء مصر وأنبياء السامية

أحافير جذور الأديان

تأليف
علـــى الألفـــى

النـاشـــر
مكتبة جزيرة الورد
ميـدان حليم خلف بنك فـيـصل الرئيـسى شارع ٢٦ يوليـو من مـيـدان الأوبرا
٠١٠٠١٠٤١١٥ ـ ٠١٠٠٠٤٠٤٦



• أنبيـاء مصـر
وأنبيـاء الساميـة
• تأليف : على الألفـى
• رقـم الإيـداع
رقم إلا يداع ٤٣٨٤٥/ ٢٠١٠
• الرقـم الدولـى

الطبعة الأولى ٢٠١٠

مكتبة جزيرة الورد
ميدان حليم خلف بنك
فيصل الرئيسى شارع
٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا
Tokoboko-5@yahoo.Com
☎
02/ ٢٧٨٧٧٥٧٤
02/ ٢٥١١٤٣٧١
٠١٠٠١٠٤١١٥
٠١٠٠٠٠٤٠٤٦



إخراج فنى وكمبيوتر
بانوراما قنديل للفنون
☎ ٠٤٠/٢٢٤١٣٢٩ ـ ٠١٢٧٨٥٥٨١٦

مدخل

فى دراسة جذور الأديان

تشترك علوم كثيرة، فى دراسة جذور الأديان :علم الأحافير (الحفريات) علم الآثار . علم التاريخ . علم دراسة المتون القديمة . علم الأنثروبولجى (الإنسان) علم النفس الاجتماعى . علم الاجتماع الدينى . علم الأديان المقارن . علم اللغة المقارن .

كانت الدراسات ـ حتى أوائل القرن العشرين ـ تصل بتاريخ ظهور السلالات البشرية إلى عدّة مئات من آلاف السنين . . ولكن منذ منتصف القرن العشرين، ارتفع تاريخ السلالات البشرية إلى بضعة ملايين من السنين، حيث ظهرت فى مناطق السافانا (الحشائش والأعشاب والشجيرات الصغيرة) حفائر لذلك « الواقف على قدميه »، وهو ما كان يطلق عليه أحيانا « إنسان الكهوف » . . ثم ظهر إنسان نياندرتال » الذى يزيد تجويف مخّه عن تجويف مخ النمط السابق بأكثر من النصف . . ولا يختلف ـ فى حجم مخّه ـ عن النمط الإنسانى العاقل المعاصر السائد منذ فترة **Homo Sapiens** .

لقد تمكن العلم الآن من تحديد موت أصحاب العظام البشرية والحيوانية التى يعثَرُ عليها، وذلك باستخدام اختبار كربون ١٤ المشعّ، وباستخدام امتصاص العظام لمادّة الفلورين (الموجودة فى التربة) والطريقتان، إذا اجتمعتا معاً، فإنها تقلل احتمالات الخطأ عند حدود مائة عام .

وبدهىٌ أن القصص والأساطير التى ذكرتها الديانات، ما هى إلا محاولة

لتفسير ظهور الإنسان على هذا الكوكب، ويرتبط بها عادة تفسير ظهور الآلهة.

ولو تخيّلنا طفلا وليداً فى العصور السحيقة، فقد أمَّه حيث افترسها وحش من وحوض الغابة، وأن ذلك الوحش لم ينتبه للطفل الوليد، فإذا جاءت أنثى من القرود واحتضنت الطفل وقامت بتربيته، فإن هذا الطفل بعد أن يكبر ينتمى لأمّه القرديّة.. ولو احتضنَتْهُ لبؤة، فسوف ينتمى لعالم الأسود واللبؤات.

وهكذا كان حال الإنسان البدائى، فى مراحل الخرافة والأسطورة الدينية، يؤمن عن «يقين» بالقصة التى تقدّم له عن سرّ العالم، وسرّ الإنسان وأسرار الآلهة.. بل لاتزال النسبة الغالبة من البشر البسطاء الصادقين يؤمنون بتفسيرات أديانهم للتواريخ والظواهر.

ونحن أطفال فى القرية، وفى سنة ١٩٤٧ حدث خسوف للقمر، فى منتصف شهر قمرى، واختفى معظم القمر.. فخرج رجال يدقّون على طبول ضخمة، ونساء يدقون بأوعية نحاسية، وكنا نردّد خلفهم: «يا سيّدنا يا عُمَر.. فُك خنقة القمر» وبالفعل فُكَّتْ خنقة البدر وسطع نوره من جديد.

قلنا أن البسطاء الصادقين من البشر، ليس لهم إلا أن يؤمنوا بتفسيرات أديانهم.. ولكنْ مع هؤلاء البسطاء الصادقين تبرزُ مجموعات من مرتزقة الدين وبعضهم يحمل درجات علمية فى العلوم، لكنْ؛ لا يتورّع عن أن يُرَدِّدُ ما كان يُرَدِّدُه البشر فى القديم.. المسألة عند هؤلاء أن الدين «يُستخدم باعتباره «بيزينس» ويُستخدمُ كثيرون من هؤلاء كأبواق لدولة ما أو لفقيه ما أو لنظرية ما، ولقد وعَى أبو الطيب المتنبى أمر هؤلاء «البُوقات والطبول» فقال مادحا سيف الدولة الحمدانى:

إذا كان بعضُ الناس سيفًا لدولةٍ فبعضهمُ (و) بوقات لها وطبولُ

هؤلاء «البوقات والطبول» يرتزقون بالدين، ولتذهب أمتهم إلى الجحيم.

هؤلاء هم الذين كفّروا أبا الوليد ابن رشد، وسخروا منه، حين سُئل عن بحر الظلمات وأعمدة هرقل فقال: «... أعتقد أن وراءَ هذا الماء ماءً، وجُزُواً بها بشرٌ مثلنا».. ولم يسخر منه الأسبان والبرتغال، بل صدّقوه، وقاموا بحركة «الكشوف الجغرافية» وأضافوا - إلى أوربا - الأمريكتين واستراليا وجُزُر الأوقيانوس العظيم.

صحيح أن نسبة لا بأس بها من علمائنا ومثقفينا العرب، يؤمنون بالانجازات العلمية والمناهج العلمية، إلا أنّ هذه النسبة غير كافية لخلق «رأى عام» ضد الخرافات والأساطير، إن «الرأى العام» المتحرّر من ربقةَ الجهل والخضوع لسطوة الكنيسة، منذ بَدْءِ عصر النهضة، أعاد الكنيسة فى أوربا إلى حجمها الطبيعى، وحدث الفصل الكامل بين الدين والدولة، وساد العلم.. بل وظهرت «البروتستانتية» فى ألمانيا (على يد مارتن لوثر وكالڤن) محتضنة الوطنية الألمانية، ومبتعدةً عن «روما» الكاثوليكية، التى كانت - لا تزال - تضع القيود على العلم والعلماء، وتكفّر بعضهم وتقتلُ وتسجنُ آخرين.

ومن الأمور المذهلة فى الثقافة العربيّة، أن فقيها كابن خلدون[1]، وهو قريب من العصور الوسطى بظلامها، يرى «فصل الدين عن الدولة»، فمن وجهة نظره «أنّ الإمامة ليست من أركان الدين، وإنما هى من المصالح العامة المفَوّضَة إلى نظر الجماعة... ولو كانت من أركان الدين، لكان شأنُها شأن

(١) مقدمة ابن خلدون، طبع عبد الرحمن محمد صاحب المطبعة البهية - القاهرة - بدون تاريخ. ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

الصلاة، ولكان يُستَخْلفُ فيها، كما استخلف الرسولُ أبا بكر فى الصلاة» بل إنه[٢] يحمّل الدولة مسئولية «إفساد العمران»: «والعدوان على الناس فى أموالهم وحُرَمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم مما يُفْضِى إلى الخلل والفساد.. وتُنْتَقَضُ الدولة سريعا بما ينشأ عنه (عن الفساد) من الهرج المُفضى إلى الانتقاض.. ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كلّه وشرع المكايسة (الرّقة وحسن الأسلوب) فى البيع والشراء، وحَظَرَ أكْلَ أموال الناس بالباطل سداً لأبواب المفاسد المؤدية إلى انتقاض العمران. واعلمْ أنّ الداعى لذلك كلّه إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترّف فى الأحوال، فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرْج (الصرف) ولا يفى به الدخل، فيستحدثون ألقاباً ووجوها يوسّعون بها الجباية ليفىَ لهم الدّخل بالخرْج (الصرف) ثم لا يزال الترف يزيد والخرج (الصرف) بسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتدّ، ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تنمحى دائرتها ويغلبها طالبها...».

إن الأمم الغربية ـ لغلبة «الرأى العام العلمى» بها، سارت فى طريق التقدّم والانتاج حتى صارت الأمة العربية والإسلامية عالة على الغرب فى الدواء والعلم والسيارات والطائرات وأدوات الجيوش من دبابات ومدافع ورادارات.. وكافّة مفردات العلم والانتاج.

ولا تزال لدينا تلك «البوقات والطبول» التى تعزف على «أوتار القديم»، وتعادى كل جديد لجهلها به، أو لأنها تعمل بنظرية «الجهد الأقلّ»

(٢) مقدمة ابن خلدون، طبع عبد الرحمن محمد صاحب المطبعة البهية - القاهرة - بدون تاريخ. ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

إذ إن الإنسان بل والحيوان أيضا يميل إلى الحرص على جهده، ويعمل على بذل أقل جهد، حتى أنه يطبق القاعدة الرياضية: «الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين» دون وعى منه، سوى عمله بفكرة «الجُهْد الأقل».. وبدهىّ أن الجديد يحتاج إلى «جهد ومعرفة وخروج عن المألوف».. وقديما قال الجاحظ فى «الحيوان»: «إنّ كثيرين من الخَلْق يسيرون فى الطريق المطروق الذى ألفوه، كما تكره الحمير الطريق الذى لم تألفْه».

أما العقلاء، ومحبّو الاستطلاع، والذين يميلون إلى الكدح الذهنى والبحث، فإنهم يميلون إلى اجتياز الآفاق الجديدة، والأمور المجهولة.. وهكذا يتقدمون بينما نتخلّف نحن، يبتسمون حينما يسمعون الأساطير يردّدها المؤمنون بها، عطفا على المؤمنين بها، إذ هم كالعميان الذين يتخبطون بعقبات الطريق... أما نحن، فإمّا أن نؤمن بالأساطير، وإمّا أن نُوصَمَ بالكفر.

على الألفى

(المنصورة أول يناير ٢٠١٠)

تمهيد

كيف تنهض مصر من كبوتها؟!

مصر ـ الأبناء ـ تتدهور، حيث ازداد الأبناء فقراً، وقُضى على احتمالات الصعود.. سبق أن صعد كثيرون من أبناء الطبقة الوسطى والدنيا إلى أعلى درجات الوزارة والقضاء والإدارة والجيش، بتأثير الاتجاهات الاشتراكية الناصرية التى احترمَتْ الانتخاب الطبيعي وصعود الأصلح.

وتختلف التوجهات الآن، وطغَتْ «المحسوبية» والفساد والمال، وضاع الانتخاب الطبيعى، ولم تعد الفرصة متاحة لصعود الأصلح، بل هوى الأصلح لقاع المجتمع، وصعد «المسنودون» ومن بيدهم السلطة والمال والنفوذ.

ومصر «الحفدة» سوف تضيع أكثر، لو استمرت اتجاهات السلطة والسياسة والمجتمع على ما هى عليه.

ويرى جمال حمدان فى حديثه عن أزمة مصر الحقيقية[1]: «وسواء كانت مصر أمّ الدنيا أو أمّ الدكتاتورية، أو كان حاكم مصر هو أقدم أمراضها، كما يذهب البعض، فلا شك فى أن الدكتاتورية هى النقطة السوداء فى شخصية مصر، وهى منبع كل السلبيات المتوغلة فى الشخصية المصرية، ليس على مستوى الحاكم والقيادة السياسية فقط، بل وعلى مستوى

(١) شخصية مصر. عالم الكتب ١٩٨٠ ص ٤٤.

الأفراد . . وقد تغيّرت مصر، إلاّ نظام الحكم الاستبدادى المطلق والفرعونية السياسية، التى تشكّلت الآن فى صورة ملفقة هى « الديمو دكتاتورية » أو الديموقراطية الشرقيّة . . ومن المؤكّد أن مصر المعاصرة لن تتغيرّ ولن تتطوّر، إلى دولة عصرية وشعب حرّ إلاّ حين تُدْفَن الفرعونيّة السياسية » .

إنّ هؤلاء الذين يُرهِبُونِ أو يقتلون من يختلف معهم فى الرأى، لا يقلّون استبداداً عن الملوك، الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ تاريخها القديم وحتى اليوم .

المفكّر والقصّاص الانجليزى سباتيان فيلكس، يكتب فى « الديلى تلجراف » الإنجليزية ويقول : « صار الإسلام قيداً على المجتمعات العربية والإسلامية، فبينما نحن ـ المسيحيين ـ نَسْتطيع توجيه النقد للعهدين القديم والجديد (التوراة – الإنجيل)، الأمر الذى مكّن المجتمعات الأوربية من النموّ اللبرالى، وحيث استطعنا تجاوز المُقَدَّس الكهنوتى، منذ أواخر العصور الوسطى، فإن كهنة الإسلام قد حَرَمُوا مجتمعاتهم من التجديد واللبرالية . . وظل المقدّس الإسلامى، كما كان منذ فجر الإسلام . . فالقرآن ـ بالنسبة للمسلمين ـ غيرُ قابل للنقد، لأنه « كلام الله » . . وهكذا حُرِم المسلمون منذ القديم، من النظر إلى متن القرآن باعتباره قابلا لإعادة التفسير والحذف للتلاؤم مع تعاقب العصور وتغيّر الظروف » .

« إن المجتمعات البدائية، التى عُثِر عليها فى أمريكا واستراليا إبّان الكشوف الجغرافية كانت فى حالة متخلفة مزرية عنّا نحن بشر العالم القديم، وأكبر سبب فى تخلّف هذه المجتمعات، هو عدم قدرتهم على تفسير المقدس أو تغييره بما يتفق مع تقدّم حركة مجتمعاتهم . . وهكذا ظلوا

على حياتهم البدائية يدورون فى دائرة مغلقة.. وظلّ «الرّجل السماوى الكبير» (الله) يلزمهم بالتضحية البشرية، والانصراف إلى طقوس دينية صوفيّة اعتكافية، تحول دون تقدّم مجتمعاتهم... وشئٌ كثير من هذا لا يزال يلحق بالمقدس الإسلامى».. فالهنود الحمر كانوا متخلفين عن زمان أواخر العصور الوسطى المسيحية، ونحن ـ للأسف ـ هنود هذا الزمان.

كان الناس فى أوربا فى أواخر العصور الوسطى، لا يزالون يؤمنون ببحر الظلمات وبأعمدة هرقل، التى تفصل بين عالم وعالم، ولما سُئِل أبو الوليد ابن رشد عن رأيه فى ذلك، قال: «إن خلف هذا البحر بحارا وبحارا، وجُزرا وأمما من جنسنا.. ولا وجود للجن والشياطين والعفاريت والمردة فى بحر الظلمات...» ولهذا كان الأسبان والبرتغل (ورثة الأندلس وابن رشد) هم سادة الكشوف الجغرافية، التى كشفت لنا عن الأمريكتين واستراليا وجزر الأوقيانوس العظيم.

قُلْتُ لصديق أسبانى (كان يدرس العربيّة فى القاهرة): «إن ملامحك عربية، حتى أنك إذا مَشَيْتَ فى شوارع بغداد ودمشق (وكذلك القاهرة) فلن يستطيع أحد أن يميّز بينك وبين الناس فى الطريق». فردّ قائلا: «تحدّث سرڤانتيس فى مقدمته لقصته الشهيرة «دون كيخوتا»، أو دون كيشوت كما تنطقون باسمها فى العربية، عن الأسبان المورسكيين، الذين انحدروا من السلالة العربية، وهم غالبية الأسبان والبرتغال الموجودين الآن، والذين تنطق ملامحهم بأصولهم العربية» ثم ابتسم الرجل معتذراً وأردف: «نشكر الظروف التى أخرجت الإسلام من شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) وإلاّ كان مصير أسبانيا والبرتغال كمصير العرب والمسلمين الآن، حيث يمرّون بحالة

من التدهور والغيبوبة، حتى أن الغرب استطاع أن يحتل فلسطين وعوّض بها اليهود عن « هولوكوست » الألمان، كما تمكن الغرب ـ باستلاب فلسطين ـ من الفصل بين عرب آسيا وعرب أفريقيا للإجهاز على حلم ناصر بالوحدة العربية ». ثم قال: « كنت وأنا شاب، أتصوّر أن تريليونات الدولارات من البترول العربى، ستعيد للعرب قوتهم وحلم ناصر فى ولايات عربية متحدة، لكنْ اكتشفْتُ أن ثمن البترول العربى يُبَدّدُ ولا يؤدى إلى تقدّم العرب، بل أدّى إى ضياع الريادة العربية من مصر، التى أشعر من قراءاتى أن بها ليبرالية وحركة علمية تقدمية، بدليل حصول كثيرين من المصريين على جائزة نوبل.. ضاعت ريادة مصر، وحل محلها ريادة الكهنة وشيوخ القبائل ومراجع المذاهب الإسلامية المتناحرة ».

يُرَدَّدُ ـ دون وعى ـ أن الشعب المصرى شعبٌ متدين؛ والحقيقة الساطعة أن المصريين، من خلال تاريخهم الطويل، لا يؤمنون إلا بما يؤمن به حاكمهم أو كاهنهم.. كانت العقائد المصرية القديمة هى أساس عقيدة موسى والعهد القديم.. ومصر ـ كذلك ـ هى المسئولة ـ بحكامها وكهنتها ـ عن العهد الجديد والمسيحية التى حاربتها الدولة الرومانية واحتضنتها مصر.

مصر آوت الصغير موسى (مس اسم مصرى بمعنى ابن أو ربيب أو وليد، تأتى مكبرّة « مُس » التى نراها فى تحوت مُس تحتمس، ومصغرة « موسيس » التى نراها فى راموسيس، أى رمسيس، ويحاول كهنة العهد القديم والجديد إبعاد أو استبعاد دور مصر، فيدّعون أن موسى تعنى « موسيشيس » أى « أنقذته من الماء » وهو ادعاء يخالف الحقيقة التاريخية واللغوية) كذلك فإن مصر ـ أيضا ـ آوت الطفل يسوع الناصرى وأمّه مريم ويوسف النجار، فى

رحلة الهروب بالطفل خوفا عليه من القتل .

ولما جاء الإسلام إلى مصر بجيوشه الجرّارة، دخل معظم المصريين، فى دين الله أفواجاً فرارا من الجزية، وخضوعا للحاكم العسكرى الإسلامى . وصار المصريون المسلمون تابعين للمذهب السنّى . . ثم غزا المعز لدين الله الفاطمى مصر وحوّلها إلى المذهب الشيعى، وأقيم الأزهر فى قاهرة المعز، بيتا للمذهب الشيعى . . ثم سيطر صلاح الدين الكردى السنّى على مصر، وأعادها من جديد للمذهب السنّى . . فهل هذا التاريخ من التحوّلات الدينية يجيز لنا وصف الشعب المصرى بأنه شعب متدين؟!

المتفق عليه بين دارسى الأنثروبولوجى (علم الإنسان) وعلم النفس الاجتماعى أنّ البنية الدنيا لأية جماعة (الزراعة - الحرف - التجارة - الأدوات) تؤدى إلى بنية عليا ثقافية (دين وقانون وفنون . . .) ولكنّ الملاحظ - فى تاريخ مصر - أن ملوكها هم الذين يغيرّون البُنَى العلوية، بصرف النظر عن البُنَى التحتيّة أو الدنْيا .

أضفْ إلى ما تقدّم، أن نسبة كبيرة من المشتغلين بالدين، خَرجوا من بيئات وظروف خاصة تجعهلم يميلون إلى الارتزاق بالدين، ويبتعدون كثيرا عن الإيمان الصُّلب بالمبادئ، ويميلون - أكثر - إلى الإيمان بما فيه مصالحهم « الدنيويّة » :

١- الشيخ أحمد الدِّيَربْى[1] (١٧٣٨م) له كتاب « فتح الملك المجيد لنفع العبيد » وكان كتابا مشهورا، بين دجّالى ذلك الزمان باسم « مجرَّبات

(١) كل ما ذكرته هنا منقول عن وثائق (فى زمن محمد على وأبنائه حتى فؤاد الأول) ومحفوظة الآن فى مكتبة جامعة القاهرة .

الدِّيَربى » حيث خلط الديربى بين الدين والميثولوجيا والوصفات الطبيّة، وتحدث فى كتابه عن « فوائد مجرّبة لسورة يّس »، وخواصّ آية الكرسى، وتحدث كذلك عن مساعدة المرأة المتعثرة فى الولادة، كما تحدّث عن: « الطريقة المُثْلى لمعرفة أن المرأة حامل أمْ لا ».

٢- الشيخ أحمد الدمنهورى (١٧٧٨م) وله « القول الأقرب فى علاج لسع العقرب » وتحدّث فيه عن الوصفات المجرّبة، وأسرار الأحجبة والتمائم وبعض الآيات القرآنية الحافظة.. وله أيضا كتاب « القول الصريح فى علم التشريح » ويذكر فيه أن للقلب بطنين: الأيمن مملوء بالدم، والأيسر مملوء بالروح!! (مع أن هارفى مكتشف الدورة الدموية وتجاويف القلب سابق بعشرات السنين عن الدمنهورى).. وللدمنهورى أيضاً: « الكلام اليسير فى علاج المقعدة والبواسير »، ويعتمد فيه على بعض الآيات القرآنية والدّجل الشعبى والوصفات.

٣- داوُد الأنطاكى وهو مصرى سورى صاحب « تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب » المشهور بين الدّجالين باسم « تذكرة داوود »، ويخلط فيه بين تجارب العوام، والوصفات البلدية، وشعوذة بعض رجال الدين.

ولم يحدث تقدم طبى علمى فى مصر إلا فى زمن محمد على، حين أنشأ مدرسة الطب بمساعدة كلوت بك، ونقل الطب الأوربى (المعتمد على ابن سينا والرازى) إلى مصر... وأدرك « محمد على باشا » الأمّى، حتى فى لغته التركية، قيمة العلم والتقدم، وبدأ بناء مصر الحديثة.. ولم يكتف شيوخ الإسلام بهذا الفساد العلمى، بل أسهموا فى الفساد السياسى:

١- البيّوميون (أصلها فى المصرية القديمة « باجيوم.. وتعنى البحريين

والخطافين) وهو وصف أطلقه المصريون منذ أوزيريس على عصابات جُزُر بحيرة المنزلة، وهم من بدو سيناء والعبيد الآبقين والقراصنة الأوربيين، والهاربين من السخرة على السفن.. وقد ذكر تفصيلات عنهم «إميل لودفيج» فى «حياة نهر النيل» عاشوا على الإغارة على حدود مصر الشمالية الشرقية، جنوب بحيرة المنزلة، يسرقون الحيوانات والأقوات والنساء والأطفال، وأُعجب بهم العامّة وبحياتهم القائمة على المغامرة.. ولا يزال لقب البيومى حاضرا بيننا، وكانوا كرماء، كعادة معظم اللصوص.. زارهم كثيرون من شيوخ الأزهر وأفْتوْا لهم بأن البيوميين «جهادية» يدافعون عن شمال مصر الشرقي.[1]

٢- وتشير الوثائق المحفوظة بجامعة القاهرة إلى حدوث صراع عثمانلى بين الوالى والمنشقّ العثمانلى أفْرَنْج أحمد، ويروى على الشاذلى، مؤرخ المرحلة، أن «بعض الشيوخ باع الفتاوى للجانبين» مما أدّى إلى اشتداد الفتنة، ثم هُزِم أفرنج أحمد ونُفِىَ، ونُفِىَ أيضا بعض شيوخ الأزهر الذين أيّدوه».

٣- وتشير هذه الوثائق أيضا، أن الشيخ عبد الله الشبراوى (تولى مشيخة الأزهر ١٧٢٥م) كتب تاريخا يمالئ فيه السلطان سليم، بعد احتلاله لمصر ويقول فيه: «أقام السلطان سليم فى الشام، ثم رحل بجيوشه إلى مصر، وكان يتسلطن على مصر الأشرف طومان باى، الذى رأى الرسول فى منامه، وقال له الرسول: أنت ضيفُنا بعد ثلاث.. فخلع طومان باى

(١) وثائق جامعة القاهرة.

عُدّة الحرب وسلّم نفسه للسلطان سليم، الذى ذبحه وعلّقه على باب زويلة ».

٤- كان المماليك والجنود العثمانية يهاجمون حمّامات النساء ويغتصبونهن، ويسرقون الأطفال وينهبون ويخطفون.. وتجمّع كثيرون من أهالى المحروسة (مصر) بعد صلوات الجُمَع، وطلبوا مساعدة المشايخ ذوى الصلة بالوالى والقوّاد.. ولكنّ المشايخ « هرولوا إلى بيوتهم ».

٥- معظم مشايخ الأزهر اشتركوا فى « الديوان » الذى أنشأته الحملة الفرنسية (وثائق جامعة القاهرة) وكان الجبرتى معجبا بطريقة محاكمة سليمان الحلبى (السورى الذى قتل كليبر)... وبعد رحيل الحملة، حاول الجبرتى إبعاد شبهة تعاونه مع الفرنسيين، فكتب « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس » يقول فيه للوالى العثمانى، بعد زوال الحملة: « حمداً لله الذى جعل كلمة الذين كفروا السُّفلى، وكلمةُ الله هى العليا، وجعل الدولة العثمانية والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا، لقد استنارت بمقدمكم البلاد وابتهج بالسرور جميع العباد ».

٦- ويُتهّم الشيخ عبد الله الشبراوى بنفس تهمة الجبرتى، فيسلك نفس السلوك، فيهاجم الفرنسيس، ويقول عنهم: « .. هم طائفة يقال لهم نصارى القاثوليق (الكاثوليك) يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً، وينكرون البعث والآخرة وبعثة الأنبياء »... ثم يكتب الشيخ عبد الله الشبراوى « تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين » ويهدى كتابه إلى يوسف ضيا باشا أول الولاة بعد الحملة الفرنسية، وآخرهم حيث يستولى محمدعلى باشا على مصر، ويحوّلها إلى مملكة وراثية، بفتوى الشيوخ،

الذين أجازوا له الملكيّة الوراثية.. وتقول وثيقة من وثائق جامعة القاهرة: «وكان الباشا خبيرا فى البراطيل، والبراطيل جمع عربى «للبُرْطُل»، وهى فارسية تركية معرّبة، تعنى القلنسوة (الطاقية) توضع على الرأس تحميها من الشمس، ويوضع «رفرفها» على العينين لحمايتهما من الشمس، وأُستُعيرَتْ «البَرْطَلَةُ» بمعنى الرشوة، حيث إن الرشوة يُوارى بها عن الحق...».

ولا تزال الأقلام المعتوهة تمرح فى الساحة، ولا يزال حجم الإرسال الدينى مبالغاً فيه، وتكتب تلك الأقلام مهتمّة بمصالحها الضيّقة، دون ما نظر للأخذ بيد مصر من كبوتها الفكرية الثقافية الاجتماعية.. بل لا نُبالغ إذا قلنا: إن هذه الأقلام من أهم أسباب الكبْوَة المصرية المعاصرة.

☆☆☆☆☆

تقديم

الدين والعقل الجمعى

أ- الجذور البيولوجية للعقل الجمعى.

تتحرك الحيوانات والحشرات فى حياتها وهجرتها وفق توجيه مشترك، مما يقطع بوجود لغة « تَرَاسُل » ما بين تلك الكائنات.. يستوى فى ذلك الجاموس الوحشى فى أفريقيا وأمريكا، وأسراب الأسماك فى الأنهار والبحار والمحيطات، وأرجال الجراد الطائرة بالترليونات، تعبر الأنهار والصحراوات والبحار.

الحشرات الاجتماعية، كالنمل والنحل، تقوم أعداد من شغّالاتها بدور الكشافة، وحين تعود للخلية، فإنها تهمس (بطريقة ما) للشغالة وتحدد لها مكان الفريسة أو الزّهور دون أدنى خطأ فى التحديد.. فتتواكب أسراب النمل أو النحل على الفريسة أو الزهور.

إن « العقل الجمعى » أو « توجيه الجماعة » لدى التجمعات البشرّية، لا يختلف ـ فى النوع ـ عن التوجيه البيولوجى فى عالم ما دون الإنسان، الفرق ما بين الإنسان وما دون الإنسان، هو فرق فى درجة تعقيد توصيل الرسالة واستقبالها... وكما تقتل شغالة النحل تلك النحلة التى اكتسبت (لسوء حظها) رائحة مختلفة عن رائحة أفراد خليتها، فكذلك يقتل حرّاس العقل الجمعى الدينى « الكفّار » الذين تختلف رائحة أفكارهم عن رائحة الدين العام المسيطر على الجماعة الإنسانية... خصوصا إذا انحطت الجماعة الإنسانية وضعفت، وانحط معها الدين فصار « توتما » (رمزاً أو صنما أو

وثنا)، أمّا إذا قويت الجماعة الإنسانية وارتقت فى معراج الحضارة، فإن الدين عندها يصير فلسفة عامة تسمح بالتنويع واللجوء للهوامش الخاصة.

ب- قتل الخارج عن العقل الجمعى.

فى المناطق الاستوائية كثيفة الخضرة، وبسبب تشابك جذور النباتات، تصبح بعض النباتات فى حاجة إلى مواد عضوية، فتنمو لتلك النباتات زهورٌ ذات مصراعين، فما أن تقع عليها شغالة النحل حتى تمسك بها، وتطلق عليها سوائل خاصة تقوم بهضم النحلة، لسدّ حاجة النبات للمادة العضوية... لكنْ، فى بعض الأحيان، تستطيع النحلة الإفلات، بعد أن تكون قد اكتسبت رائحة خاصة من الزهرة دون ما رحيق، وتعود النحلة إلى خليتها، فتشعر الشغالة برائحتها المختلفة (الكافرة) فتقوم بقتلها.

الجماعة البشرية المتخلفة تتوحّد بالدين وتُصَيِّرُهُ « توتما »، ويصبح الدين كالرائحة المميزة لكل خلية، ويحفزُ الدين ـ بسلطة العقل الجمعى ـ شغّالته المتهوسين والمتعصبين، والمتأثرين بكهنة التوتم الدينى، يحفزهم إلى قتل الكفّار الذين يخرجون عن العقل الجمعى للجماعة:

١- أستشهد « برونو » الإيطالى (سنة ١٦٠٠) فقد رأى الحقَّ فى كلام « كوبر نيكوس » المخالف لأرسطو (وكان فكر أرسطو جزءا من عقائد الكاثوليكية) وحُكِمَ على « برونو » بالقتل حرقا، وأُسْتُتِيب، فلم يتب عن أقواله، حتى « لا يخسر نفسه » كما قال، وأُحْرِق.

٢- مارتن لوثر، كان راهبا كاثوليكيا.. خرج على كنيسة روما، وتزوّج... (والرهبان لا يتزوجون).. لم يُقتلْ.. لأن النزعة القومية الألمانية صارت « رائحة جديدة » أو عقلاً جمعيّا خاصا... وهكذا ظهرت

البروتستنتيّة... ممثلة للعقل الجمعى الألمانى المستنير.

٣- جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) عارض - هو الآخر - أرسطو، فاضطهده كهنة الكاثوليكية وسجنوه، وطلبوا منه الرجوع عن أفكاره (برائحتها المزعجة) فرجع أخيرا عن أفكاره، لعلمه أن رجوعه لن يؤخر ولن يقدم، ولشعوره بأن العقل الجمعى الإيطالى بدأ يتغيّر، ويدرك «حقيقة الدين».

٤- ڤولتير.. نبىّ حديث، قاوم الاستبداد الكاثوليكى، وجَمَعَ الأموال، وحرّض مواطنيه وملوك الدنيا لإعادة محاكمة البروتستانتى «كالاس»... كان لكالاس ابن بروتستانتى أراد أن يلتحق بالسربون، وكان السربون يشترط كاثوليكية الطلاّب.. فعانى ابن كالاس، وتحوّل إلى الكاثوليكية حتى يدخل السربون، ثم شعر بعدم الرضا عن نفسه فانتحر.. فاتهم كهنة الكاثوليكية «كالاس» بأنه قتل ابنه، وعذّبوه وقتلوه، وحكموا على أولاد «كالاس» بأن يصبحوا أرقّاء.... وكان العقل الجمعى الفرنسى، قد بدأ يَنْفِرُ مِنْ سطوة الكاثوليكية والإرهاب الدينى.. وأدان ڤولتير بجهوده، وبجهود بعض ملوك أوربا والمواطنين، المحكمة الكاثوليكية، بل ونجح فى تحويل تلك المحكمة إلى القضاء، وصدرت ضدهم أحكام.

٥- شارلز دارون، وهو أحد من «كفّرهم» رجال الدين، حيث قال: «لم يكن الإنسان عاليا (فى الجنة حيث نشأ آدم) فنزل، بل كان سافلاً فارتقى».. فثار كثيرون من ممثلى العقل الجمعى (فى الأديان السامية الثلاثة) ضد رائحة فِكْرِه، المختلف عن أفكارهم.

٦- الحلاّج المتصوّف المسلم، قُتِلَ، مع أن التشريع الإسلامى يقضى بالاستتابة أولاً، ولكنّ «المقتدر» العباسى ورجال دينه، كانوا حريصين على قتله، إذ كانت «الصوفية» رائحة خاصة، لا يرتاح إليها المتعصبون.

٧- السَّهْرَوَرْدِى، قتله رجال الدين، فى عصر صلاح الدين، لآرائه الصوفية...

٨- كذلك قتل المتعصبون المصريون المحدثون فرج فودة والدكتور الذّهبى (وزير أوقاف سابق).. وحاولوا قتل نجيب محفوظ... ويضطهدون نصر حامد أبو زيد... لأن رائحة أفكار هؤلاء، تشذ عن رائحة فكر المتعصبين.

جـ- العقل الجمعى الدينى يحاول أن يُلزم بما لا يتفق مع العقل العلمى.

● رأت الميثولوجيا المصرية القديمة، فى تعليلها لظهور الآلهة، أن بيضة انفجرت على سطح المياه الأزلية، فخرج منها «أَتُومْ» أول الآلهة المصريين... وكان الإغريق والرومان يحترمون الدين المصرى لأنه يؤمن بقدم العالم، وأن العالم أقدم من الآلهة... وكان الإغريق والرومان يرون عدم المنطقية فى تصوّر حاخامات اليهود أن الآلهة سابقة على العالم، وأن «الله» ليس قبله شئ، وليس بعده شئ.

● يرى الشرّاح المسلمون أن لغة الله هى العربية، وأن العربية لغة أهل الجنة، وأنها أقدم اللغات... وبدهىٌ أن اللغة العربية لغة سامية متأخرة زمنيا عن الساميات الأولى مثل الآرامية والسريانية والحميريّة والأمهريّة ولغة أهل سبأ... والدليل على ذلك أن أسماء الملائكة فى القرآن أسماء عبرانية معدّلة، أحيانا عن المصرية، وأحيانا عن ساميات أخرى.

● عليك أن تذعن، بأن الله ما خلق هذا الكون (الذى لا حدود له) إلا ليقف الله فى الآخرة يراقب المنعّمين فى الجنّة، والمعذبين فى النار.. استمع الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد لقول أحدهم: «إذا كانت الجنة والنار هى الغاية من الكون كلّه.. إذن علينا أن نصدّق ما قالته النملة، يوم أن سقط قطار الصعيد بحمله من السكر.. قالت النملة: إن الله خلق الكون الواسع الذى يمتد لآلاف ملايين السنين الضوئية... ثم خلق الأرض، وجعلها صالحة للإنسان، ومكّن الإنسان من الزراعة، فزرع قصب السكر، واستخرج منه السكر من أجلى أنا... أنا النملة...».

● رأى العقل الجمعى اللاهوتى، منذ الميثولوجيا المصرية، وفى الأديان السامية أن السموات «سَبْعٌ طباقا» بعضها فوق بعض، وكان ذلك فى زمن لم يعرف الصواريخ والأقمار الصناعية وتحليل طيف الإشعاعات، وغير ذلك من إنجازات العلم الحديث.

● عليك أن تذعن للعقل الجمعى اللاهوتى، الذى يصف الله بالظلم[1]، أو على الأقل بمحاباة الله للرجال... فالله ينعم على الأبرار «من الرجال» بالجنة والنعيم والحور العين اللاتى كأمثال اللؤلؤ المكنون، والولدان المخلدين، الذين يطوفون عليهم «على الرجال فقط» بأكواب وأباريق، وكأسٍ من معين، لا يُصدَّعون عنها ولا يُنْزَفُون.. إنا أنشأناهن إنشاءً (الحور العين) فجعلناهن أبكاراً، عُرُباً أتراباً (فى سن واحدة هى سن الشباب) لأصحاب اليمين (من الرجال).. أما النساء من أهل اليمين، فليس ثمة إشارة

(١) هذا الكلام منسوب إلى جولد تسيهر، أحد متقنى اللغة العربية من المستشرقين، بل له كتاب فى القراءات.

لنعيمهن وتحقيق ما يشتهين.. يقول أحد الشرّاح: إن الله قد وَجَد من غير اللائق أن يُعدّ لهنّ «رجالا أترابًا» لمتعتهنّ الجنسيّة؛ مع أن آية الأحزاب تقول: ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب:٥٣].

● يقول روجيه باستيد، أهم دارسي علم الاجتماعي الديني.. «إن العقل العبراني والسامي، هُوَ الذي يحاول إلزام أتباعه بالإيمان بصلة أنبيائهم بالله الذي في السماء، بل تحوّل «جابار» ناقل حكمة «توت» المصري، إلى جبرائيل العبرانية، وجبريل الإسلام، مع أن سقراط هاجم آلهة الأولمب، ونادى بإيمان الأذكياء بمطلق كوني عاقل، ومع هذا لم يدّع سقراط صلة بالسماء، بل قال «بوحي العقل لقلبه»، ولقد سأله تلاميذه، قبل أن يشرب كأس القتل، عن جسده ودفنه، فقال لأقريطون تلميذه الأكبر: إنكم ستدفنون الجسد، أما الروح فذاهبة إلى مكان يَبعث فيها السرور».

● يرى كثيرون من الدارسين الأوربيين أن الدينين الساميّيْن: اليهودية والإسلام (بعضهم يرى المسيحية بفرقها المختلفة، صورةً حديثة من اليهودية) يميلان إلى العنف والقسوة، حيث أنّ الدعوة فيهما تتجه إلى توجيه مجتمعاتها ـ حين النشأة ـ لغزو جماعات أخرى لتستلب منها الأرزاق.. ويستدلون على ذلك بآيات كثيرة من العهد القديم تدعو إلى حَرْق المدن وإبادة من فيها من ذريات الآخرين، كما يستدلون بآية القرآن في «الأنفال»: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٧].(٢)

(٢) وهذا أيضا منسوب لجولد تسيهر.

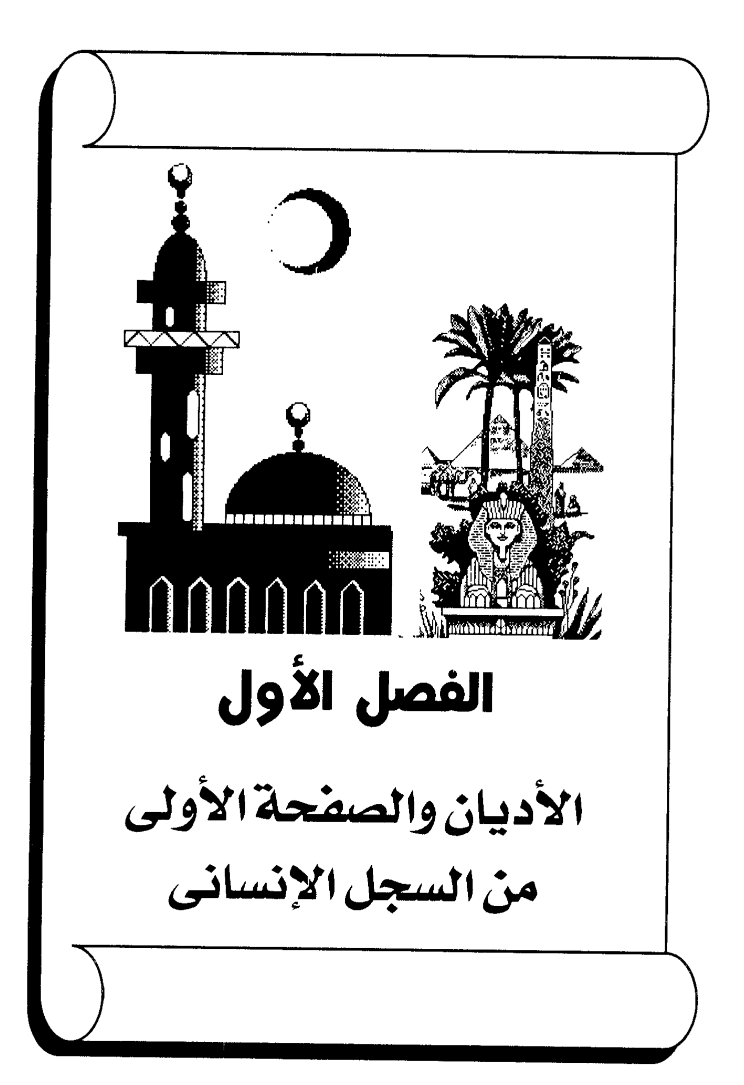
● يرى نقّاد العهد القديم من المحدثين (يهود ومسيحيين) وعلى رأسهم الفيلسوف اليهودى الهولندى الكبير سبينوذا (وهو من جذور برتغالية) أنّ ما ذكر فى العهد القيم عن كثيرين من ملوك وأنبياء العبرانيين، يجعهلم فى وضع «الإبونايمات» أى القوّاد العسكريين والرمزيين للجماعات العبرانية الجائعة فى صحراء شبه الجزيرة العربية، ويسعوْن مع قبائلهم، للدخول فى المناطق الزراعية فى أحواض الأنهار إما عن طريق التسلّل، وإما عن طريق الغزو.

● ويرى هؤلاء النّقّاد أنّ ما يرويه العهد القديم، عن قيادة موسى لهم وعبورهم لبرزخ السويس وغرق فرعون والجيش المصرى، لا سنَد له فى المكتشفات والبرديات التى قرأها الآثاريّون فى أعقاب كشف شمبليون للخطوط المصرية.. فلم تذكر البرديات المصرية ولا المنحوتات الجدارية ولا متون الأهرامات أو التوابيت أى إشارة إلى العبرانيين، إلاّ فى الحديث عن تسللهم إلى منطقة شرق الدلتا وبحيرة المنزلة فى صورة الباجيوميين أو البيوميين، أى اللصوص وقطاع الطرق، وقرأ جيمس هنرى برستد (وهو من أهم دارسى الآثار المصرية) عن أوزير سيف، الذى يُظن أنّه موسى.. وعن هروبه مع بعض بقايا الهكسوس (الهاجا ساسى) فى اتجاه صحراء سيناء.

ويرى جون ويلسون (صاحب : الحضارة المصرية، وهو من تلاميذ جيمس هنرى برستد) أن المصريين يهتمون اهتماما عميقا بالموت والتحنيط والدفن، ولا يعقل أن يُتْرَك ملكُهم غريقا ولا يُدفن ولا يحنط.. وإلا فإنه هكذا يفقد آخرته، والمصريون هم الذين علموا العالم أن هناك آخرةً وسراطا ومحكمةً وميزاناً...

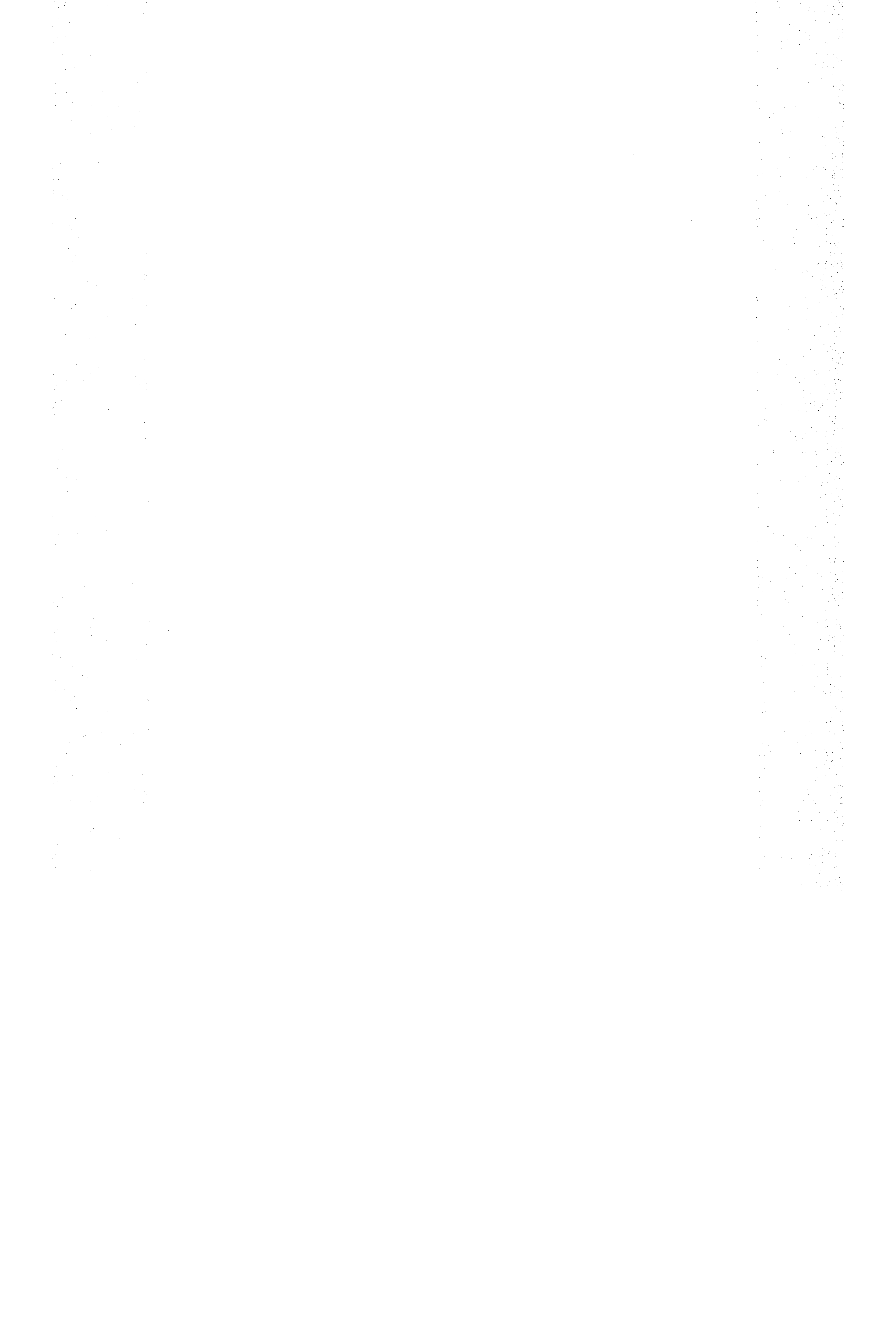
كذلك فإن قصص نوح والطوفان وخلق العالم، تعود فى بداياتها إلى ما يقرب من أحد عشر ألف عام، وهو نفس التاريخ الذى افترضه المصريون.. وكُشف عن إنسان بكين ساكن الكهوف ويعود تاريخه لأكثر من مليون سنة، كما كُشف عن إنسان «نياندرتال» وهو يزيد عن مائة ألف عام، وحفريات الإنسان الحديث تعود إلى نفس تواريخ إنسان نياندرتال... أى أنهما كانا متعاصرين، ولكنّ الإنسان الحديث، وهو الأذكى أباد الأقل ذكاء... والكشف عن الزمن فى الحفريات تقدم كثيرا، خصوصا إذا أُستخدم النظامان معاً: كربون ١٤ المشع، وامتصاص الفلورين من التربة.

☆☆☆☆☆



الفصل الأول

الأديان والصفحة الأولى من السجل الإنسانى



الأديان والصفحة الأولى من السجل الإنسانى

نفتح سجل التاريخ الإنسانى، عند مرحلة الأسر الإنسانية الأولى التى آوتْ إلى الكهوف والمغارات، وعاشت حياة التوحش مثل غيرها من أُسَر الحيوانات الأخرى.

وحين نفتح السجل الإنسانى عند هذه الصفحة، فإننا نتجاوز «النشأة الأولى» للإنسان وما تثيره من جدل عقيم بين لاهوتيين يؤمنون بإلَه شخصى، بل جسدى للكون، خلق الإنسان خلقا مستقلا (آدم - الجنة)، وهؤلاء يتصوّرون الله وكأنه صانع دُمَى.. وتطوّريّين علميين يؤمنون «بالتطور الخالق»[1]، وهؤلاء يَرَوْن القوّة المُنْشئة فى صورة قانون أبدى سرمدى ينتظم الكون كلّه، وينظم علاقات الحركة والنموّ فيه... اللاهوتيون يفتتحون تاريخ الكون بقولهم: «فى البدء خَلَق الله...» والعلميّون يبدأون تاريخ الكون بقولهم: «فى البدء كانت إرادة الحياة...».

اللاهوتيون يريحون أنفسهم بالوقوف عند «الله» علّة العلل، حيث انبثق فجأةً - بذاته - من العدم، فَخَلَق الكون وخلق الأشياء، وخلق الإنسان.. والعلميّون يقفون عند مبدأ «إرادة الحياة»، ويروْن أنه حيثما توجد شروط الحياة - كما نعْرِفُها - تنبثق الحياة، ولا قيمة للبحث فيما وراء ذلك، حيث يهتمّ العلم بالظواهر والفيزيقا.

إذن، فالظاهرة الإنسانية تبدأ بأسر متوحشة تقيم فى مناطق الحشائش

(1) «التطور الخالق» عنوان كتاب لهنرى برجسون.

(السافّنا) ووديان الأنهار منذ بضع مئات من آلاف السنين . . والاعتقاد الغالب، أن تلك النشأة الأولى للأسر الإنسانية كانت فى المناطق الدافئة حول حوض البحر المتوسط، ثم ما لبثت أن زَحَفَتْ فى كل اتجاه.

ويلعب « الشعور الجنسى الغريزى » دوره فى تنظيم تلك الأسر، وإنشاء أُسَرٍ جديدة. إن تأثير العامل الجنسى على الأسر الإنسانية الأولى، يعادل نفس تأثيره على الحيوانات الأخرى: فالأسرة عادة تتكوّن من ذكر قوى سيطر عى أنثى، أو اجتذبته أنثى، فصار لهما صغار . . ويكبر الصغار، وينمو معهم شعورهم الجنسى، ويتجه الأشبال من الصغار بشعورهم الجنسى تجاه الأم باعتبارها أنثى ناضجة (أساس عقدة أوديب) وإذ يلاحظ الأب ذلك يثورُ ويتلاشى عنده شعور الأبوّة، أمام شعوره الجنسى، فيطرد الأشبال . . وتتجه الإناث الصغيرات بشعورهم الجنسى تجاه الذكر الكبير أو الأب (جذر عقدة إلكترا)، وتثور الأنثى الكبيرة، ويضعف نداء الأمومة، ويطغى الشعور الجنسى، فتطرد الأم الكبيرة الإناث الصغار . . ويحوم الصغار ذكورا وإناثا حول الأسرة الأولى، يدفعهم حنين غامض إلى الكهف القديم وحماية الأم والأب . . وينتبه الصغار ـ بداعى الجنس ـ بعضهم لبعض، فتتكوّن أسر جديدة فى الجيل الثانى . . وتتعاقب الأجيال وتتسع الدوائر.

وتشعر هذه الأسر ـ فى صراعها من أجل البقاء ـ ومن خلال التنافر والتجاذب، بالتشابه والتماثل، وأحيانا تشعر بقيمة التعاون فى سبيل دَرْءِ خطر ما، أو الحصول على منفعة . . فالبحث عن صيد أو فريسة كبرى أمر قد يحتاج إلى تعاون عدة أسر، ودفع خطر وحش عارم قد يحتاج ـ أيضا ـ إلى تعاون . . . وتتعدّل العلاقات وتبدأ بذور التقاليد والأعراف وينمو الشعور

الجمعى أو عقلية القطيع، طالما كان ذلك الشعور الجمعى مفيدا فى الصراع من أجل البقاء.

فى الثدييات، تقوم الأم بالدور الأكبر فى رعاية الصغار، حيث إنّ الثّدْى من نصيب الأمومة.. وأطفال الإنسان يقضون فترة رضاعة طويلة، تعقبها طفولة واهنة، تعتمد على الأم أيضا، وربّما على الأب معها.. وأغلب الظّن أنّ أطفال الإنسان كانت نسبة كبيرة منهم تموت فى الفترة التى تعقب الرضاعة ومع بداية تناول الصيد والثمار... وننقل الأسطورة المصرية عن اكتشاف القمح، إذ هى تسدّ فراغا فى قصة تقدم الإنسان[1] «أم مصرية على ضفاف النيل فى الزمن السحيق شعرت بضيق بسبب بكاء صغيرها، الذى ربما كان يبكى من آلام فى معدته بسبب خشونة الطعام أو دسامته، ولعل تلك الأم انتبهت لأم من عالم الطير تنزل إلى الحشائش فتلقط حبا من نبات معين، ثم تطير لتطعم به صغارها منقاراً لمنقار.. فقلدتها الأم المصرية، فمضغت تلك البذور وأطعمت بها صغيرها فماً لفم كمنقار لمنقار.. هدأ الطفل، ضحك الطفل.. ضحكت تلك الأمّ.. وجمعت بذورا وضعتها فى الكهف.. نبت بعضها.. حرصت الأم على ذلك النبات وأخذت ترعاه وتحتفظ ببذوره، ثم زرعت بذوره.. اشتركت الجماعة كلها فى الزراعة فنشأت الحضارة الزراعية».. وهذا لا يمنع من تصوّر أبسط، حيث كان الإنسان الأول يعتمد على الصيد والالتقاط، فلما تكاثرت الأعداد، لم يعد الصيد والالتقاط كافيا، فتطوّرت فكرة التقاط البذور والنباتات المختلفة، إلى

(١) عن «الجبتانا» أسفار التكوين المصرية، جمع الأصل اللاهوتى الديموطيقى مانيتون السمنودى برواية الأب أبيب النقادى، الصياغة العربية والمراجعة التاريخية على الألفى.

الزراعة والاستنبات، وهكذا ظهرت الحضارات الزراعية فى وديان الأنهار.

وترتبط الزراعة بالنهر، وتحتاج الزراعة القائمة على الأنهار، إلى التعاون فى سبيل شقّ القنوات والترع والمصارف، أو فى سبيل التصدّى لقسوة النهر وفيضانه، فتنشأ وتنمو روح الجماعة.. والنهر ـ فضلا عن ذلك ـ وسيلة مواصلات ورمز توحيدى للجماعة، خصوصا إذا صار مقدساً بإصرار بعض المهيمنين على إضفاء طابع كهنوتى عليه.. ولم تكن الأمم القديمة تربط بين النهر ومصدر الماء الطبيعى من المطر أو ذوبان الثلوج، حتى أننا نجد فى بعض الكتابات، بعد الإسلام، وإلى وقت قريب، ما يوحى بأن البعض كان يفسّر ماء النيل بأنه يأتى من بوابة من بوّابات الجنة.. أو من نهر فى الجنة.. وطالما كانت الأمم القديمة لا تربط بين النهر ومائه، فإن ذلك كان يسهّل الأساطير الدينية التى تُنْسَجُ عن النهر والآلهة المسيطرة على الوادى.. تلك الأساطير جعلت النهر مقدّسا أو جعلته إلهاً.. وترتب على ذلك مزيد من التوحيد بين الجماعات المقيمة حول ذلك النهر.

ولم تعد «الإشارات» تكفى الإنسان.. فقد ترك مناطق الحشائش التى تصحرت واتجه إلى الأنهار حيث الغابات ... ونشأت الحاجة إلى اللغة التى ساعد عليها الجهاز الصوتى المَرِن للإنسان.. وتحدث الإنسان باللغة مع زملائه المختفين وراء الأشجار، أو مع الذين لا يراهم بسبب الظلام.. وتطور العقل الإنسانى معتمدا على اللغة كوسيلة للتفكير.. وتقدّم الإنسان.. وصار للجماعة العرقية تَجَمُّعٌ وشعورٌ غريزىّ بالجماعة.. ونما هذا الشعور فظهرت بدايات الدين القَبَلى المعروفة «بالتوتم» كرمز إشارى للجماعة (فى صورة شجرة يرتكن عليها الجدّ، أو صخرة، أو قبر أحد الأجداد الذين دُفِنوا

فى الجوار . . وبدهىّ أن الجماعة تذوب فى التّوتم، إذ هو رمز حياتها وخلودها (كالملكة فى الحشرات الاجتماعية كالنحل) .

يرى علماء الاجتماع الدينى[1]، وعلم النفس الاجتماعى أن البشر قبل التدوين وفى بدايات التدوين، لم يكونوا متمايزين بأسماء تخص كل فرد منهم (مثلهم كمثل بقيّة أنواع الحيوان)، بل كان تمايزهم مقتصرا على الموقع فى الجماعة أو العشيرة : فهذا رأس الجماعة، وهذا خادم الوثن أو التوتم، وبقيّة الأفراد نكرات، وهم فى هذا، لا يختلفون عن التنظيمات الغريزية فى عالم النحل . . فهناك الملكة والذكور والشغّالة، وكل مُمَيَّز بوضعه، وكذلك الأفراد من البشر فى عصور التوحّش لاحاجة لهم إلى الأسماء، فهم قطيع يذوب فى توتم واحد .

ثم تعقّدت حياة الإنسان، واحتاجت الجماعة إلى شئٍ من التمايز بين أفرادها، بحكم بدايات التنظيم، ولو فى عمليات الصيد والحرب وخدمة التوتم أو ما شابه ذلك . . فظهرت بدايات التعريف والتمييز للأفراد (وهى مناسبة للنداء من مكان بعيد) . . فهذا ذو الشعر الأحمر، وذلك ذو الأذن المقطوعة، وذاك ذو الإصبع (إن كانت له إصبع زائدة) . . وهكذا . . .



(١) روجيه باستيد «نشأة الجماعات الإنسانية».

ظهور رجل اللاهوت ورجل الإدارة

وصعد الإنسان فى سلم التقدم، وتغيّرت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وطرق الحياة.. وبدأ الإنسان يتخفّف من سلطان الجماعة والتوتم الرمزى لها.. وبدأ البشر يدركون أن ذا الشعر الأحمر، وذا الرأس الأصلع، لا يختلفون فقط فى الفرق الواضح فى رأس كلّ منهم، بل يختلفون ـ أيضا ـ فى صفات «أخلاقية» تميّز كل واحد منهم. وزادت «الفرديّة» والشعور بها فظهرت الأسماء، وإن كان ظهورها فى البداية انسلاخا من الأوصاف: منصور. طويل. قصير. كثير الحِيَل.. الخ...

كانت التوتمية تعبيرا عن القبليّة (والتوتمية تذكرنا دائما بملكة النحل توتم الخليّة).. ثم توحّدت القبائل فى شعب (Nation) وظهر «الدين» معبّرا عن «شعب» معيّن.. وقصص الأديان الرافضة للتوتم والوثن والصنم تؤيد ذلك.. وكلمة شعب العربية لها صلة بالتشعيب والنمو بالميلاد من أصل واحد.. وهى ـ بهذا تكون مساوية للجذر اللاتينى **Nation** المبنى على المولد والمنشأ.

وحين اكتشاف الأمريكتين واستراليا وجزر المحيط الهادى وجد علماء الإنسان «الأنثروبولوجى» مجموعات من البشر يعيشون فى تجمعات، بعضها أقرب إلى المراحل الدنيا من التوتمية، وبعضها يسمو عن ذلك ويقترب من الدين، وتبيّن للدارسين أن القبائل الصغرى المتناحرة، كانت أقرب إلى التوتم كموحّد غريزى أو رمز إشارى للجماعة (الصخرة التى كان يرتكن إليها الجد، الشجرة التى كانوا يتجمعون تحتها ...الخ)، أما القبائل الكبرى، أو

البطون والشعوب، فكانت أقرب إلى فكرة العقيدة القومية أو الدين. (تحوّلَ الرمز المادى إلى رمز معنوى متمثل فى دعوة ادعاها نبىّ أو قائد قومى).

وتتفاوت الفروق ين القوّاد القوميين أو الزعامات والأنبياء.. أحيانا يكون الزعيم لبقا قادراً على الإيهام وصياغة الأحلام والآمال، فتحوّله الجماعة إلى نبىّ، ويتحوّل هو معها.. وأحيانا يكون عسكريا ماهراً وإداريّا محنكا، فتحوّله الجماعة إلى ملك، ويتحوّل هو معها.. وأحيانا يجمع الزعيم بين الجانب الروحى الإيهامى والجانب التنظيمى العسكرى، فيصبح نبيّا جامعاً بين الإدارة والحرب والإيهام الروحى..... ودراسات أوربية كثيرةك، فى علم النفس الاجتماعى، وعلم الاجتماع الدينى[1] تعتبر نبىّ الإسلام قيادة تجمع بين الناحية الروحية والإدارية والحربية.

وأحيانا تتفوق زعامة ما فى الناحية الروحية، وزعامة أخرى فى الناحية السياسية والعسكرية. ودراسات أوربية كثيرة ترى أن النبىّ العبرنى موسى، شاركه أخوه هارون فى الناحية الروحية والبلاغة (وأشار العهد القديم والقرآن إلى ذلك)... كذلك كان كلا من داود وابنه سليمان مجرّد ملكين (كما جاء فى العهد القديم، بينما يرى القرآن أنهما نبيان).. ورد فى العهد القديم[2] قول داود: أرْكبُوا سليمانَ ابنى على البغلة التى لى، وانزلوا به إلى جيحون، وليمسحْهُ هناك صادوق الكاهن وناثان النبىّ ملكاً على إسرائيل، واضربوا بالبوق، وقولوا ليَحْيَى الملك سليمان ».

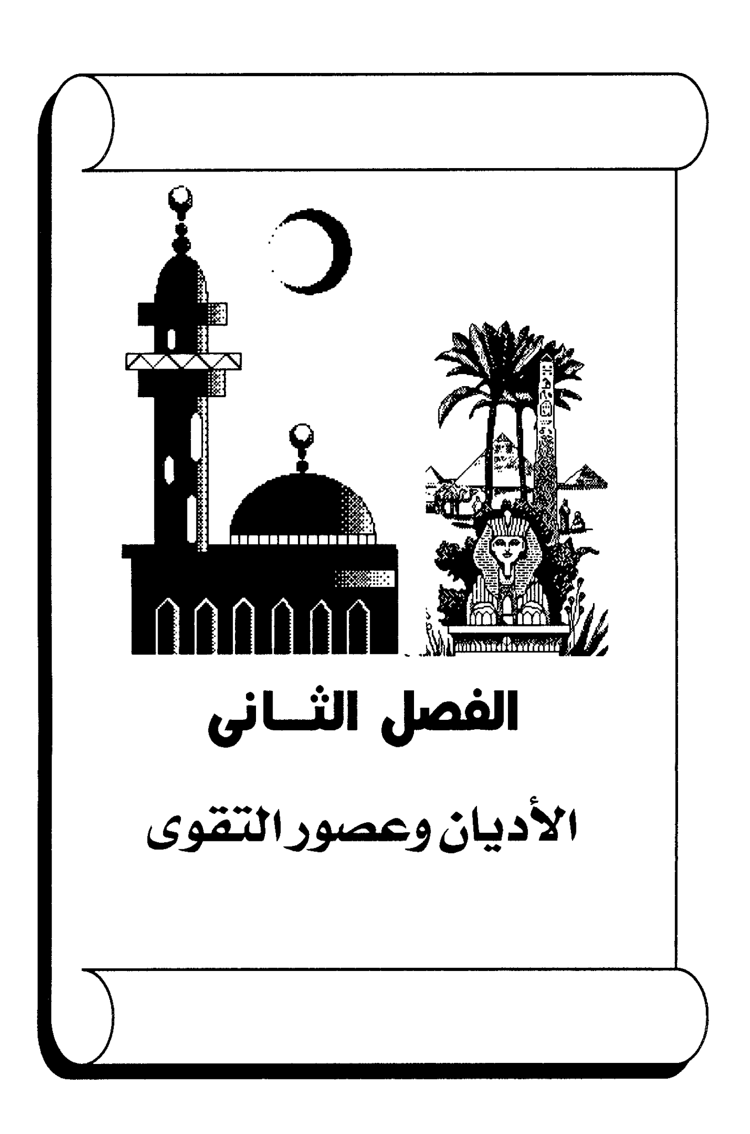
---

(١) روچيه باستيد: نشأة الجماعات الإنسانية.

(٢) الإصحاح الأول من سفر الملوك الأول.

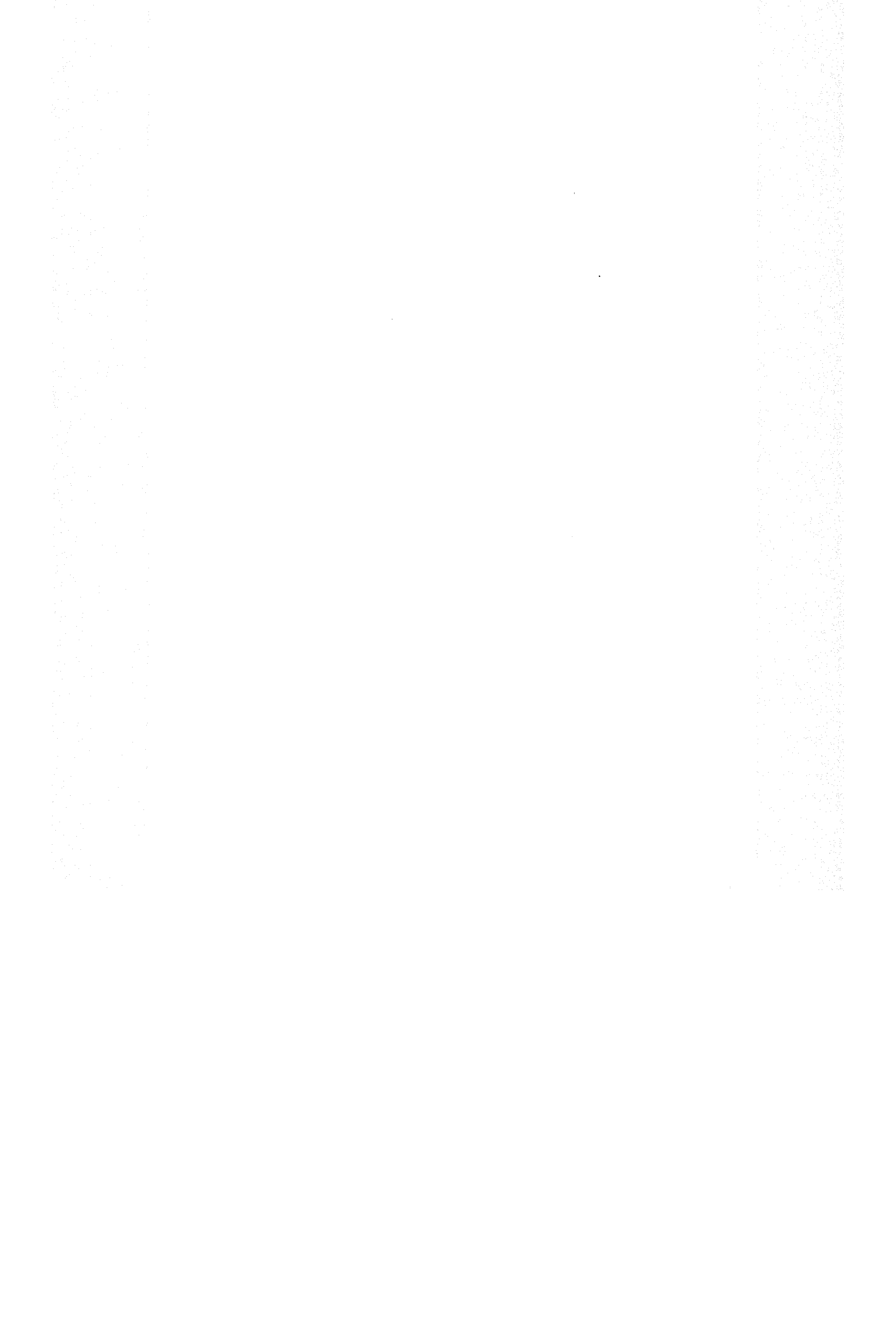
نؤكد ـ من جديد ـ ذلك المقياس لرقيّ الجماعات : أسفله منغمس فى الحيوانية وتعبّر عنه الحشرات الاجتماعية كالنحل، فالملكة تكاد تكون رمزاً توتميا للجماعة، وأوله فى الجماعات الإنسانية الجماعة التوتمية، ثم الجماعات « فوق التوتمية » التى تعتمد على أساطير تجمع ما بين التوتم وبدايات الدين القومى، ثم تأتى الجماعة القومية ومعها الدين القومى (أبدعته الجماعة القومية أو استعارته من أمة أكثر تحضرا) .. ثم تسمو الجماعة وتعتمد على الإدارة المدنية، وفكرة المنفعة، وينحصر الدين فى الاجابة عن المغيّبات الروحية المتصلة بنظرية المعرفة.





الفصل الثانى

الأديان وعصور التقوى



الأديان وعصور التقوى

حين تتحرّك عوامل الخطر، لدى الجماعة القومية، كالهزائم العسكرية والحضارية والفقر والمجاعات، وشيوع الفساد.. فإن ذلك يؤدى إلى تحرّك « شفرة الصراع فى سبيل البقاء »، فتتّجه الجماعة إلى الدين القومى، باعثة فيه روح « التوتم »، بل روح « الملكة فى عالم الحشرات الاجتماعية ».. وفى مثل هذه الحالات من الخوف والقلق، تنحط الجماعة القومية بالدين، وتصبح شرسة عدوانية، ويكثر فيها الإرهاب والقتل لمجرد أى اختلاف فى الرُّؤَى.

يحدثنا الثقات من المؤرخين عن هذه الفترات ويسمونها « عصور التقوى الشخصية »[1] وهى عصور الاهتمام بمظاهر الدين من حيث الطقوس والملابس، وهى - أيضا - عصور عدم الاهتمام بالقيم والأخلاق وسلطة الضمير.. وعصور قوة المجتمعات نجدها حافلة بنماذج من الرُّؤَى والصور والأفكار، التى تختلف مع التراث القومى (الدينى)، ومع ذلك - وبدافع من الثقة بالنفس، فإن المجتمعات القويّة تتقبّل تلك الرُّؤى.. فقد تقبل المجتمع العباسى فى عنفوانه رُؤَى وأفكار أبى العلاء المعرّى ساخرا من فكرة الإمامة فى قوله:

زعم الناس أنْ يقومَ إمامٌ ناطقٌ فى الكتيبة الخَرْساءِ
كذب الزعمُ لا إمام سوى العقل مشيرا فى صُبْحِهِ والمساءِ

(١) جيمس هنرى برستد «فجر الضمير». ول ديورانت «قصة الحضارة». أرنولد توينبى فى «مختصر تاريخ العالم». جون ويلسون فى «تاريخ الحضارة المصرية».

بل إن ذلك المجتمع النابض بالحياة تحمّل أبا العلاء حين خاطب الله قائلا :

أَنَهَيْتَ عن قَتْل النفوس تَعَمَّداً ... وبَعَثْتَ تأخذُها مع المَلَكَيْنِ
وَزَعَمْتَ أنّ لها معاداً ثانياً ... ما كانَ أغناها عن الحالَيْنِ

كذلك تحمّله مجتمعه حين تشكك فى الأديان جميعا فقال :

عَجِبْتُ لكسرى وأشياعه ... وغَسْلِ الوُجوه ببول البقرْ[1]
وَقَوْلِ اليهود إلهٌ يُحبُّ ... رَشَاشَ الدماءِ وريحَ القُتَرْ
وقولِ النصّارى إله يُضَامُ ... ويُظْلَمُ حَيّاً ولا ينتصرْ
وقومٍ أتوْا من عَميق الفجَاج ... لرَمْي الجمار ولَثْم الحجرْ
فواعجَباً من مقالاتهمْ ... أَيَعْمَى عن الحق كلُّ البَشَرْ[2]

وفى عصور « التقوى » حيث تنحل المجتمعات وتضعف، يسود الانتهازيون ومُدّعو التدين ولابسو مسوح الكهنة، والويل لمن يحيد قيد أنملة عن التراث :

١- خشى جرجس بطريرك الإسكندرية من تأثير الفلسفة اليونانية فى النفوس وكثرة المناقشة حول « حرّيّة الإرادة »، فقرر القضاء على الفلسفة فى جامعة الإسكندرية وفى يوم من أيام سنة ٤١٤م، وبينما كانت الأستاذة هيباثيا تحاضر فى الحكمة ونظرية المعرفة، إذ برهبان يتزعمهم

---

(١) يتبّرك البوذيون ببول البقرة، فالبقرة مقدسة فى البوذية.

(٢) من ديوان «سقط الزَّنْد» لأبى العلاء. ريح القُتَر : ريح اللحم المشوى، لحم البشر حيْثُ دأب اليهود على حرق أعدائهم بالنار، والإله الذى ظُلِمَ هو المسيح، والذين أتوْا للثم الحجر هم المسلمون.

هذا البطريرك، يدخلون على هيباثيا فى المدرّج، ويجرّونها من أرجلها ويقطعون جسدها ثم يشعلون النار فى أعضائها وجسدها.

٢- «مانى» مؤسس المانوية الذرادشتية، لم يرض عن الصراع الدينى فى زمنه (القرن الثالث الميلادى) فأنشأ عقيدة جمعت بين مزايا الأديان فى زمنه، ولكنّ رهبان الذرادشتية: صلبوه وسلخوه حيا ثم أحرقوه.

٣- أُضْطُهِد الصوفى الأندلسى محى الدين بن عربى، حيث لم يفهمه السطحيون حين قال:

لقد كُنْتُ قبل اليوم أُنْكِرُ صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلاً كَلَّ صورةٍ ... فمرعى لغزلانٍ ودَيْرٍ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبة طائفٍ ... وألواح توراةٍ ومصحف قرآنِ
أدينُ بدين الحبّ أنّى تَوَجّهَتْ ... ركائبهُ فَالحبُّ دينى وإيمانى

٤- ومأساة الحلاج غنيّة عن كل بيان.. حاكمه المقتدر العباسى (وهو من ملوك عصور الضعف) من خلال قضاته ورجال دينه، وأفْتَوْا بقتله، دون استتابة.. فأمروا بضربه ألفا، فإن لم يمت فألفين، ولم يمت فقُطّعَتْ أطرافُه، ثم انتظروا حتى أفاق من آلامه، ثم أحرقوه.

☆☆☆☆☆

عصور التقوى هى عصور رفع الشعارات

« فى القديم »

عصور التقوى ـ كما أسلفنا ـ هى عصور المبالغة فى الطقوس الدينية، وقصْر الدين فى الصلوات والصيام والحج وطريقة السلام، وطريقة دخول المعابد والكنائس والمساجد والبيوت.. أما التوجهات الأخلاقية والإنسانية، فلا يهتمّ بها أحد فى « عصور التقوى ».

بعد مصرع عثمان بن عفان، بدأ الأمويون طريقهم إلى الخلافة أو المَلَكيّة الإسلامية. فرفعوا « قميص عثمان » الملوّث بدمه. وبدأ عملاء بنى أمية يرددون أنّ « عليا وبنيه تقاعسوا عن نصرة عثمان » وأرجف الأمويون وعملاؤهم بذلك فى مكة والمدينة ودمشق، بل وفى كافة الأقطار الإسلامية، ولم يهتم الإمام علىّ بأقوالهم، وكان ـ رحمه الله ـ غير معتادٍ على استخدام العملاء والمهيّجين كبنى أمية..

وقامت معارك بين على ومعاوية.. ومع مُعَاوية عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكلاهما من « ثعالب العرب ».

وكما رفعوا « قميص عثمان » رفعوا فى « صفين »، وهى المعركة الفاصلة بين على ومعاوية، المصاحف على أسنّة الرماح، ورددوا كلمتهم أو شعارهم « لا حكم إلا لله ». وحاول الإمام علىّ أن يوضح الأمور لجنوده وأصحابه، فقال لهم: « إن ما فعله عمرو ومعاوية ومن معهم، حين رفعوا المصاحف على أسنّة الرماح، وحين قالوا لا حكم إلا لله، ما فعلوه وما قالوه « كلماتُ حقّ

يراد بها باطل » . . إلا أنّ أصحاب عليّ وجنوده توقفوا عن القتال، مع أنّهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من النصر . . وكان التحكيم، وكانت الخوارج . . . واتفق بعض « الغُلاة » على قتل على ومعاوية وعمرو فى ليلة واحدة (١٧ رمضان) . . . مَنْ ضَرَبَ معاوية لم يُوفّق لقتله، ومن ذهب لقتل عمرو، لم يكن يعرف عمراً، فقتل خارجة نائب عمرو الذى صلى بالناس فى تلك الليلة، وضُرب بذلك المثلُ : « أراد عمْراً وأراد الله خارجة » واستطاع عبد الرحمن بن ملجم قتل الإمام عليّ .

وانتهى الأمر بقيام الخلافة الأمويّة، أو المملكة الأموية، وأمر معاوية (الذى رَفَعَ المصاحف على أسنة الرماح، والذى رفع شعار : لا حكم إلا لله) أمر معاوية بلعن الإمام عليّ على جميع منابر المسلمين . . ومعاوية رجل تقيّ، بل كان أحد كُتّاب الوحى .

☆☆☆☆☆

« فى الحديث »

تقوم الجماعات الإسلامية بدور لا يُنكر فى الدعوة إلى « مظاهر التقوى » من اطلاق للحى، وتقصير للجلباب، ومن عكوف فى المساجد، واعتكاف فيها فى رمضان . .

كذلك، ترفع هذه الجماعات شعار « الإسلام هو الحل » وبما أنهم يروْن « أنهم الممثلون الشرعيون للإسلام » إذن كأنهم يرفعون شعار « نحنُ هو الحل » ونحن أولى بالحكم ممّن قد اغتصبوا الحكم سنوات وسنوات . . والتجارب تثبت أن هؤلاء لمّا وصلوا إلى الحكم فى السودان وإيران وغيرهما لم يكونوا أقلّ سوءاً من الذين اتهموهم باغتصاب الحكم .

وفى عصور التقوى تصبح النّساء أسيرات، ويصبح الحكّام جلادين . . ولا أدرى حين التحيكم وإبداء الآراء فى نتائج الدكتوراه، أتكونُ شهادة « الأستاذة الدكتورة » كشهادة « الأستاذ الدكتور » ؟

يزعم بعض من يرفعون « شعار الإسلام هو الحل »، وبعض من يملأون شاشات التلفزيون، أن المرأة أقلُّ ذكاء من الرجل، وأنّ الأولى بها أن تعود إلى البيت وإلى الحمل والإنجاب . . ونردّ على هؤلاء بالآتى :

١- اختبارات الذكاء موجودة فى كل مكان، وتطبيقها على الجميع (رجالا ونساء) لا يثبت فروقا بين الرجال والنساء .

٢- إذا أخذنا معيار جائزة نوبل، كما زعم أحدهم، فإن طبيعة المجتمعات الإنسانية هو الذى قلّل عدد الحاصلات على جائزة نوبل . . ومع هذا، فإذا احتكمنا لجائزة نوبل، فسوف نكتشف أن لا عالِم قد حصل عليها

مرتين، والعالم الوحيد الذى حصل على جائزة نوبل مرتين هو السيّدة مدام كورى، مرّة منفردة، ومرّة مشتركة فيها مع زوجها.

٣- يزعم هذا الذى يرفع « شعار التقوى » أن الحاكمات من النساء قليلات، ويرد عليه بأن الإنسان قد مرّ عليه حين من الدهر وهو محكوم بالنساء، فيما يُعرف فى التاريخ الإنسانى بالمجتمعات الأمومية؛ كذلك فمن البديهى أنه طالما أن معظم المجتمعات تجعل للنساء وضعا أقلّ من الرجال، فإنّ هذا يحجّم دور النساء. (فى أمريكا والمجتمعات الغربيّة يقل أجر المرأة عن أجر الرجل).

٤- كذلك قُتِل السهروردى فى عصر صلاح الدين.. وحاولوا قتل ابن رشد فى عصر ملوك الطوائف فى الأندلس.

٥- ومن عجبٍ أنّ ناقداً جامعيا، ممن يُفترض أنهم مسئولون عن العقل والفكر، ينتقد أدب القلق والحرية عند العقاد، ولا يقبل الخروج « عن الموروث » حين جعل العقّاد الخَطْبَ أو المصيبة مع الصبر فى حبْلٍ أو قَرَنٍ واحد:

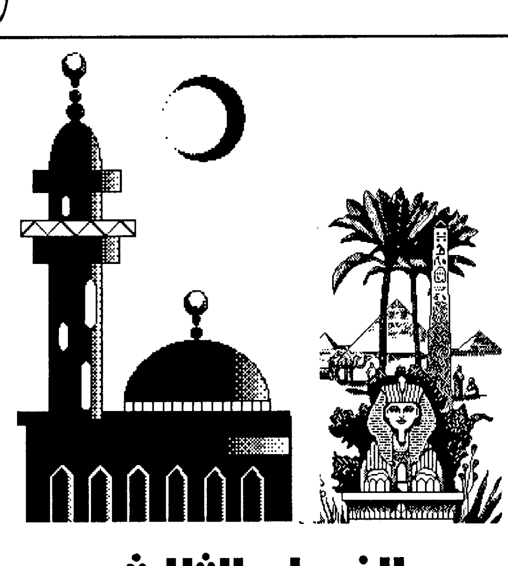
لَسْتُ على الصبر مثنيا أبداً	ما صَحِبَ الصبرَ غيرُ ذى شَجَنِ
أكان للمَرْءِ أيُّمَا أربٍ	فى الصبر لوْلا كوارثُ الزَّمَنِ
لا يجحدُ الصبْرَ هانئٌ جَزِلٌ	هل يجحدُ الطبَّ وادع البَدَنِ
الخطب يعرو، والصبرُ يَعْقُبُهُ	يا بئْسَ من صاحبينِ فى قَرَنِ

٦- كذلك اعترض بعض النقاد على قصيدة « حُلم البعث » لعبد الرحمن شكرى « لعبثها بالتراث » مع أن قصيدة شكرى هذه من النماذج الشعرية النادرة التى تُرجمت إلى لغات أجنبية وقُورنَتْ بالكوميديا

الإلهية لدانتي؛ ويقول فيها عبد الرحمن شكرى:

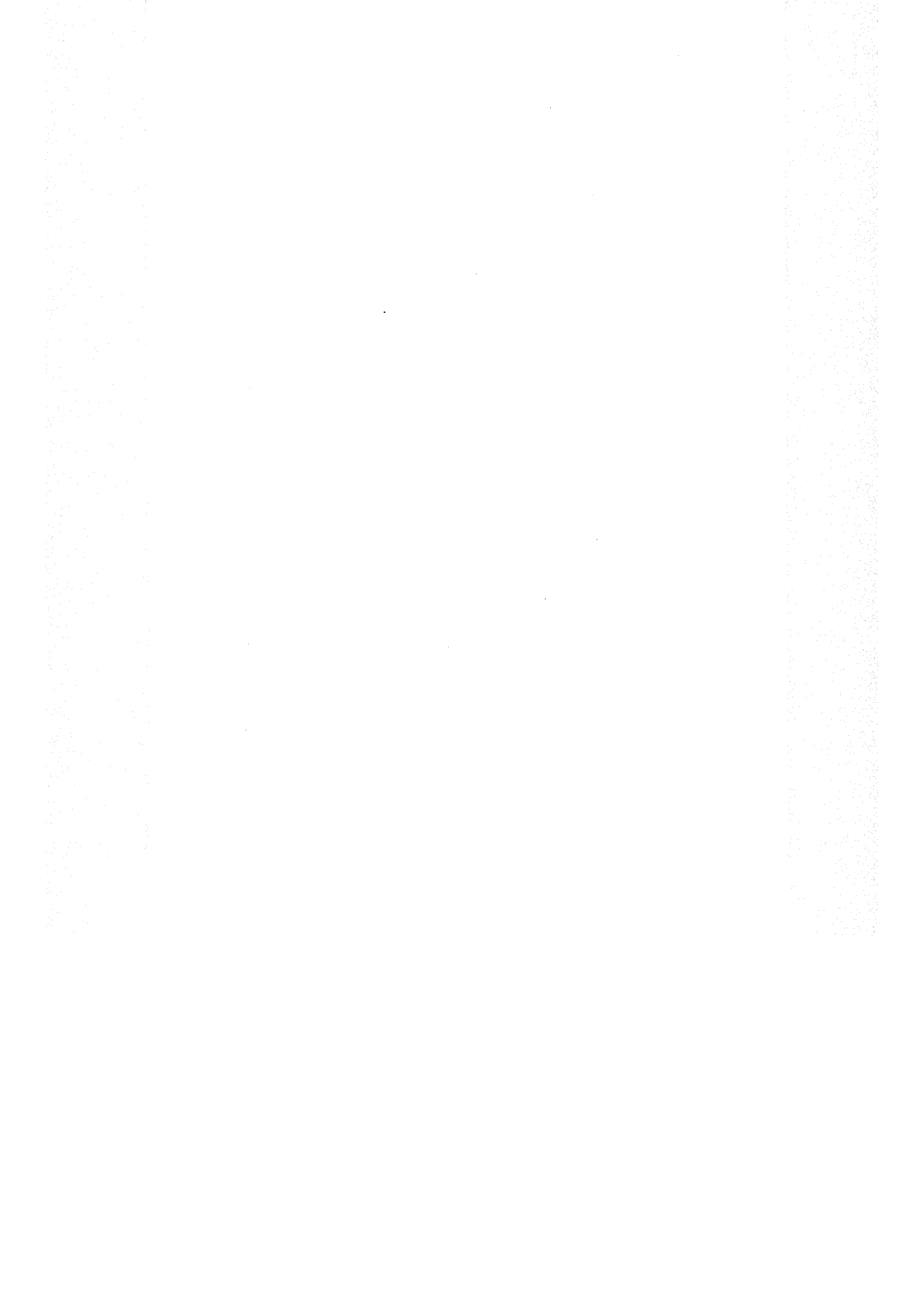
رأيْتُ فى النّوم أنّى رهنُ مظْلمةٍ ... من المقابر ميْتًا حوله رِمَمُ
ناء عن الناس لا صوتَ فيزْعجُنى ... ولا ضميرَ ولا يأسٌ ولا نَدمُ
مرّتْ علىّ قرون لستُ أحْفظُها ... عدّا كأنْ مَرَّ بى الآباد والقِدَمُ
حتّى بُعثتُ على نفخ الملا ... ئك فى أبواقهم وتنادَتْ تلكم الرِمَمُ
فقام حولى من الأموات شرذمةٌ ... هَوْجاءُ كالسيل لجٌّ جمعُهُ عَرِمُ
فذاك يبحثُ عنْ عينٍ له فُقدَتْ ... وتلك تعوزُها الأصداغُ واللِّمَمُ
وذاك يمشى على رِجْلٍ بلا قدم ... وذاك غضبانُ لا ساقٌ ولا قدمُ
مرّت ملائكةُ باللحم تعرضُه ... ليلبسَ اللحمَ من أضلاعنا الوَمُ
رَقَدْتُ مستشعراً نوماً لأوهَمَهُمْ ... أنىّ إلى البعث بى نومٌ وبى صَمَمُ
فأعجلونى وقالوا: قُمْ فلا كسلٌ ... يُنجى من البعث إنّ اللهَ مُحْتكمُ
أستغفرُ اللهَ من لغوٍ ومن عبثٍ ... ومن جنايةِ ما يأتى به الكَلِمُ

☆☆☆☆☆



الفصل الثالث

تأثير مصر الفرعونية على مصر القبطية والإسلامية



الفصل الثالث

تأثير مصر الفرعونية على مصر القبطية والإسلامية

روى الأب أبيب النقّادى[1] أنه رأى فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، وهو شاب، جنازة لقبطى، دُفِن بالجبل الغربى (غرب النيل فى مواجهة نقّادة) ورأى أقارب الميت يفتحون التابوت ويضع كلٌ واحد منهم تمثالا صغيرا (فى حجم الإبهام) مع جثة الميت، ثم أغلقوا التابوت وصاح أكبر الحضور « شُوبَاتْشِى » فقام الحضور بتحريك ألسنتهم بصوت الزغردة.

ثم تصادف أن رأى جنازة لمسلم فى نفس المكان (مقابر الأقباط كانت تقابل مقابر المسلمين) بعدعدّة أيام، وقام أقارب المتوفّى بوضع تماثيل شوباشى صغيرة فى كفن الميت، وصاح أكبر الحضور « شُوبَاشِى » فقام الحضور بتحريك ألسنتهم بصوت الزغردة.

وعلّق الأب أبيب فقال: إن التراث المصرى الفرعونى ظل مؤثراً فى مصر القبطية، ثم فى مصر الإسلامية. (شوباتشى تعنى بالمصرية القديمة المردّدين، وكأنّ هذه التماثيل تردد الدعاء للميت).. ومن الأمور العجيبة أن يردد المصريون شوباش الآن فى أفراحهم، وهذا يؤكد عمق التراث الفرعونى القديم.

لا تزال كلمة «بُق» أو«بُؤّ» المصرية، إعلانا عن **Bouch** أو **Boô**

---

(١) الأب (الراهب) أبيب النقادى من أب صعيدى وأم من يونان المنصورة اشتغل فى كنيسة الحبشة، وفى كنيسة أرثوزكسية فى البوسنة، كان يُتْقِن اللغات المصرية، فضلا عن الإنجليزية ولغات أخرى، نقل إلينا «الجبتانا» (أسفار التكوين المصرية) عن مانينون السمنودى، وكان مسئولا عن ندوة المثقفين فى المنصورة (فى فترة عمله الأخيرة فى كنيسة الريدانية) التى كان يحضرها ناجى وعلى محمود طه، وسنّان باشا ومحمود الألفى، وسليم أنطون، والأنبا تاوفيلوس (عبد الشهيد صادق بانوب) وآخرون. توفى ١٩٥٩ عن ستة وتسعين عاما.

الفرعونية بمعنى فم، بل لا تزال « البوسة » بمعنى القُبْلة مستخدمة، بلْ نُحتَ منها الفعل « يبوس » أى يُقَبّل.

« عوزير » هو « أوزير » و « أوزيريس » مذكّر إيزيس، يروى ديودور الصقلّى أنّ أو زير هذا كان ملكا مصريا اكتشف الزراعة والصناعات والحرف والمحراث والكتابة والأبجدية الهيروغليفية... وكلام ديودور يؤكد تحويل الأبطال والملوك القدامى إلى آلهة، حين يلتئم الشعب (بعد القبائلية) ويظهر الدين، وقد سبق أن عرضنا آراء علم الاجتماع الدينى فى أن القبيلة تحتاج إلى توتم، كما أن حركة هجرة قبائل متّحدة يقودها « أبونيم **Eponym** » هو رئيس القبيلة، التى تحوّله إلى رمز أو زعامة أو نُبُوّة، فإذا ترابطتْ عدّة قبائل، وصارت شعبا يحتل مكانا، فهذا هو النبى المكلّف بأمر السماء.. وصار « أوزير » هو « عزيز مصر[1] الذى اشتهر فى العالم القديم بحامى حمى مصر، وقاهر أعدائها وآخذهم أخْذَ « عزيز مقتدر »، و« عُزير » باق فى « عاشور » الشعبية، وفى « العُزّى » (صنم جاهلى) وفى « ليعاذر » المسيحية، وعاذر لأن البعث وإحياء الموتى، كان فى دائرة اختصاص أوزير ملك الموتى، الذى تحوّل فى العهد القديم والجديد إلى عزرائيل.

« عَنخ **Anx** » الفروعنية تعنى مفتاح الحياة أو بدء الحياة، وهى نفسها أخنوخ **Enoch** القبطية، ثم نراها فى الصيغة « الحاميّة » « نوح » فى القرآن.

ورث المصريون (مسيحيون ومسلمون) احتفالات فرعونية كثيرة: يوم النقطة حيث لا يحتاج الخبز إلى خميرة. يوم شم النسيم. يوم الأربعين

(١) قانون ڤيرنر فى فقه اللغة، بالتبادل بين الراء والزاى (ر = ز) فالراء أعمق فى الحلق وأسهل منها الزاى، لأنها سنانية).

(حيث كانت تنتهى مراسم التحنيط المعقدة) .

كما ورث المصريون فكرة الحاكم الإله، وطبقّها من صاغوا فكر المسيحية المصرية (وهى أساس المسيحية العالمية) بطريقة إثناسيوس الذى قال بالطبيعة المزدوجة للمسيح (ناسوت ولاهوت) ورُفض فكر القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح (ناسوت فقط) وكان يتزعمهم آريوس الذى أُضهد وعُذّب ونُفى فى جزيرة من جزر البحر المتوسط، ثم تم اغتياله .

وتذكر كتب السيرة الإسلامية أن نبىّ الإسلام أرسل رسالة إلى « المقوقس » عظيم القبط فى مصر، يدعوه فيها إلى الإسلام، ويقول فيها نبىّ الإسلام للمقوقس : « أسْلِمْ تَسلمْ وإن لم تسلم فعليك إثم الأريسيّين » أى أتباع آريوس، والمفروض أن نبىّ الإسلام يكون فى صف آريوس، القائل بالطبيعة البشرية للمسيح، لا أن يكون فى صف إثناسيوس، القائل بجمع المسيح بين الناسوت واللاهوت . (وفى القرآن : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** ﴾ [المائدة: ٧٣] .

كذلك، فإن « رؤيا مانيتون السمنودى » فى الجبتانا[١]، نجد لها مشابها فى الفكر المسيحى، رؤيا يوحنا اللاهوتى، ونجد لها مشابها مشهورا فى الإسلام وهو الإسراء والمعراج .

ولا يزال الفلاحون المصريون يعملون فى الزراعة وفق التقويم الفرعونى القديم (ويسمى الآن بالتّقويم القبطى : توت . بابه . هاتور . كيهك . طوبة . أمشير . برمهات . برمودة . بشنس . بؤونة . أبيب . مسرى = ١٢ شهرا X ٣٠

(١) الجبتانا ـ أسفار التكوين المصرية التى سجلها مانيتون السمنودى، ورواها الأب أبيب النقادى .

يوما = ٣٦٠، ثم خمسة أيّام نسيء لضبط السنة الشمسية عند ٣٦٥ يوماً وهو ضبط دقيق. أما التقسيم الجرجانى الرومانى فإنّه ضَبَط السنة الشمسية عند ٣٦٥ أو ٣٦٦ يوما. أبريل يونيو سبتمبر نوفمبر = أربعة أشهر X ٣٠، ٤ X ٣٠ = ١٢٠ يوما ويناير. مارس. مايو. يوليو. أغسطس. اكتوبر. ديسمبر = سبعة أشهر ٧ X ٣١ = ٢١٧ يوما وفبراير ٢٨ أو ٢٩ يوما، إذن فالسنة ٣٦٥ يوماً أو ٣٦٦).

وواضح أنّ ضبط السنة عند ٣٦٥ يوما عند الفراعنة ضبط دقيق، أكثر من التقويم الجرجانى وأكثر منطقية، فالشهور الفرعونية كلها ثلاثون يوما وأيام النسئ خمسة أيام (من حق المعبد الفرعونى القديم أن يزيدها كل بضعة عقود إلى ستة أيام، ومن حقّ الكرازة المرقسية ذلك).

وكان المصريون فى الزمن الفرعونى ثم فى الزمن القبطى وحتى فى الزمن الإسلامى حتى أوائل القرن التاسع عشر، يفضّلون ويحتفلون بشهر بابه، على أنه فى بداية شهور الشتاء حيث تقل الحشرات ويعتدل الجو.. وكان معظم القادرين من أهل القاهرة يقضون شهر بابه، فى الحدائق والمنتجعات النيلية فى «مُنْ بابه» أى متنزهات «بابه» والتى تحولت فى زمن محمد على إلى «إمبابه».

وتذكر متون الأهرام شيئاً عن اعتدال الجو فى «بابه» ونقائه من الحشرات التى يبدو أنها كانت تؤرقهم، فتقول المتون مشيرة إلى موت أحد الملوك (والترجمة للأستاذ جيمس هنرى برستد)[1]: «السماء تبكى من أجلك. والسحب تمطر وتجعل السماء ملبدة بالظلام، والأقواس[2] تترنّح، وعظام

(١) الترجمة من المصرية الهيروغليفية لأعظم قارئ للغات المصرية وهو برسْتد.. والترجمة إلى العربية من الانجليزية للأستاذ سليم حسن الخبير فى المصريات؛ والذى يعرف جذور الحضارة المصرية.

(٢) «الأقواس تترنح» العبارة غامضة، لكنّ الأقرب إلى العقل أن المقصود بالأقواس مجموعات النجوم.

كلاب جهنم ترتعد والبوّابون واجمون عندما يرون جلالَ المَلِكِ « وِناسْ » يشرق عليهم فى شكل « با » .

صارت الجنة الموعودة (بارا دوس = بيت النعمة) خاصة بالملوك الفراعنة بناة الأهرام، وأصحاب المتون المشهورة (متون الأهرام) التى نُقشت من أجلهم على الحوائط الداخلية، حيث تساعد تلك المتون، باعتبارها مفاتيح سحريّة أو قوى رمزيّة على دخولهم مملكة السماء، وفق المذهب الشمسى، حيث يدخلون إلى السماء من بوابتها الشرقيّة المقدسة، حيث تقف الجميزة السماوية المقدسة، أو الجميزتان السماويتان فى الشرق الأقصى من السماء.[1] حيث يعبر فرعون بحيرة السوسن وأرض العجائب التى يقابل فيها مخاطرَ كثيرة من القوى الشريّرة والتَنانين.. ويَعْبُرُ فرعون المتوفَى.. حيث يجد قارب العبور وملاحه فى انتظاره.. ولا ينظر فرعونُ إلى أمام وهو يعبر، بل إنّ اسم الملاّح هو « انظر إلى الخلف » أو « الناظر إلى الخلف »... وإن لم يعبر به الملاّح، تحوّله القوى السحريّة صقرا يطير إلى السماء، حيث أبيه « رع » أو أمّه الصلّ أو ثعبان الكوبرا.. وإن لم يحدث ذلك تجعله المتون بقواها السحريّة يتسلّق أشعّة الشمس إلى السماء « حيث أبيه السماوى[2] » وإن أبواب السماء المزدوجة لتتفتح أمام فرعون[3] « وتصير مزاليجها

١) فى القرآن الكريم - سورة النجم. الآيتان ١٤ و ١٥ : ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾. والسدرة : شجرة النبق وهى صحراوية. أما الجميزة فهى شجرة مصرية عريقة.

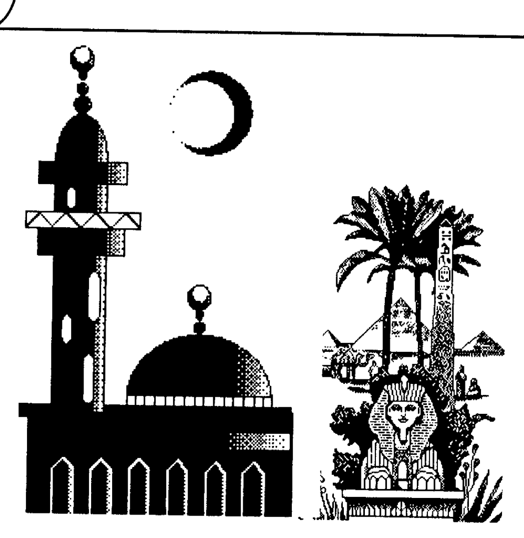
(٢) يشير المتن إلى « رع » أو « رب » أو « لا » على أنّه الأب السماوى للفرعون، ونفس هذه التسمية فى العهد القديم، نعتقد أنها منقولة عن مصر الفرعونية، وانتقلت من العهد القديم إلى العهد الجديد « يا أبانا الذى فى السموات ».

(٣) أبواب السماوات تتفتح أمام فرعون الصاعد إلى السماء « حيث أبيه السماوى » وفى القرآن الكريم : ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ : ١٩].

مفتوحة » (وهذه العبارة تتكرّر لفتح أبواب السماء « بطريقة افتح يا سمسم ») .

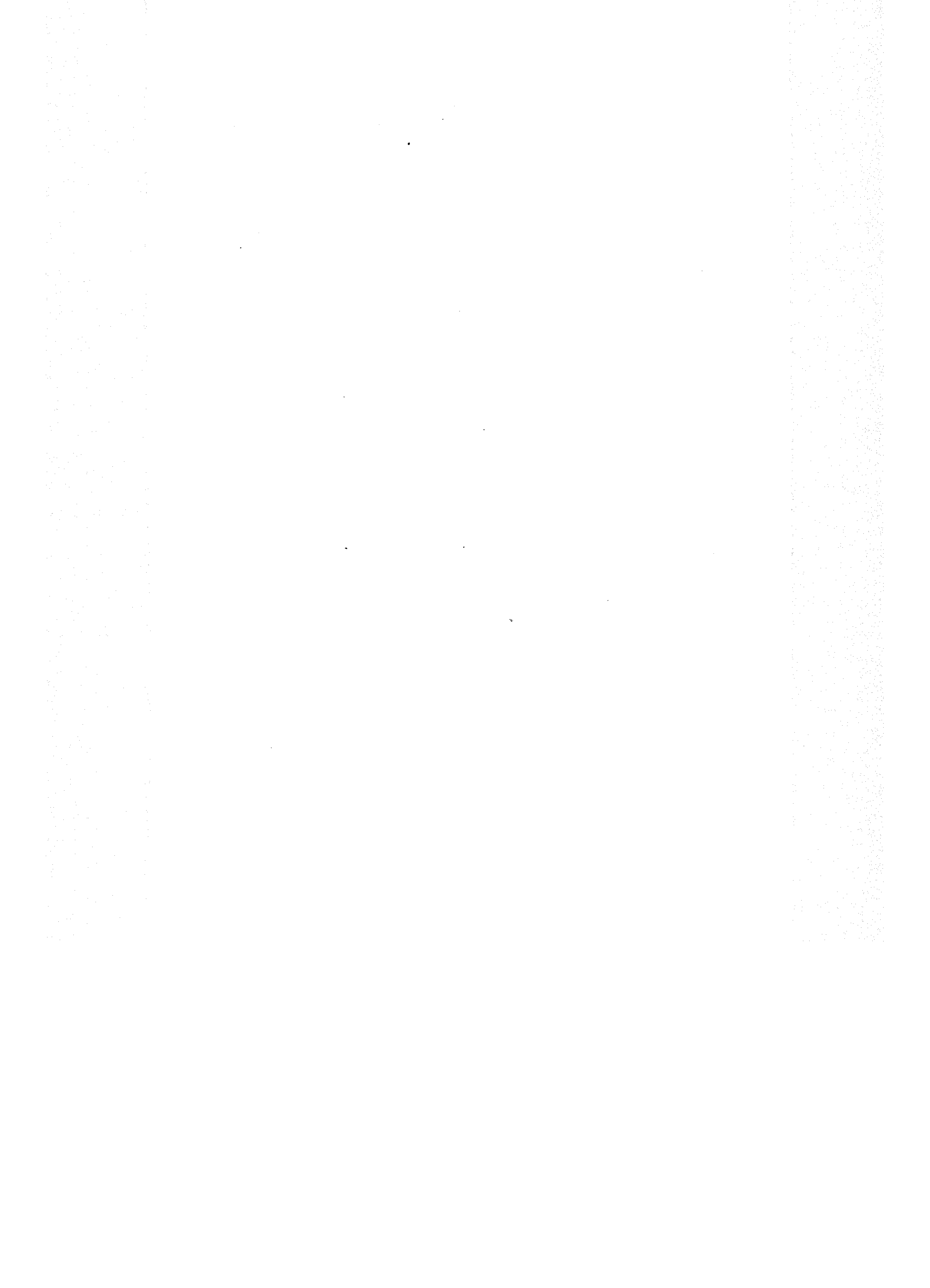
ويتحوّل فرعون الصاعد إلى السماء (بالقوى السحرية للمتون) إلى مارد يخيف الآلهة المتربصين، حتى أنّ إله الشمس نفسه يخشاه، لأن فرعون يعرف اسم الإله (وهو غير المحدود) ويعرف اسم والد الإله (مالك العظمة) واسم أم الإله (الرّضى)، وفرعون الصاعد إلى السماء، قادر على منع ميلاد الشمس، إذا حُجِزَ هو عند باب مملكة الشمس.

☆☆☆☆☆



الفصل الرابع

ازدحام الشرق الأوسط بالهجرات والأنبياء واختلاط السلالات والثقافات



ازدحام الشرق الأوسط بالهجرات والأنبياء واختلاط السلالات والثقافات

(أ)

عَرَف المصريون القدماء الهكسوس Hyksos و العَمُو Ammou والميتانى Mitanni والحيثيين Hatti، وعرفوا بنى إسرائيل أيام مرنبتاح Merenptah (١٢٣٢ ق.م - ١٢٢٤ ق.م تقريبا) . وفى الألف الأولى قبل الميلاد عرفوا الأشوريين والفرس والبطالمة، ولم يرد للعرب ذكر فى التاريخ المصرى القديم. كذلك لم يرد لهم ذكر فى أى نَصّ من نصوص حضارات الشرق القديم قبل القرن التاسع قبل الميلاد.. والوثائق الأشورية التى ترجع إلى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، تشير إلى ملكات العرب.

والمعلومات عن شمال شبه الجزيرة ووسطها نادرة قبل القرن الثانى قبل الميلاد، أى بنحو ثمانية قرون قبل ظهور الدعوة الإسلامية.. أما المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، فقد كانت شبه مستقرة حيث حضارات سبأ وحمير ومعين وقتبان... وكانت الأبجديّة الآرامية هى الشائعة قبل الميلاد بقرون وبعده بقرون، وكانت هى الأبجدية الشائعة فى الهلال الخصيب، سواءٌ بين من يتكلمون الآرامية أو السريانية أو العربية.. حيث كانت المنطقة كلها مزدحمة بالهجرات والسُّلالات والنُّبوّات التى كانت تبحث لشعوبها عن مناطق خصبة، تحميهم من المجاعات.

وانتساب عرب الشمال إلى اسماعيل يجعلهم أبناء عمومة لبنى إسرائيل

(يعقوب) أو بتعبير أدق أنصاف إخوة، فالجد الأعلى للطرفين هو ابراهيم أبو اسحق وجد يعقوب (إسرائيل) من جهة، وأبو اسماعيل وجد عدنان، من جهة أخرى.

ودراسات علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع الدينى الغربيّة، ترى أن أسماء أبطال وأنبياء السامية، ليست إلا إشارة لما يُعرَف بالأبونيم[1] القومى لموجة هجرات عاتية (هند أوربية) تلاحقت ثم استقرّت فى الهلال الخصيب ومنطقة شبه الجزيرة العربية.



(١) إبونيم Eponym اسم رمزى يُطلق فى علم الاجتماع الدينى على النبوات والبطولات التى قادت شعوبها فى الهجرات، والتى أوهمت شعوبها بالوحى والنبوة والاتصال بالله.

(ب)

العهد القديم يجعل ابراهيم ينتمى إلى بدايات الألف الثانية ق.م، أى نحو ١٨٠٠ ق.م وقد نشأ ابراهيم (أول إبونيم للعبرانيين) فى أور أو فى حَرّان فى بيئة كانت تعبد الإله سِنْ (**Sin**) إله القمر، ورفَضَ إبراهيمُ قبائلية قومه، فدعاهم إلى وحدة الوطن والشعب والمعبود، وهاجر إبراهيم غربا مع قومه إلى كنعان، وكان اسم إله إبراهيم شَدَّاىْ **Shaddai** أى « إله الجبل » بالآرامية، واستمرت فكرة توحيد الشعب والمعبود فى بنى إبراهيم عبر اسحق ويعقوب مؤسسى إسرائيل وأخلافهما حتى موسى، ويرى كثيرون من دارسى تاريخ العبرانيين أن موسى ينتمى إلى القرن الثالث عشر ق.م، كما يرون أن تاريخ طرد المصريين للعبرانيين وخروجهم من مصر، كان فى عهد منفتاح، وقد سمى موسى إله العبرانيين « يِهْوَه » **Yhwa** ولكن يشير سفر التكوين (٤ / ٢٦) إلى أن عبادة يِهْوَهْ أقدم من موسى.. ويرى دارسون كثيرون للثقافة الدينية اليهودية، أن التوحيد فى بنى إسرائيل من إضافة أنبياء القرن الثامن والسابع قبل الميلاد، خصوصا لدى النبىّ دانيال، وكان من المعروف ـ منذ القديم ـ أن الساميين والعبرانيين كانوا يعبدون معبودا واحداً باسم « إلْ » **El**، وكان هو الإله الخالق، وفى سفر التكوين (١٤ / ١٩) أن الملك سالم **Jeru Salem** فى كنْعَان كان كاهن الإلَه إلْ **El. Elyon** وهى آرامية تقترب من العربية ألْعليّون أو الأعلى **The most high**.

ويرى بعض دارسى الهجرات، احتمال أن يكون بِرَاهْما **Brahma** هو النبى أو « الإبونيم » القومى لموجة هجرة هندية إيرانية استقرّت فى أور عَبْر

لوريستان فى إيران، ثم هاجرَتْ إلى حَرّان فى عهد الكاسيين (١٨٠٠ ق.م) . . . ويرى بعضهم احتمال وجود صلة بين براهْمَا وإبراهيم.

أما مانيتون السمنودى فيقول: « كان موسى كاهنا مصريا فى معبد رَعْ بهليوبوليس، وكان اسمه « أوزير سيف »، ودعا دعوة دينية جديدة، رفضها كهنة رع، فهاجر موسى إلى « أفاريس » عاصمة الغزاة الهكسوس وأقام بينهم وأعطاهم شرائعه وقوانينه، ثم قادهم فى خروجهم من مصر، وهم الذين سمّوه فى أفاريس « موسى » التى تعنى بالمصرية « وليد أو ابن أو ابن النهر »؛ وبدهىّ أن المدوّنات التاريخية المصرية، تذكر تاريخا حقيقيا لمصر والعبرانيين. ولا توجد أية إشارة لخيالات العبرانيين عن عبور البحر وغرق الجيش المصرى.



(جـ)

هناك قصتان للطوفان، قصة العهد القديم، وقصة طوفان «الأوڤستا» الزرادشتية، مع العلم بأن إله العواصف اليونانى كان اسمه «تيفون» كذلك فإن سكان جنوب شرقى آسيا القدامى كانوا يطلقون اسم «تيفون» على أى مدّ بحرى مُدمّر.. الأوڤستا تقسّم البشر إلى ساميين وطورانيين وآريين، أما العهد القديم فيقسمهم إلى ساميين وحاميين وآريين.

ليس ثمة مبرر للخلط بين الأجناس واللغات والثقافات، إذ إن التّمازج يحدث بسبب التحام الهجرات، فيؤدى ذلك إلى التأثير فى اللغات وصفات الأفراد وثقافاتهم

علينا أن ندرك أن اللغة العربية ـ كغيرها من اللغات السامية ـ ليست فى صلبها إلا تطوّرا طبيعيا من نفس الجذور التى خرجت منها السنسكريتية وإيرانية الزند واليونانية واللاتينية والمجموعة اليتوتونية.

وليس من الضرورى أن تكون الأصول واحدة فى سلالة ما، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية العنصرية ونقاء السُّلالات، فالمصريون وعامة شعوب شمال إفريقيا ينتمون سلاليا إلى عنصر غير عربى، ومع ذلك قبلوا اللغة العربية، حين قبلوا ثقافة الإسلام، بل إن أقباط مصر الذين لم يقبلوا ثقافة الإسلام، قبلوا اللغة العربية لأنها أصبحت لغة مصر القومية، وبالمثل فإن المصريين المسلمين، رغم قبولهم للثقافة الإسلامية، امتصوا الكثير من عناصر اللغة القبطية الديموطيقية ومزجوها بالعربية، وهكذا ظهرت العاميّة المصرية التى مزجت بين العربية والتراث المصرى القبطى والفرعونى.

☆☆☆☆☆

(د)

حين ننظر إلى خريطة بطليموس، فى القرن الثانى الميلادى لشبه جزيرة العرب، لا يسعنا إلا أن نتوقف كثيرا أمام بعض الأعلام التى تقطع بوجود جالية مصرية.. فمنطقة «الطائف» تظهر فى بطليموس باسم طيبة»، ومكة تظهر باسم مَلْكاىْ Malichae ، ووجود هذه الأسماء قريبا من الميلاد، يوحى بتأثيرات مصرية سابقة للتاريخ الإسلامى. والتوراة تشير إلى أن «أماليك» كانوا يسكنون فى شبه الجزيرة العربية، وهذا يطابق الرواية العربية بأن مكة كانت - قبل مجئ العرب - يسكنها قوم اسمهم العماليق، ومنهم بنوجرهم، وهذا يفسّر اسم مكّة، كما ورد عند بطليموس، وكما ورد فى العهد القديم، وهذا يعنى أن الهكسوس (الهاجازازى = الحجاز) عندما طردهم المصريون استوطنوا الحجاز، واتخذوا من مكة عاصمة لهم.. ولا يستبعد المؤرخون أن يكون المصريون، بعد أن طردوهم عبر برزخ السويس، طاردوهم بعد ذلك بتجريد حملات عليهم عبر البحر الأحمر جهة الأقصر والقصير أيام مجد طيبة فى الدولة الحديثة فى زمن التحامسة والرّعامسة، واحتلوا ساحل الحجاز المواجه لمصر وأطلقوا عليه اسم طيبة (كما ورد فى بطليموس الجغرافى).. وبعد انحلال مصر، انتهى النفوذ المصرى وبقى اسم طيبة «الطائف» الذى ورثه العرب بعد احتلالهم للحجاز فى زمن تالٍ للقرن التاسع قبل الميلاد.

فالعرب - إذن - موجة متأخرة جدا من الموجات التى نزلت إلى شبه الجزيرة من القوقاز والمنطقة المحيطة ببحر قزوين والبحر الأسود، نحو ألف عام

قبل الميلاد، أو قبل ذلك. ولعلها لم تستقرّ في مكان ما في بلاد ما بين النهرين أو في الشام، لأنها وَجَدَتْ في هذه وتلك أقواماً منظمين أقوياء، فنفذت إلى الفراغ الكبير في شبه الجزيرة من طريق بادية الشام، حاملةً معها لُغَتَها القوقازية المتفرعة عن المجموعة الإندو أوربية.. وفضّلت الحياة والحرية في بادية شبه الجزيرة، على قيود وديان الأنهار مكتفية بروابط العصبية القبلية عن الارتباط بالوطن «سجن المتحضرين» كما يقول ابن خلدون.



(هـ)

بسبب النّعرة العربية العنصرية، أصرّ اتجاه عربى كبير على الإيمان بأن اللغة العربية قديمة، قدم الخليقة (هكذا!!) وأنها أقدم اللغات طرّا، وهى بغير وشائج تربطها بلغات أخرى، ومن هنا توقف علم الاشتقاق فى اللغة العربية عند حدود علم « الصرف » أو المورفولوجيا ليفسّر ظهور المثنّى والجمع من المفرد، أو ظهور الأسماء من الأفعال.. ولم يبحث فى جذور الألفاظ وتطورها وصلتها باللغات الأخرى..

وذات مرّة، ردّ أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس، فى مدرج « على مبارك » فى دار العلوم، على طالب ادعى قدم وقداسة اللغة العربية، فقال للطالب: « ... إن اللغة الأمهرّية والحبشيّة تحتفظ بلفظ « قاشْوَر » للدلالة على الأسد العنيف أو النمر... وهذه الكلمة نُقِلَت إلى اللاتينية فى بدايات الصراع المسيحى فى الحبشة وجنوب شبه الجزيرة العربية، ونُقِلَتْ هذه الكلمة إلى اللغة العربية والقرآن ﴿ **كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ..** ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١].

ثم أردف الدكتور أنيس قائلاً للطالب: « ... إنّك لو راجعْتَ تفسير معنى قسورة فى كتب التفسير، فسوف تحس بالعمد فى الابتعاد عن المعنى الحقيقى للفظ قسورة (الأسد) والقول بمعانٍ أخرى بعيدة عن الحقيقة والصحّة اللغوية » وجعل المعنى الحقيقى « الأسد » هو المعنى الثالث.... ».

يقول الإمام الشافعى فى « الرسالة » بتحقيق محمود شاكر: « القرآن يدلّ على أنْ ليس من كتاب الله شئ إلا بلسان العرب » والشافعى لا يستند فى هذا الرأى ـ كما يستند القاضى عبد الجبار إلى ما دخل العربية من الألفاظ

الأعجمية فتعرّب، وهى نظرية راقية فى تأثر اللغات بعضها ببعض، فالقاضى عبد الجبار ذو ميول اعتزالية، وإنما يستند الشافعى إلى شمول اللغة العربية بحيث تستوعب كل الألفاظ، وهذا الرأى ينقل القداسة من القرآن إلى اللغة العربية، وهذا ما جعل الشافعى يقول: «حيثما وجدنا لفظين متشابهين فى اللغة العربية وفى لغة أخرى، فإن الأخرى هى التى أخذت من العربية لا العكس، لأن الناقص يأخذ من الكامل وليس العكس»!!؟؟

وهذا التعصب للغة العربية وكمالها، انتقل عبر الأجيال حتى وجد تعبيرا عنه فى قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم عن اللغة العربية، فيتحدث باسم اللغة العربية قائلا:

أنا البحرُ فى أعماقه الدرّ كامنٌ ... فهل ساءلوا الغوّاص عن صدفاتى

وسعْتُ كتاب الله لفظاً وغايةً ... وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعظاتِ

فكيف أضيقُ اليومَ عن وصف آلةٍ ... وتَنْسيقِ أسماءٍ لمُخْتَرَعاتِ

وعارض المعتزلة (لميلهم للعقل) فكرة قدم اللغة العربية، وكثيرون منهم كانت لهم لغات أمومة سابقة على العربية، فآمنوا بأن اللغات - أيا كانت - وسيلة لتوصيل الفكر للآخرين.. ومن عجب أن يقول محمود شاكر ابن القرن العشرين: «والعرب أمة من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات، كانت قبل إبراهيم واسماعيل، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية والفارسية» وهو لا يدرى أن لغة إبراهيم كانت الآرامية المنحدرة من المجموعة الإندو أوربية.

☆☆☆☆☆

(و)

ثم بدأ علماء أوربا الاهتمام باللغات الشرقية القديمة، فاكُتشفَتْ لوحات مسمارّية بلغة البارسى **parsee** ، وبلغة الزِّنْد **Zend** ، وهى الإيرانية القديمة من خلال نصوص الأوڤستا، وأكتُشفَتْ اللغات الهندية السنسكريتيّة **Sanskrit** والبراكريتية **Prakrit** من خلال نصوص الڤيدا **Vedas** ، ثم اكتُشفَتْ المصرية من خلال نصوص حجر رشيد، ومن برديات مصرية كثيرة، فضلا عن متون الأهرام ومتون التوابيت.. وظهرتْ آليات حديثة لمعرفة تواريخ الحفريات وتواريخ المتون، مثل استخدام كربون ١٤ وامتصاص الفلورين.

واكتُشفَتْ بقية لغات الشرق الأوسط القديم «مَعْبَر الهجرات» كالسومرية والآكاديّة والحيثية والكنعانية، ولغات سبأ وحِمْير ومعين وقتبان.. وقُسِّمتْ اللغات إلى سامية وحامية وهند أوربية (أو ما كان يطلق عليه ماكس مولر ـ المجموعة الآريّة).. ثم كان تقسيم آخر مستند إلى أبطال الطوفان (تيفون) الذين جاءوا فى أوڤستا زرادشت، وهم: إيريك وسام (أوسَلَم) وطور.. وقالت الأوڤستا إنّ إيريك أبو الآريين أو الإيرانيين، وسام أبو الساميين أو الشاميين، وطور أبو الطورانيين المحيطين بإيران (الترك – التتر – المغول – الأكراد).. وصار دارسو اللغات من العرب ـ الآن يدركون تداخل اللغات (كما تداخلت الأجناس).. ثُمْ اللاتينية ظرف زمان (**tum**)، وهى نفسها ثمّ وثمّة العربية.. «صوت» قريبة من **sound** الانجليزية و **Sonitos** اللاتيتية، عمود وعماد العربية نراها فى إمْدو وإندو الآكادية، وهى عَمَد فى

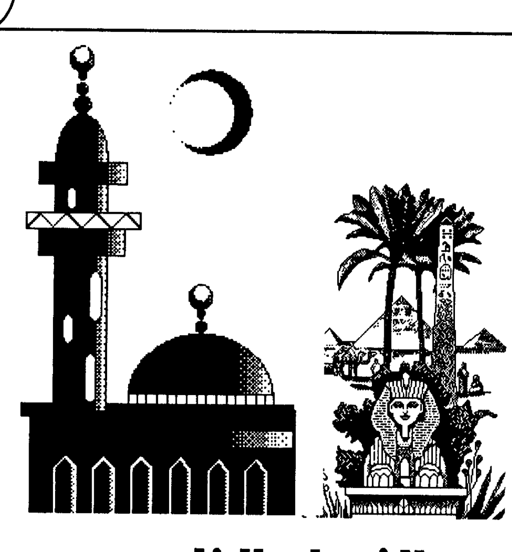
الفينيقية، وعَمَد فى العبرية، وهى عموذا فى الآرامية، وهى عَمَد فى الأمهرّية الحبشية.. « ذيل » العربية قريبة من تيل الإنجليزية وديل فى العامية المصرية.. خَتّ وختم فى المصرية القديمة، هما أصل ختم العربية والخاتم بل لا تزال فى القبطية « شو تم » بنفس المعنى والنطق قريب، وقريب من هذا « خَتْمَتْ » المصرية القديمة بمعنى العهد والميثاق (كأنّه خُتِم عليه).. « غَنّى » العربية موجودة فى الأصل اللاتينى كانو **cano** ، وموجود نفس النطق والمعنى فى العبرية « غنَا ».. « حَبْل » العربية وكَبْل الانجليزية اللاتينية، وفى العربية كَبّله ربطه أو قيده.. أنا ونحن العربية نراها فى « إحنا » العامية، ونينو وأنينو فى الآكادية، ونحْنا **Nehna** فى الأمهرية الحبشية، و« نو » **Nos** اللاتينية .. « الكا » قرين الميّت فى الميثولوجيا المصرية هى نفسها (أُخْتَ العَربية والأخ) والعامّة يقولون: إذا لم تُصرَف الروحُ أو الأخت، فإنها تتبدّى لبعض الناس (أخت الميت طَلَعَتْ من تحت الأرض) وهذا تأثير فرعونى. « تمبا » المصرية القديمة بمعنى الذيل، وربما كانت تُنطق زمبا، وهى موجودة فى الأمهرّية الحبشية « زاناب » كالعَربية و« ذنبا » العبرانية، و« زيباتو » الآكادية، و « دُنْبا » الآرامية السريانية، « شَبَتْ » المصرية تحولَتْ لـ (شفة) هى نفسها « شبت » العبرانية، وهى « شفة » العربية، والمصرية القديمة أسْبَق من العربية بعدة آلاف من السنين، « خابار » المصرية بمعنى صار أو كان، ولا يزال المصريون المعاصرون يرددونها فى قولهم « خابار كان » أى أن « كان » العربية[1] تعنى « خابار » المصرية. المصريون لهم سبق فى « الميزان » حيث يُرى الميزان المعلّق فى متون التوابيت، بل يُرَى فى متون مصرية، وقد وُضِعت ريشة « أوزير » فى

(١) لويس عوض: مقدمة فى فقه اللغة العربية.

كفة، وقلب الميت فى الكفة الأخرى، ووحدة الوزن كانت شاقلاه أو دبن، والشاقلاه أساس « ثُقْل » العربية، والشاقل وحدة النقد فى إسرائيل إلى اليوم، و« الشاقول » عصا فى طرفها حديدة تقاس بها الأرض الزراعية فى مصر القديمة، وهى « مصرية » أقرّها المجمع اللغوى. ويذكر العبرانيّون أن المصريين القدماء هم الذين سَمّوا « **Seros** سيروس » أى « الشعرى اليمانية » والكلمة فى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة.. إذنْ كما اختلطَتْ وتلاقحت الأجناس، تمازجت اللغات واختلط بعضها ببعض، فلا حق لأحد أن يدعى قدم لغته أو شرفها، أو أنها لغة الله، ولغة أهل الجنة، وسبق أن ذكرنا أن « سورتا **Sorta** » المصرية القديمة، تعنى « المتن المستخدم فى القداس »، وهى أساس « سورة من سور القرآن » وأساس « سِفْر » العربية، و« سيفْر » العبرانية بمعنى كتاب، وموجودة فى الآرامية والسريانية والفينيقية « سوارْ. صُوَارا ».. كذلك فإن « ستْ » المصرية (رمز الشّر) نُوِّنَتْ فصارت ستنْ ثم ساتان والشيطان. كذلك فإن « أوزير » أو « عوزير » هو المسئول عن الموتى، فصار فى الساميات « عوزير إيل » أو « عزرائيل ». كذلك فإن « بارا » المصرية بمعنى بيت، وهى التى نسمعها فى « بارا أون » البيت العالى والتى صارت علماً على « فرعون » حاكم مصر، ثم أضيف إلى « بارا » لفظ « دوس » بمعنى نعمة، فكانت البارا دوس أو الفردوس ... وواضح تغلغل التراث المصرى القديم فى التراث السامى[١].

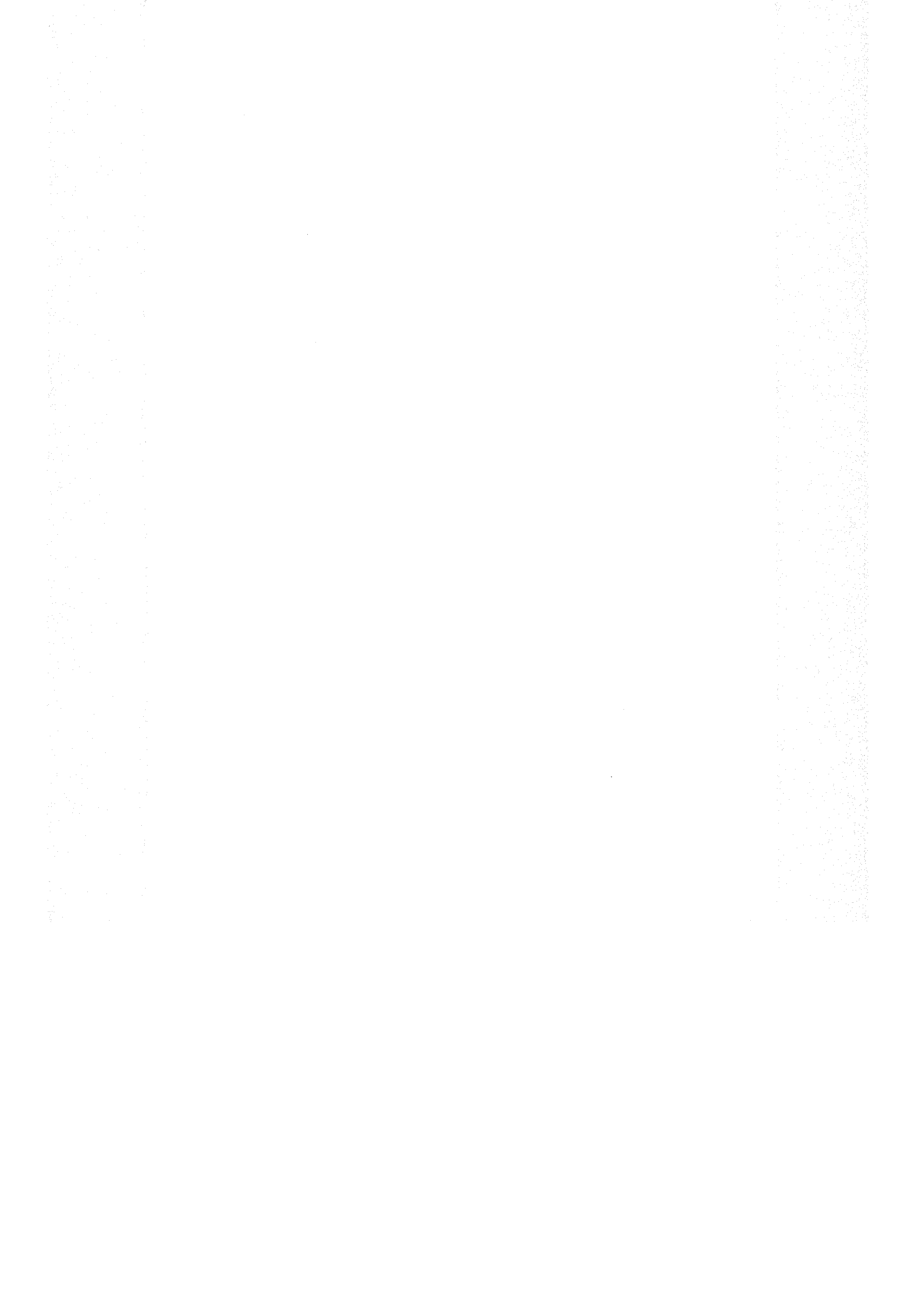
☆☆☆☆☆

(١) عن الأب أبيب النقّادى شخصيًا.



الفصل الخامس

الشرق الأوسط بين حضارات الأنهار وهجرات الجائعين



الشرق الأوسط
بين حضارات الأنهار وهجرات الجائعين

(أ)

■ **الدجّالون فى تجمعات الأسواق.**

تكثر فى المدن وبعض القرى الأسواق الأسبوعية، كما تكثر فى المدن الكبرى «الموالد» وهى تجمعات مهرجانية، يتزاحم فيها الباعة والمشترون، ومن يعرضون قدراتهم العضليّة والفنيّة أمام جمهور السّوق.

لكنْ، فى «الموالد» - أيضا - يكثر الدجّالون والنصّابون والبلطجية(١)، ومن يقرأون «الطالع» و«الغيب»؛ وهؤلاء جميعا لا يبيعون للناس إلاّ الوهم.

وأحيانا يكون لهؤلاء الدجالين والنصابين مروّجون من النساء والرجال، يتهامسون أمام السُّذّج والبسطاء عن قدرات النصابين والدجالين وقارئى الطالع، فيسرع إليهم البسطاء، ويدفعون لهم ما يقدرون عليه، ويبيع لهم النصابون والدجالون الوهم والحلم فى غدٍ آتٍ، أحسن من أيامهم القاتمة.. هؤلاء النَّصابون والدجّالون، وحواشيهم من الدلالين والدلالات، هم الكهنة الساميّون والحاخامات، وتجار الأديان من الأنبياء الكاذبين، الذين يدّعون صلةً بمن يقيم فى السموات.

☆☆☆☆☆

(١) بلطجية جمع لحامل البلطة (بلطجى) أى المسلح بالبلطة، وخصوصا فى الجيوش العثمانية وجيش محمد على وصارت الكلمة عند عامة المصريين تعنى «الفتوات» الذين كانوا يغتصبون ممتلكات الناس بالقوة.

(ب)

حضارات الأنهار

تؤكّد بحوث الأنثربولوجى (علم الإنسان) المعتمدة على « الحفريات » أنّه قد ظهر نموذجان للإنسان فى العصور السحيقة : الإنسان الأول هو « الواقف على قدمين » وكان أقرب إلى « الغوريللا » أو « الأورانج أوتان » ويستطيع السير على قدميه، ثم ظهر النموذج الثانى إنسان « نيانْدَرْتَالْ » **Ni-ander tall** ، وهو أكثر ذكاء من الواقف على قدميه.. وأخيرا ظهر الإنسان الحديث **Homo Sapiens** ، فى المليون السنة الأخيرة، واستطاع هذا الأخير القضاء، بذكائه، على النموذجين الآخرين..

وكان الإنسان الحديث يعيش فى جماعات صغيرة كتجمعات الأسر الحيوانية، ووجدت حفريات كثيرة للإنسان الحديث فى المناطق التى كانت مناطق « ساڤانّا » (حشائش)، وهذا يؤكد أنه كان يفضّل هذه المناطق.. لكنْ جاء الجفاف، وتصحرت الساڤانا (الصحراوات الكبرى فى مصر وفى شبه الجزيرة العربية) فاتجهت قبائل الإنسان الحديث **Homo Sapiens** إلى وديان الأنهار وزاد استخدام الأصوات واللغة، حيث إنّ البيئة فى وديان الأنهار بيئة غابات، حيث لا يستطيع الإنسان أن يشير للآخرين، وكان عليه أن يستخدم صوته، كذلك فرضت عليه ظروف الليل فى الغابات أن يستخدم اللغة فى النداء والاستعانة بالآخرين، وهكذا نما العقل الإنسانى، وترابطت الجماعات، بحكم الجوار اللصيق، كما أن النهر صار وسيلة اتصال، وتوحّدت القبائل فى بطون وشعوب.

يقول الدكتور سليم حسن[1]: «كان علماء الإغريق، منذ الأسرة السادسة والعشرين المصرية، وما قبلها، يعتقدون أنّ وادى النيل هو منبع حضارات العالم، وأنّ الإغريق هم تلاميذ الحضارة المصرية وورثتها.. وأكّد ذلك «هيكاتا المالطى» و «هيرودوت»، وقد زار كلّ منهما مصر وكتب عنها».. وبقى العالم فى ظلام تاريخى دامس، ينشره العبرانيّون والبدو الجياع فى العهد القديم، حتى ظهر مانيتون السمنّودى فى عصر بطليموس الثانى، ودوّن لنا تاريخ مصر نقلاً عن الهيروغليفية والمتون الديموطيقية (كتب مانيتون إجبتياكا، تاريخ الأسرات والملوك، كما كتب «الجبتانا» أسفار التكوين المصرية».

ويقول سليم حسن: «لم يحدث أى اهتمام إغريقى (أو رومانى) بالفكر العبرانى والسامى، ويعتقد الإغريق أن اليهود زوروا تاريخ منطقة الشرق الأوسط، وأشاعوا تراثهم المنقول عن مصر فى المنطقة كلها، كما دعّموا هذا التراث المُدّعى بالقول بأنهم تلقّوْا تراثهم الدينى من السماء.. إنّ معظم المُترجَم من التراث المصرى، أُخذ من البرديات الهيروغليفية والهيراطيقية، أما الديموطيقية (لغة الشعب) فلم يكد يُترجم منها شئ.. لقد مرّت مائة سنة (١٩٣٢) على طبع أول برديّة إغريقية عثر عليها فى مصر، وانتظرنا حتى عام ١٩٤١ حتى تُرجمت بعض الوثائق الديموطيقية.. ولا يزال المتحف البريطانى، ومتحف «فيلادلفيا» وغيرهما يحتفظان ببرديات ديموطيقية كثيرة لم تترجم، بل ولم تُقرأ.. ثم نشأ جيل أوربى ضخم بدأ يهتم بالمصريات ويترجم عن الديموطيقية، كما ترجم عن الهيروغليفية والهيراطيقية.

(١) مصر القديمة جـ ١٤ ص ٢٦٣ وما بعدها.

(جـ)

التخوم الشمالية للمنطقة الساميّة

هناك حضارات الرّافدين (دجلة والفرات) وحضارات الأشوريين والفينيقيين، وحضارات وديان فلسطين والشام.. وهى حضارات ازدهرت فى وقت مقارب أو متأخر قليلا عن الحضارة المصرية. وهذه هى « أسواق » الحضارات الكبرى فى الشرق الأوسط والهلال الخصيب.

وبدهىّ أن هذه الحضرات طوّرت الزراعة، وابتكرت أدواتها، كما طوّرت وابتكرت الفخار والحرف المختلفة (وهذه هى البُنَى الدنيا للحضارة) ونَمَتْ بين هذه التجمعات عادات وقيم وتقاليد وطرق تعامل وقوانين وطقوس تتعلقّ بالأحياء والأموات، والمَلِك الحاكم، وشبيهه (وهو ما وُصِف بأنّه أبانا الذى فى السموات) (وهذه هى البُنَى العليا للحضارة) من قوانين وأديان) وفنون وثقافات.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن البنية العليا لأى مجتمع هى مردود عقلى ثقافى للبنية الدنيا، أى أنّ التلازمَ بين هذه وتلك تلازم طبيعى.

وإذا رجعنا إلى البدو الساميين، الذين يحركهم الجوع فى كل اتجاه، فيغيرون أو يتسللون إلى تُخوم دول الحضارت، فنراهم لا يختلفون عن الدجّالين والعرّافين.. فهم يعيشون على هوامش دول الحضارة بالغارة والتلصص حينا، وبالعمل كعبيد غير مأجورين لدول الحضارة.. وبدهىّ أن هؤلاء الساميين لم تكن لهم بُنَى دنيا حضارية تؤدى إلى بُنَى عليا ثقافية.

لهذا فقوّاد هذه القبائل السامية الضاربة فى الصحراء، أو المتاخمة لدول الحضارات، اقتبسوا بُنَى علوية أخذوها من مصر، وادّعوْا أنها هبطت لهم من آلهتهم.. وأنّ الآلهة يكلمونهم، بل يرسلون إليهم ألواح التشريع يداً بيد.. وإذا قرأنا هذا الذى تركوه، فسوف نراهم يختلفون فى تلقيب قادتهم: أحيانا يلقبونهم بالأنبياء، وأحيانا يعتبرونهم ملوكا، وأحيانا كهنة، وأحيانا يلقبون بعضهم بالأنبياء الكاذبين والكهنة المارقين. ولو تابعنا علم النفس الاجتماعى، وعلم الاجتماع الدينى، فسوف نجد أن أنسب وصف لكل هؤلاء الرؤساء والأنبياء ما هو إلا «إبونيم» **Eponeim** للقبيلة أو الجماعة أى قائد ورمز لها (كما فى اللاتينية)، وهو نفسه «نِبُو» المصرية القديمة، بمعنى يقترب من الجد الأعلى للجماعة والرمز التَوْتَمِى الإشارى لها، ولا مانع من تسميته نبىّ الجماعة أو العشيرة.

☆☆☆☆☆

(د)

الساميّسون يحتكرون الصلة بالسماء

لم يرد فى تاريخ الثقافة الدينية المصرية القديمة حديث عن أنبياء متصلين بالسماء.... أحيانا يجعل المصريون حكامهم آلهة، ولعلهم كانوا يستخدمون «الإله» بنفس طريقة استخدامنا لكلمة «رب» و «ربة» (رب البيت وربّ العائلة وربّة البيت).

كذلك فإن التراث الدينى البوذى فى الهند، وصوره المختلفة كما تعبّر عنها الكونفشيوسية الصينية، وأديان اليابان وغيرهما، لا يظهر فى هذا التراث الضخم أية إشارة للنبوات والاتصال بالسماء، وكان كلّ واحدٍ من بوذا وزرادشت ومانى مجرّد «إبونيم» أو رمز لمجموعة من هذه المجموعات من التابعين.. ولم يحدث أن تكلم أحد من هؤلاء عن وحى السماء أو النبوّة أو اتصال البشر بالآلهة.

أما أديان السامية، فقد كثر فيها الأنبياء والكهان والرائون والحالمون، ومن صعدوا إلى اسماء، وقابلوا الله وجهاً لوجه، بل إن بعضهم أخذ منه ألواح التشريع يداً بيد.

وهذه مقتبسات من العهد القديم «التوراة» تؤكّدما نقول:

«بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى أبرام (ابراهيم) فى الرؤيا» ١ ص ١٥ تكوين.

«فقال الرب: اسمعا لكلامى (هارون ومريم) إن كان منكم نبيٌّ للرب

فبالرؤيا أستعلن له، وفى الحلم أكلمه، وأما عبدى موسى فليس هكذا، بل هو أمين فى كل بيتى، فما إلى فم وعيانا أتكلّم معه، لا بالألغاز وشبهُ الرّبّ يعاين» ٦-٨ ص ١٢ عدد

« ولما قام داود صباحا كان كلام الرب إلى جاد النبىّ رائى داود» ١١ ص ٣٤ صموئيل ثان.

« فى جبعون تراءى الربّ لسليمان فى حُلمٍ ليلا » ٥ ص ٣ ملوك أول.

« وكان مَلِك إسرائيل يهو شافاط ومَلِك يهوذا جالسيْن وجميع الأنبياء يتنبأون أمامهما » ٢٠ ص ٢٢ ملوك أول.

التوراة (العهد القديم) تقول إن داود ملك، والقرآن يقول إن داود نبى:

« وكان لما سكن داود فى بيته، قال داود لناثان النبىّ. . . » ١ ص ١٧ أخبار الأيام أول.

« هى مكتوبة فى أخبار شمعيا النبىّ وعِدُّو الرائى. . » ١٥ ص ١٢ أخبار الأيام ثان.

« فجمع ملك إسرائيل الأنبياء أربع مائة رجل. . . » ٥ ص ٨ أخبار الأيام ثان.

بل الله نفسه (وربما ارميا) يقول: « صار فى الأرض دَهَشٌ وقشعريرة الأنبياء يتنبأون بالكذب » ٣٠ ص ٥ ارميا.

« ومن النبى إلى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب. . . » ١٣ ص ٦ إرميا.

☆☆☆☆☆

(هـ)

أنبياء الشرق الأقصى وأنبياء السامية

إذا كانت مصرُ معلمةَ أنبياء الشرق الأدنى، وإذا كانت المتون المصرية نبراسا لأنبياء الشرق الأدنى، فإن الهند والمتون الهندية هى التى علّمت شعوب جنوب شرق آسيا.. بوذا هو المعلم الأول للجميع، وكان بوذا فيلسوفا ومعلما.. ولم يكن رجلَ دَوْلة أو حاكما.. وانتشرت من الهند نصوص المهابهارتا ووُجد لها شراح فى الصين (مثل كونفشيوس) وفى اليابان (فلاسفة الطاويّة) .. كذلك ظهر زرادشت ومانى ومئات الأنبياء فى غرب آسيا.. وكان هؤلاء جميعا مجرد دعاةٍ أخلاقيين وكُتّاب أمثال وحكايا أخلاقية.

ترجم عبد الله بن المقفع عددا لا بأس به من الحكايات الأخلاقية الهندية الفارسية، ومَنْ منّا الذى لم يقرأ « كليلة ودمنة » وما فى الحكايات من مدلولات أخلاقية وإنسانية.. ويقرّ ابن المقفّع بأنه نقل كتابه عن فلاسفة الهند وبخاصة مَنْ أسماه « بيدبا الفيلسوف ».

الدول فى الهند والصين واليابان ومنغوليا والتبت والملايو القديمة... - دول قديمة يحكمها أباطرة لهم عروش وجيوش، تماما كما أن مصر القديمة وبابل وآشور وفينيقيا كان يحكمها أباطرة لهم عروش وجيوش، فإذا ظهر حكماء، فلا موقف من الأباطرة منهم، إلا أن يسمعوا أمثالهم ويستخدموهم كدعاة لهم.

ونعود - مرّة أخرى - لحكاية « البنية الدنيا » و« البنية العليا » فمصر وبابل

وآشور وفينيقيا والهند والصين واليابان والملايو والتبت ومنغوليا ـ دول حضارات قديمة زراعية ودول وديان أنهار . . تقدمت الزراعات والحرف والصناعات بها مكوّنة « بُنَى دنيا » ترتّب على ذلك إفراز « بُنَى علويّة » من قوانين وعادات وتقاليد وفنون وأديان . . فإن ظهر داعية أخلاقى، فهو حكيم وداعية ليس إلاّ .

أما الساميّون والجياع فى شبه الجزيرة العربية (فى المنطقة الصحراوية الوسطى) من عبرانيين وعرب، فلما تصحّرت أرضهم، خرجت أعداد منهم واستقرّت فى المناطق الحضارية فى الشرق الأدنى .

ومن بقى منهم ـ فى الصحراء ـ عاش على الرّعى والإغارة على الآخرين .

ففى الأمثال العبرانية، نرى التحريض على قتل الآخر واستلاب قطيعه، فهذا ليس إثما أخلاقيا، فإذا خُيرّ الإنسانُ الجائع بين نفسه ونفوس الآخرين، فبالقطع سوف يحرص على نفسه، ويُضحّى بأرواح الآخرين ويستلب قطعان الآخرين .

وفى تعليق « الميدانى » على المثل العربى : « أُنْجُ سعد، فقد هَلَك سعيد » يقول الميدانى فى « مورد المثل » : سعد وسعيد كانا يسيران فى أرض قاحلة، ومعهما طعام وشراب يكفى واحدا، لمدّة يوم، فغافل سعدٌ سعيدا وضربه فقتله قائلا لنفسه « أُنج سعد فقد هلك سعيد »[1] .

حينما يظهر قوّاد للجماعات السامية الجائعة والهائمة فى الصحراء، فإن هؤلاء القوّاد، كلٌّ واحدٍ منهم مجرّد « إبونايم **Eponiem** »[2] لمجموعته،

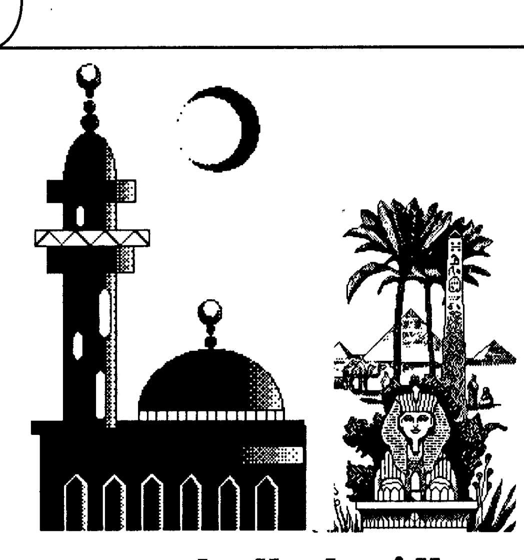
(۱) مَجْمَع الأمثال العربية – للميدانى . طبع البابى الحلبى ١٩٥٦ .

(۲) «إبونايم» Eponiem القائد العسكرى والإدارى للعشيرة أو القبيلة، سواء كانت ثابتة فى مكان ما من الجبل أو الصحراء، أو كانت القبيلة قد تركت مكانها لعلّة القحط، أو وجود عدوٍّ قوى . .

يقودهم للبحث عن الطعام والتسلل أو الهجوم على الأجوار.. وكثيرا ما ضَجّت شعوب الحضرات المحيطة بهؤلاء البدو الساميين، من كثرة إغاراتهم على حدودها.

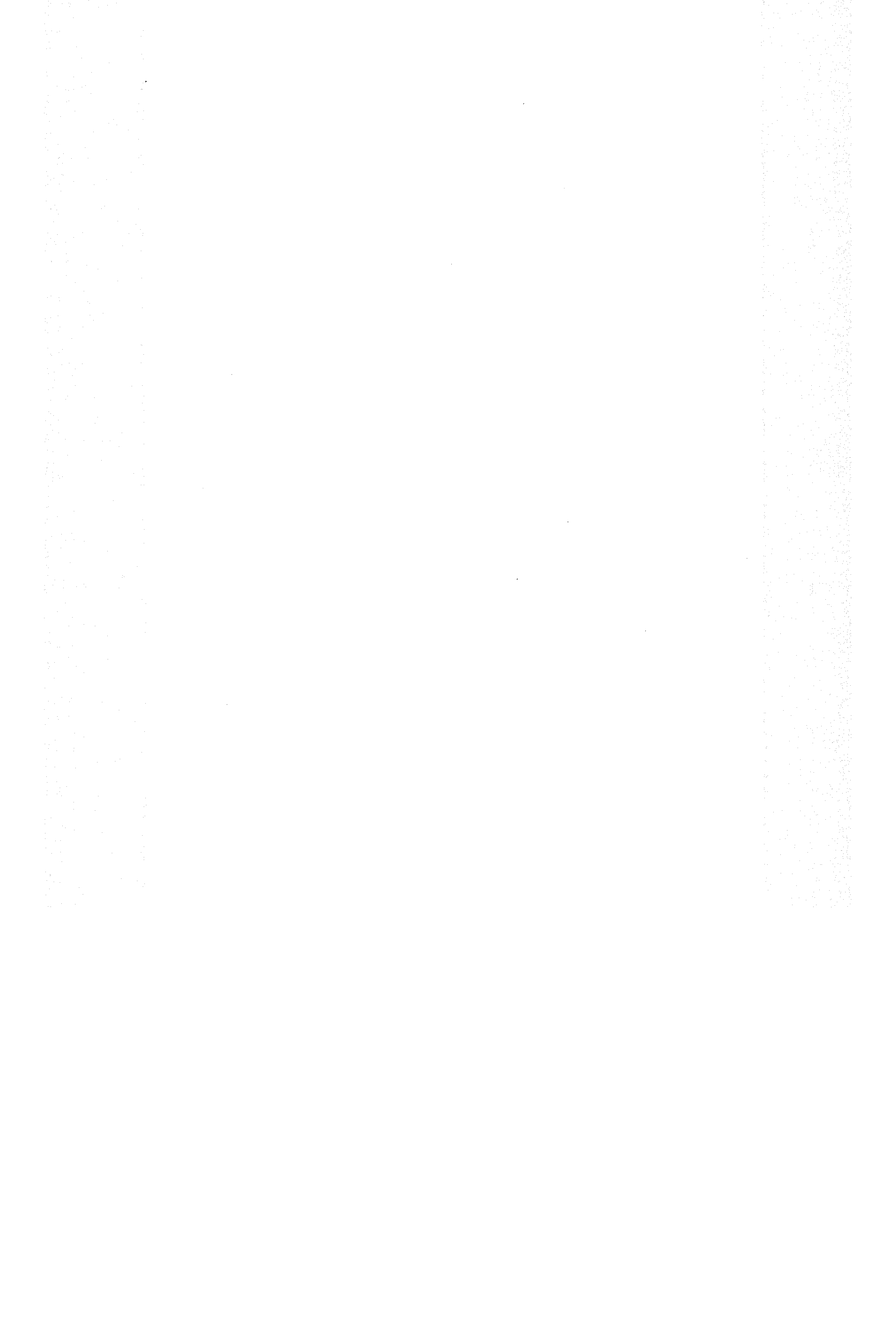
فى بعض الجماعات الكبرى فى هذه المناطق السامية، يخرج هؤلاء الساميّون بأعداد كبيرة فيتوحّدون تحت إمرة «إبونايم» منهم ويجعلونه نبيا يقودهم، ويعتبرون أقواله وقوانينه وأحكامه وحيا صادرا من السماء.. ولأن شعوب الحضارات لا تعرف «وحى السماء»، فإنهم يسارعون للاحتفاظ «بوحى السماء»، حتى لو شعروا بأن «وحى السماء» ما هو إلا متونهم القديمة.

☆☆☆☆☆



الفصل السادس

التأثير العبرانى اليهودى فى التراث الإسلامى وثقافة الشرق الأوسط



الفصل السادس

التأثير العبرانى اليهودى فى التراث الإسلامى وثقافة الشرق الأوسط

(أ)

■ **اليهود يعيدون صياغة ما اقتبسوه.**

نؤكّد من جديد ـ أن كثيرين من التراثيين والسلفيين، يلحّون على بتر التاريخ العربى الإسلامى عن التيّار الثقافى للمنطقة السامية (حوض المتوسط الشرقى ـ منطقة الشرق الأدنى) وذلك لأن هؤلاء السلفيين تزعجهم بدهية «التيار المتدفق لتاريخ الثقافة الإنسانية» حيث يتصادم هذا الاتجاه التراكمى التطورى للثقافة الإنسانية مع فكرة الانبثاق بالوحى والاتصال بالسماء.. يلحّ هؤلاء ـ كما سبق أن أشرنا ـ على قدم اللغة العربية، وأنها لغة الله، ولغة أهل الجنّة.. وهؤلاء يتناسون ـ عن عمد ـ أن أسماء الملائكة التى وردت فى القرآن وكتب التراث أسماء عبرانية يهودية: «جبرائيل» ملاك الربّ وناقل كلمته، فى العهد القديم والجديد، هو نفسه «جبريل» القرآن، كذلك فإن «ميكال» و «إسرافيل» و «عزرائيل» و «عزازيل» وغيرهم أسماء عبرانية يهودية للملائكة حاشية الله فى الفكر العبرانى، وهذه الأسماء، وغيرها موجودة فى التراث الإسلامى اللاحق. (الآية ٩٨ من سورة البقرة تقول: ﴿**مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**﴾... ويشيع فى الفكر الإسلامى الصوفى أسماء ملائكة آخرين منقولة عن العبرية مثل «صمصمائيل» و «أرخيائيل»... وهناك صلة ما بين المتصوفة المسلمين و«الكابالا» متصوفة اليهود.

لقد صور المصريون «رع» و«آمون» فى صورة قرص الشمس المجنّح، وفى صور أخرى مجنحّة، عثر عليها الأثرى «فلِنْدِزْ بيتَرِى» فى اكتشافه لمراكب الشمس الفرعونية: تصوّر الفراعنة الشمس تموت فى قوس المساء، وتركب مركبة السماء المجنحة «مَسْكَتِتْ» تدور بها فى الجانب المظلم من الكهف، ثم تركب مركبة النهار المجنحة «رَعْ نجَتْ»، والشمس فى أول النهار تكون طفلة مجنحة واسمها «نفَرْتَمْ» وتكون فى واضحة النهار شابا واسمها «رع»، وهى شيخٌ فى المغيب واسمها «أتُومْ».. إن هذه الصور المجنحة للكائنات الإلهية انتقلت من الفرعونية إلى اليهودية العبرانية، وبدأنا نراها فى الأيقونات اليهودية والمسيحية.. كذلك ورد فى أول سورة فاطر فى القرآن: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾.



(ب)

لماذا ينسب العبرانيون تراثهم إلى السماء؟

لكى يدعم اليهود أبنيتهم العلوية، التى لا تستند لأية أبنية تحتيّة، لجئوا إلى السماء، وإلى جبريل ملاك الرب وناقل كلمته، حتى يعطوا إيديولوجيتهم مشروعيتها وقدسيتها، ولعل من أوائل نصوص البُنى العلوية والإيديولوجية اليهودية المعروفة لنا، والباقية حتى الآن، الكتابات المنسوبة إلى موسى. وتقولُ المتون العبرانية، أن الله لم يكتفِ بأن كلّم موسى بنفسه، بل إنه أعطى موسى الألواح، ألواح التشريع، يدا بيدا.

إن اليهود لا يذكرون أن موسى تعنى وليد أو ابن فى اللغة المصرية (تحوت مس أىْ ابن «تحوت» ربّ الحكمة المصرى)، كذلك ينكرون أن موسى هو «أوزيرموس» (ابن أوزير أو أوزيريس النبى المصرى القديم المعروف فى القرآن باسم إدريس)، وهكذا يبتعد اليهود عن شبهة التأثر بالمعبد الفرعونى الذى نشأ فيه موسى.

☆☆☆☆☆

(جـ)

اليهود ونظام التوريث الرعوى

العبرانيون واليهود، وكذلك العرب، قبائل من الرّعاة، تمتلك كل أسرة منها الغنم والإبل والعبيد وغير ذلك « ملكية رقبة »، لهذا فإن نظام التوريث العبرانى الرعوى الذى ابتدعه أنبياء السامية مناسب اقتصاديا للحياة الرعوية، فلو مات الأب وكان لديه قطيع من الشياه، وُوزِّعَ هذا القطيع على أبناء كثيرين، للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كلّ واحد من الوارثين سوف يكون نصيبه من إناث الشياه وذكورها كافيا ـ مهما قلّ العدد ـ لنمو قطيع جديد، أى أن نظام التوريث العبرانى مناسب تماما لحياة الرّعاة، ولا يُضرّ بفكرة « الانتاجية ».

إن هذا النظام فى التوريث لم تعرفه الحضارات الزراعية، حيث إنّ النظام الإقطاعى العبودى قد فَرَض ملكيّة الدولة لكل الأرض الزراعية، والدولة متمثلة فى الحاكم أو الملك الإقطاعى، وإن سُمِحَ بملكيّة للأمراء، فإنها تكون عادة « ملكية ريع » لا « ملكية رقبة »، حيث تظل الملكية العامة للدولة متمثلة فى الحاكم الملك.. وفى المجتمع الزراعى يؤدى التوريث بالتفتيت إلى صِغَر الحيازات الزراعية، وهذا يؤدى إلى ضَعْف الإنتاج والإنتاجية.. ومن الواضح أن نظام التوريث فى المتون والشرائع الساميّة اللاحقة ليس إلا امتداداً لنظام التوريث العبرانى بصرف النظر عن كونه يناسب أو لا يناسب المجتمعات التى نُقِل إليها.

☆☆☆☆☆

(د)

اليهود وقتل السارق أو قطع يده

لو تابعنا الجهد العلمى التاريخى للدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم[1]، فإننا نكتشف تشابها فى عقوبات السرقة فى الهلال الخصيب ومصر، أى فى دول الحضارات الزراعية، فالسارق إذا كان حُرًا يُسجن أو يُغَرّم أو يسخّر فى العمل، أما إذا كان عبدا فقد تجدع أنفُه أو تصلم أذنُه.. ويتضح من فلسفة هذه التشريعات أنها تحافظ على السارق من أجل السخرة، أو دفع الغرامة، وذلك لحاجة العمل الزراعى الكثيف إلى يد السارق.

ولكنْ؛ لما كانت الجماعات العبرانية اليهودية جماعات رعوية، فالمال دائما فى غير حرْز نظرا لظروف الانتقال الدائم وعدم الاستقرار، كذلك من الصعب الحكم بسجن أى إنسان، أو متابعته وتسخيره فى العمل للأمير أو الملك، بل إن العملَ نَفْسَه فى المجتمع الرعوى قليل.. لهذا كان لابد من تشريع «انتقامى» عنيف ضد السرقة، فبعض القبائل العبرانية حكمت بقتل السارق، مثلما كان المهاجرون الأمريكيون يقتلون «سارق الحصان» (لأهمية الحصان فى ذلك الوقت)، وكذلك كان الانجليزُ يقتلون السارق حرصا على مال الأمير الإقطاعى، الأمر الذى ندّد به «توماس مور» فى «اليوتوبيا» حتى

(١) مصر والشرق الأدنى القديم - دكتور نجيب ميخائيل ابراهيم. ستة أجزاء.

أسْقطَتْ عقوبة قتل السارق فى انجلترا[٢]. واستقر التشريع اليهودى على قطع يد السارق وبدهيٌّ أن قطع يد السارق الراعى لن يعوق عمله كثيرا، فإنه سينقل عصا الرعْى من اليد التى بُترت إلى اليد الأخرى.. والمسيحية ـ فى التشريع ـ تلتزم العهد القديم، وقد صرّح المسيح بذلك[٣]، وكذلك فإن التشريع الإسلامى القرانى يقطع يد السارق.

☆☆☆☆☆

(٢) أرض الأحلام – زكى نجيب محمود.

(٣) قال المسيح: «ماجئت لأبدّل الناموس».

(هـ)

اليهود والحقد على مصر والمصريين

كانت مصر فى الزمن القديم مطمعا، يغير عليها أو يتسلل إليها الرّعاة العبرانيون ثم اليهود بعد ذلك، ولهذا تحركت الوطنية المصرية مرات كثيرة للتصدى للقبائل السامية من هكسوس عبرانيين ويهود.. وأثّر ذلك فى الأدبيات الدينية اليهودية: فالتوراة أفردت سفرها الثانى للحديث عن «الخروج» من مصر.. ومن البدهى أن تُضْطَهَد مصر والمصريون فى الكتابات اليهودية.. فعلى سبيل المثال نجد فى سفر عاموس قوله: «جميع ينابيع يهوذا تفيض ماءً، ومن بيت الرب يخرج ينبوع يسقى وادى السنط ومصر تصير خرابا» و«يضرب موسى النهر بعصاه فيتحول الماء دماً» «الإصحاح الثامن خروج» (النهر طبعا هو نهر النيل الذى يثير حقد اليهود)، «يأمر موسى وهارون فإذا الضفادع تملأ أرض مصر وبيوت جميع الشعب» «الثامن خروج» ثم كان الجراد.. ثم كان الظلام للمصريين.. ثم كان قتل الربّ لجميع أبكار المصريين فى عيد الفصح ولم يضرب الرب بيوت العبريين (المقيمين فى مصر) لأنهم وضعوا العلامة السرية، وهى دم الذبيحة على القائمين والعتبة العليا لكل بيت عبرى» (الثامن والتاسع خروج)..

والحقد على مصر والمصريّين يطفح به مَتن العهد القديم، حيث يصف المصريين، فيقول إن «مَنِيّهُمْ كمنىّ الحمير».... ومن يقرأ سفر حزقيال يشعر بحقده المرير على المصريين وعلى مصر، حيث يدعو «بالبركة لنبوخذ

نصر القائد البابلى » كى ينصره ربّ إسرائيل على المصريين لأنه عمل من أجل رب إسرائيل » (بالرغم من أن نبوخذ نصر قتل أبناء ملك إسرائيل، كما سمل عينى الملك) . . كذلك يكره حزقيال : « كبرياء عز المصريين » ويحلم بتحطيم كبرياء المصريين وتدمير مصر « الله يجعل سيفه فى يد نبوخذ نصر فيسلبون كبرياء مصر » (آية ١١ إصحاح ٣٢ حزقيال) ويصعّد حزقيال حقده فنجده فى الآية ٢٥ من الإصحاح ١٦ من سفره يحمل على أورشليم لصلتها بمصر، بعبارات قاسية حيث يقول لأورشليم : « فَرَجْتِ رجليكِ لكل عابر واكثْرتِ زناكِ، وزنيْتِ مع جيرانك بنى مصر غلاظ اللحم » .

إن هذا الحقد وتلك الكراهية لمصر والمصريين، فى الأدبيات الدينية اليهودية، أمرٌ مفهوم وله مسوٌغاته ولكنّ هذا الحقد وتلك الكراهية يستمران فى المتون السامية اللاحقة : فالفكر المسيحى يحذّر من الاتكاء على القصبة المرضوضة التى هى مصر . . ودارسون غربيون كثيرون يتحدثون عن أن هذه الكراهية اليهودية لمصر مستمرة فى القرآن، فى حملته على مصر وفرعون، بالرغم من أنّ تصدى فرعون لليهود كان أمرا وطنيا، وبالرغم من أن إيمان المصريين بالخلود والعالم الآخر، كان يفوق إيمان اليهود . . . بل إن « إدواردلين » فى حديثه عن عادات المصريين فى زمنه (منذ حوالى ١٧٠ عاما) لاحظ التناقض بين الوطنية المصرية، والاعتقاد الإسلامى فى مثل قول المصريين : « الذى كنا نحسبه موسى وجدناه فرعون » . . . إذن فالروح اليهودية المعادية لمصر، سادت المتون الساميّة كلها، بل تسرّبت إلى التراث الشعبى، مما يقطع بتأثير التراث اليهودى فى تراث وثقافة العرب والمسلمين .

☆☆☆☆☆

(و)

اليهود واستمرار رموزهم الدينية

إن التضحية للآلهة، والنذر لها، وحب الآلهة لرائحة الدماء والأَضاحى التى تُحرق على المذابح، أمر سائد لدى اليهود، وهو دليل على تواصل الفكر الدينى بين الحضارات القديمة والأدبيات الدينية اليهودية. إن قصة الفداء (ابراهيم وإسماعيل، أو ابراهيم وأسحق) فى المتون والشروح اليهودية، نراها مكررة فى المتون الإسلامية.. وتتقارب هذه القصة مع قصة « الفداء » فى « مسخ الكائنات » لأوڤيد[1] يقول الراوى فى « مسخ الكائنات »: « غير أن ابن ثيستور (أجا ممنون) لم يَرَ هذا الرأى، وقضى بضرورة استباحة دم عذراء ليسكنَ غضب الإلهة العذراء » « ديانا »، واختفى حنان أجاممنون، وترك ابنته تقف أمام المذبح، يحيط بها الكهنة وهم يبكون لسفك دمها تضحية وقرباناً للإلهة الغَضْبى « ديانا »... وسعدت الآلهة بما كان، فنشرت سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد، وإذا بظبية تتخذ مكان الفتاة الموكينية، وسكن غضب « ديانا » بهذه الضحيّة التى رضيتها.... ».

ويُلاحَظُ أن دخول المعبد وخيمة الاجتماع، كدخول المسجد، لابد وأن يسبقه وضوء أى تطهّر بالماء. « وضع موسى الميضة بين خيمة الاجتماع والمذبح، وجعل فيها ماءً للاغتسال ليغسل منها موسى وهاون وبنوه أيديهم

(١) مسخ الكائنات ـ أوڤيد - ترجمة الدكتور ثروت عكاشة.

وأرجلهم عند دخولهم خيمة الاجتماع، وعند اقترابهم من المذبح، يغسلون كما أمر الربّ موسى» (٣٠ - ٣٢ - ص الرابع - خروج) .

وإن القارئ للإصحاح السادس من سفر دانيال، يجد حركاتٍ وطُقوساً فى الصلوات اليهودية مشابهة للمسيحية والإسلامية، بل ولليهود قبلة إلى أورشليم.. وتُفتح كُوى فى المعابد اليهودية فى حائط القبلة تجاه أورشليم، وهناك كوى فى بعض حوائط قبلات المسلمين تؤكد على التواصل بين العبادات السامية، كما تؤكد على التأثيرات اليهودية فى ثقافة الشرق الأدنى .تجعل الأدبيات الدينية السامية سواء فى الإسلام أو المسيحية المرأة فى مكانة دون مكانة الرجل، وهذا الأمر إن كان يدل على مركز المرأة فى الشرق، فهو يدل كذلك على التأثير اليهودى، فمن الواضح أن المتون والشرائع اليهودية تميل إلى التقليل من مركز المرأة ولا نبالغ إن قلنا إنها تضطهد المرأة، حتى وهى لا تزال فى المهد : «إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً، تكون نجسة سبعة أيام وفى اليوم الثامن يُخْتَن.. ثم تقيم ثلاثا وثلاثين يوما فى دم تطهيرها.. وإن ولدت بنتاً تكون نجسة أسبوعين.. ثم تقيم ستة وستين يوما فى دم تطهيرها (٢-٥ إصحاح ١٢ سفر (اللاويين) .

فى «إرميا» نجد حلما لزكريا، وزيارة بالحلم لما يشبه المطهر والجحيم.. كذلك فإن رؤيا يوحنا اللاهوتى، زيارة بالحلم أو بالروح للجنة والنار.. وفى قصة الإسراء والمعراج فى المتون والشروح الإسلامية، ما يؤكد هذا التواصل والتأثير فى أديان السامية.. بل إن بعض الشروح الإسلامية للإسراء والمعراج، يُقال عنها فى الأدبيات الدينية الإسلامية إنها « من الإسرائيليات » .

إذا كانت الثقافة العبرانية قد أثرت فى المنطقة السامية والشرق الأدنى،

فإن اليهود يعترفون ـ بمضض ـ بتأثرهم بالتراث المصرى القديم . . ويشهد « العهد القديم » بالتأثير الفرعونى فيقول : « فتهذب موسى بكلّ حكمة المصريين فكان مقتدراً فى الأقوال والأفعال » (٢٢ ص ٧ أعمال الرسل) .

إن إصرار اليهود على اتصال أنبيائهم بالله، استمرّ فى المسيحية والإسلام الذى بدأ فى مجتمع رعوى، كالمجتمع العبرانى . . ثم انتشرت أديان السامية الثلاثة فى العالم المعمور . . . إن الأدبيات الدينية الأوربية والأمريكية، إذا تحدثتْ عن المتون السامية، فإنها تسميها بالعهد القديم والعهد الجديد والعهد الأخير، ويقصدون بذلك التوراة والإنجيل والقرآن .

ظلّت اللغة المصرية، بطرق كتابتها المختلفة (هيروغليفية تصويرية . وهيراطيقية لاهوتية، وديموطيقية شعبية، وقبطية « وهى نفسها الديموطيقية بحروف يونانية مع بقاء عدد من الحروف المصرية الحلقية) ظلّتْ كأنها طلاسم، ما كُتب فى أوراق البردى، وما حفر على التوابيت واللوحات والحوائط الداخلية للأهرامات والمعابد، والمعروفة بين الآثاريين بمتون الأهرام ومتون التوابيت . . . حتى ظهر « جانْ فِرانْسُوَا شامبليون » وأُكتُشِف حجر رشيد . . واستطاع شامبليون، مقارنا بين العبارات المكتوبة بطرق مختلفة، آخرها القبطية، أن يفكّ طلاسم اللغة المصرّية أيّا كان الرسم أو الطريقة التى كُتبتْ بها .

وعكف مؤرخون عظام كجيمس هنرى برستد، وهو أيضا آثارى عظيم، كما استطاع تلاميذه مثل جون ويلسون وسليم حسن وكثيرين آخرين، منهم أستاذى العظيم الأب أبيب النقادى (توفى سنة ١٩٥٩ عن ستة وتسعين عاما[١])، أن يحسّنوا قراءتهم للغة المصرية بخطوطها المختلفة . .

واكتشف هؤلاء جميعا، أن الأديان الساميّة أخذت الكثير من الفكر المصرى، سواء الشرائع والقوانين، أو الحكم والأمثال، أو الأساطير المتعلقة بخلْق العالم، وانبثاق الآلهة، بل رأى الراهب الأب أبيب، من خلال مراجعاته للمتون المصرية والمتون السامية، أن « نشيد الانشاد » يكاد يكون ترجمة عن شبيه له مصرى، وكذلك سفر « الأمثال » و« المزامير ».

ويؤيد جيمس هنرى برستد رأى الأب أبيب، بل إنه فى كتابه « فجر الضمير »[٢] يعقد موازنات بين أقوال أنبياء مصر وأنبياء السامية، ليصل فى النهاية إلى أن « فجر الضمير » الإنسانى والأخلاقى صيغ هنا فى مصر، منذ عصر إيزيس وأوزيريس الناسوتيين (حينما كانا ملكاً وملكة قبل أن يتحوّلا إلى صورة أخلاقية رمزية، بإضافة ستْ ممثلا للشر والعدوان، وكذا بقية إخوة أوزيريس وست . . .) . . . ولعل إيزيس وأوزيريس كانا فى أواخر العصر الحجرى الحديث، حيث بدأ ظهور « الإبونايم Eponime » الذين قادوا جماعاتهم وضمّوا إليها جماعات مشابهة ليحققوا وحدة مصر، ويظهروا هم فى صورة « النّبو »[٣] المشرّع للجماعة.

فى أحد أيام الخميس فى صيف سنة ١٩٥٨، وفى ندوة « الأب أبيب التى كان يحضرها كثيرون من أعلام الفكر والمثقفين وهيئات القضاء (رأيت

(١) الأب أبيب النقادى راهب أرثوزكسى من أمّ يونانية، عمل فى كنائس الحبشة، وقبلها فى كنائس الصعيد ثم فى البوسنة وكان متقنا للغات القديمة، فضلا عن الانجليزية والفرنسية والأمهرية وكان الآثاريون الذين يزورون مصر يعرفونه ويستعينون به.. وفى نهاية عمره المديد عاش فى الريدانية (بجوار المنصورة) فى كنيستها القديمة، وكانت له ندوة أسبوعية فى المنصورة.

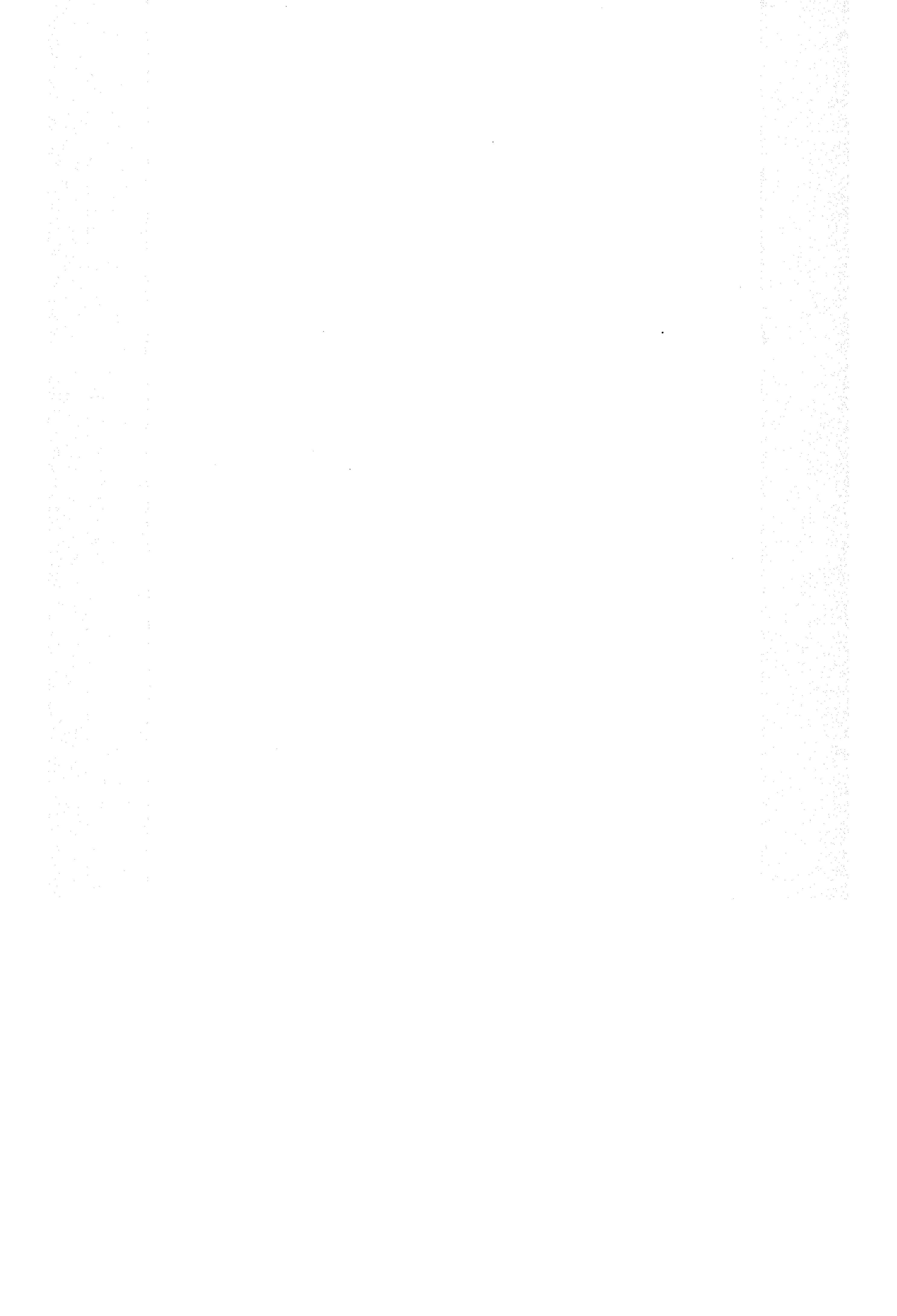
(٢) «فجر الضمير» ترجمة سليم حسن وهو آثارى عمل مع جيمس هنرى وآخرين، وله مسلسل ضخم (بضعة وعشرون مجلدا) عن الحضارة الصمرية.

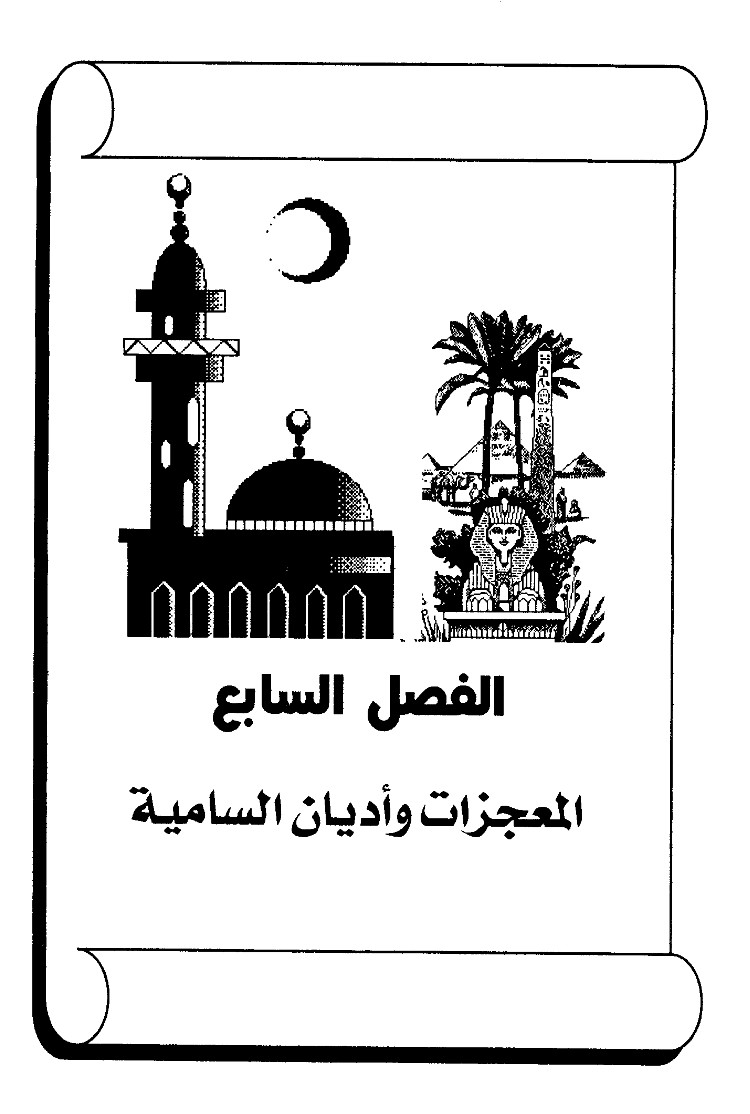
(٣) «نبو» كلمة مصرية قديمة تعنى المشرّع وواضع القوانين والحكيم، أى أنها أصل «نبىّ».

فى ندوته وأنا صبىّ فى أوائل الخمسينات الشاعريْن الكبرين: على محمود طه. والدكتور إبراهيم ناجى) .. فى ندوته، قرأ الأب أبيب قصة مترجمة عن المصريّة القديمة بعنوان: الأخَوَان والزوجة.. وأذكر ـ إلى الآن ـ اسم الأخ الأصغر «باتا» «كان باتا يعيش فى كنف أخيه الأكبر، يذهبان إلى الحقل صباحا، ويعودان منه ساعة الغروب، وكانت زوجة الأخ الأكبر تحضر لهما الطعام بعد الظهر... ولما كان الأخ الأكبر يزرع قمحا، ولم يقدّر كمية البذور التى يحتاج إليها تقديرا صحيحا، احتاج الأخوان إلى كميّة من القمح، فركب الأصغر حماره وذهب إلى البيت ليحضر مزيداً من القمح، ورأته زوجة أخيه الأكبر وهو قادم من بعيد، وكانت جميلة، وكانت تعشق «باتا» الأخ الأصغر، دون علمه، لهذا تعرّتْ من ثيابها.. فلما دخل باتا اتجه إلى مخزن القمح، فقامت إليه، تعرض نفسها عليه، فبكى، وحاول الهروب فجذبته من قميصه فقطعتْه من الخلف، فارتمت عليه فهرب منها ومن بيت أخيه.. ولمّا سأل أخوه عنه امرأته، قالت له: حاول الاعتداء علىّ والتودد إلىّ.. فشك الأخ الأكبر وأرسل من استدعى شقيقه من قرية صديقه، فحضر معه الصديق، وحكم بأنه إذا كان قميصه قُدّ من دُبُرٍ فهو صادق وهى كاذبة، وإن كان قُدَّ من قُبُل فهو كاذب. وهى صادقة.. وتبيّن أن القميص قُدّ من دُبُر، ففارق الأخ الأكبر زوجته وأعاد أخاه إلى بيته».

وعلّق الأب أبيب على الحكاية وقال: إنها تكاد تكون قد نُقلَت للعهد القديم، كذلك قال: إن هناك عدّة صور مختلفة للحكاية باختلاف الرواة، فكل راوٍ وكلّ قاص يحوّر فى الحكاية بطريقته الخاصة.

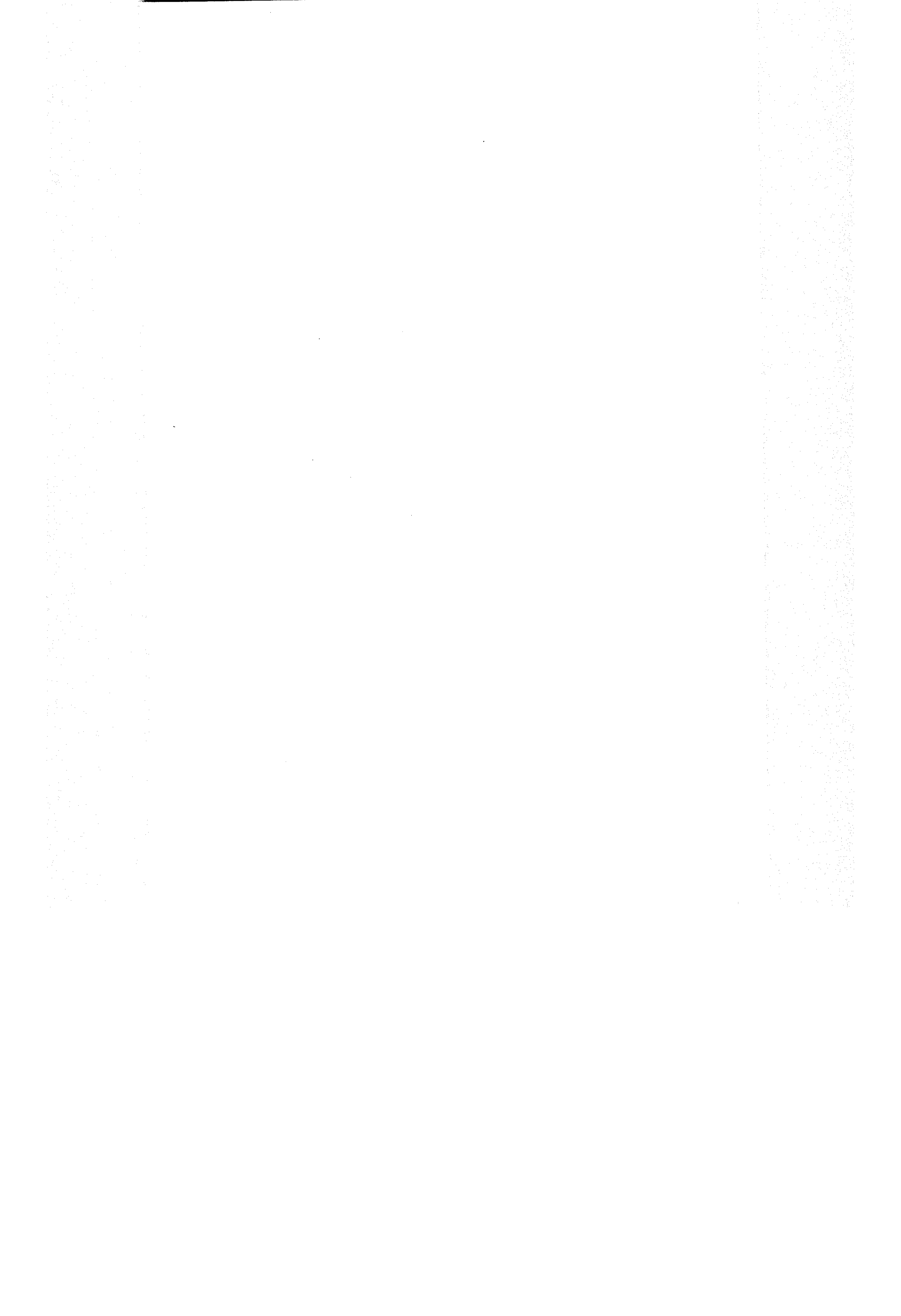
☆☆☆☆☆





الفصل السابع

المعجزات وأديان السامية



الفصل السابع

المعجزات وأديان السامية

(أ)

● معجزات سيدنا السطوحى.

فى قرية « الريدانية » من قرى مركز المنصورة، كانت عائلة « السطوحى » لها « الخلافة الدينية » فى القرية.. وكان أهل القرية والقرى المجاورة يتباركون بآل السطوحى.. وكان لآل السطوحى نصيب من أى ناتج زراعى فى القرية والقرى المجاورة.. وكانت الهدايا لا تتوقف عن بيت السطوحى طلباً للبركة والدعاء: هدايا من اللبن والجبن والبيض والفطير واللحم والدجاج والبط والأوز.. فضلاً عن غلّة « الجناين » من الموز والعنب وقصب السكر والبرتقال. (وكان ذلك فى أواخر الأربعينيات).

وتكوّنت حول آل السطوحى جوقة من المستفيدين، شبه المقيمين فى « مندرة » السطوحى. وكان هؤلاء المستفيدون يرددون فى القرية والقرى المجاورة « كرامات » و « معجزات » آل السطوحى.. فحجرة الشيخ السطوحى الكبير كانت مضاءة « ربّانى » حتى فى عزّ الليل.. و« أنْجَرْ » الفتة وما عليه من لحم، ببركة الشيخ، أكل منه عشرون، وبقى منه ما يكفى نساء أهل البيت، وهن كثيرات، وينضمّ إليهن كثيرات... وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ صالحاً.

كان الشيخ السطوحى مكلّفا بمشوار فى المنصورة، فرآه أحد التابعين يسير على قدميه خارجا من الريدانية.. ثم تيسّر لذلك التابع أن ركب سيارة عابرة، ووصل إلى مداخل المنصورة ففوجئ بالشيخ السطوحى يسير، وأقسم

ذلك التابع بالله العظيم، أن الشيخ ما ركب سيارة) إذ إن الشيخ « من أهل الخطوة » ولا ذنب للشيخ السطوحى فيما كان يدعيه المنتفعون به.

أراد الشيخ أن يأكل من شجرة توت، فصعد أحد التابعين فى الشجرة، وقام بهزّها، فامتلأت الأرض تحت الشجرة بالتوت، فأكل الشيخ وحمد الله، وأكل كل أطفال القرية ورجالها، وبقى على الأرض كمية من التوت، جمعتْهُ النساء والبنات ووزّعْنَهُ على ربّات البيوت.. كما نُسبَتْ إلى الشيخ كرامات ومعجزات طبيّة كثيرة.. ولا ذنب للشيخ فيما نُسب إليه، إذ هو رجلٌ صالح.

توفى الشيخ محمد السطوحى، وظل النور « الرّبّانى » ساطعا فى حجرته مُبدّدا ظلمة الليل.. وبدأ تجهيز غسيل الشيخ.. وإذا بالماء الذى أعدّ للغسل تظهر منه رائحة المسك والعنبر.. وَصَلَتْ جثة الشيخ إلى المسجد.. أُذِّن لصلاة العصر.. وأقسم عدد كبير من أهل القرية والقرى المجاورة أن الشيخ الجثة، كان يردّد الأذان خلف المؤذن.. خرجوا بالنّعش إلى طريق المقابر، ولكن الشيخ فى نعشه أصرّ على أن يزور قبل الرحيل مقامين لشيخين فى القرية هما أبو اليوسف وأبو البركات.. وكان أتباع الشيخ السطوحى يسرعون فى تلبية رغبات الشيخ المحمول على الأعناق.. أراد أحد شباب المهندسين فى القرية أن يحول دون زيارة الشيخ السطوحى للشيخ أبى البركات، وإذا بمعجزة تحدث، حيث يضغط نعش الميت على ذلك المهندس « الكافر » ويلقى به فى ترعة مجاورة.. وأتباع الشيخ يتغامزون.

☆☆☆☆☆

(ب)

جورج واشنطن كارفر والمجال الحيوى

راقب «كارفر»[1] سلوك الحيوان فى إفريقيا وفى غابات «الأمزون».. واكتشف أن الوحوش أخذاً بنظرية «الجهد الأقل»[2] تقوم بتوزيع الغابة فيما بينها، بحيث تكون لكل أسرة من الوحوش «مجالها الحيوى» الذى تصطاد منه فرائسها.. ووفقا لما يشبه اتفاقية «جنتل مان» بين هذه الوحوش، يقوم كل وحش بتحديد «مجاله الحيوى» بوضع قطرات من بوله على الأشجار والأعشاب الحدودية، والوحوش قادرة على تمييز رائحة بولها من بول الآخرين، لكنّ هذا لا يمنع من وقوع الصراع أحيانا، فقد يحتاج أحد الوحوش إلى زيادة فى مجاله الحيوى، فيستغل هطول الأمطار، حيث تقل رائحة البول، ويوسّع مجاله الحيوى على حساب الآخرين.. وتقوم معارك حدودية.

إن «الجوقة» التى سبق أن تحدثنا عنها من التابعين للشيخ السطوحى، والتى ترتع وتأكل فى «مندرة» آل السطوحى، تعتبر بيت السطوحى «مجالا حيويا» لها؛ لهذا فإن هذه «الجوقة» تقوم بالحديث عن «كرامات» و«معجزات» الشيخ السطوحى، لأن «الجوقة» صاحبة مصلحة فى انتشار

---

(١) جورج واشنطن كارفر أمريكى من أصول إفريقية، درس سلوك الحيوان والحشرات، وكتب «تأملات فى سلوك الحيوان».

(٢) «الجهد الأقل» نظرية فى سلوك الحيوان والإنسان، ترى أن الكائن دائما يسعى لبذل أقل جهد فى ممارسة عمل ما، وذلك لتوفير جهده، إذ قد يحتاج إليه فجأةً.

أحاديث.. الكرامات.. و«المعجزات» عن السطوحى.. ومن يعارض هذه الكرامات والمعجزات فهو «كافر» و «ملحد» وعدوّ للدين، وعدوّ لله الذى يُجرى تلك الكرامات والمعجزات على يدى السطوحى.

إن أنبياء البطون والعشائر مسئولون عن «المجالات الحيوية» لعشائرهم، وبدهىّ أن يؤمن الأتباع بكرامات ومعجزات الأنبياء، حتى لو كان ذلك الزعيم أو النبىّ لا يلتزم بقيم الجماعة وأخلاقها فيقتل من يقتل، ويغتصب - أحيانا - زوجات الآخرين.. ومن يعارض الأنبياء الكاذبين والدّجالين فهو «كافر» وعدوّ لربّ الجماعة وتوتمها السماوى.

☆☆☆☆☆

(جـ)

معجزات الأنبياء بلا حدود

● « وكان فيما حول ذلك الموضع ضياع لمقدَّم الجزيرة الذى اسمه « بوبليوس »، فهذا قَبِلَنا وأضافنا بملاطفة ثلاثة أيام ـ فحدث أن أبا « بوبليوس » كان مضطجعاً مُعتَرَى بالحمى، فدخل إليه بولس وصلّى ووضع يديه عليه فشفاه، فلما صار هذا، كان الباقون الذين بهم أمراض يأتون ويشفون » ص٢٨ أعمال الرسل.

● وكان الله يضع على يدى بولس قوات غير المعتادة، حتى كان يؤتى عن جسده بمناديل ومآذر للمرضى فتزول عنهم الأمراض وتخرج الأروح الشريرة منهم » ص١٩ أعمال الرسل.

● يشوع بن نون جمّد له الله ماء الأردن فعبر إلى الشرق » ص٤ يشوع.

والأمر الغريب، أن الذى وراء المعجزات، ليس بالضرورة الربّ الذى فى الأعالى، بل يكون أحيانا كثيرة إله إسرائيل الذى له أنداد: « فإنه أى إله فى السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وجبروتك » (ص٣ تثنية) .. كذلك فإن إله إسرائيل يظهر أحيانا فى صورة إله وثنى، فإنه دائما ينصح الإسرائيليين بألا يعبدوا إلها آخر، ليس لأن الإله الآخر باطل، لكنْ لأن الإله الآخر ليس إله إسرائيل: « تركوا الرب إلههم الذى أخرجهم وآباءهم من مصر وتمسّكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها » ص٩ ملوك أول.

● مئات المرات، يعبر اليهود البحار بعد أن يجففها لهم الربّ، والغمام

يغطيهم فى رحلاتهم من القيظ، وعمود النار يقودهم، فى ظلمة الليل، مئات المرّات، حتى لا يضلّوا الطريق.

● وفى أشعياء: « .. ولكنْ يعطيكُمُ السيّد نفسُه آيةً، ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه «عمانؤيل» « (وهى عذراء أخرى غير مريم) ص٧ أشعياء.

● « دانيال » يُطرح فى جب الأسود، ولكن الأسود لا تأكله لأن الربّ ينقذه. ص ٣ دانيال.

● يأمر نبوخذ نصر ملك بابل بإحراق « شدْرخ » و« ميشَخْ » و« عَبْد نَغُوَ » وهم رؤساء يهود، ولكن الربّ ينقذهم من النار، إذ كانتَ برْداً وسلاما عليهم. . .دانيال ص٣ »

● « بل أمر الملك « يَرْحَمْئيل » ابن الملك، و« سَرَايا » بن عَزَرْئيل، وَسَلَمْيَا » بن عَبْدئيل أن يقبضوا على « باروخ » الكاتب و« إرميا » النبىّ، ولكنّ الربّ خبأهما » ص ٣٦ إرميا.

● الطفل الميت الذى يصحو من موته. ص٤ ملوك ثان (كان البشر يتهددهم المرض فى القديم حيث لا علاج، خصوصا الأطفال، حيث كان يموت أكثر من نصفهم.. والآباء والأمهات يتعلقون بالطفل، لهذا كان حلم البشر، بأن يصحو الطفل من موته، وهكذا ظهرت معجزات الأطفال الذين يصحون من الموت).

● إيليا يضرب الماء، فانغلق الماء، إلى هنا وهناك، فعبر إيليا وصاحبه فى اليَبَسْ. ص١ ملوك ثان.

وتتكرّر بعض المعجزات لبشر وأنبياء، « مانيتون » السمنودى، الذى

جمع « الجبتانا » (أسفار التكوين المصرية) له « رؤيا » رأى فيها سيّد السماء وحاشيته. و« يوحنا » اللاهوتى » له رؤياه. ونبى الإسلام له رؤيا الإسراء والمعراج.. كذلك فقصة الفداء والأضحية (إبراهيم واسماعيل عند المسلمين، وإبراهيم واسحق عند اليهود والمسيحيين) لها مشابهات فى البوذية، ونجد فى سفر أرميا حلما لزكريا ورؤيا لما يشبه المطهّر والجحيم عند دانتى، وفى « مسخ الكائنات » لأوفيد، نجد « أجا ممنون » يحكم على ابنته باستباحة دمها ليسكّن غضب الإلهة العذراء « ديانا ».. فنشرت الآلهة الأولمبية سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد وإذا بظبية تتخذ مكان الفتاة الموكينية (ابنة أجاممنون).. وسكن غضب « ديانا » بالأضحية.



(د)

المعجزات وخرق قوانين الطبيعة

كثيرا ما يحلم الإنسان بما حُرِم منه، حتى أن العامة يقولون فى مثلهم: «الجوعان يحلم بسُوق العيش»، ويقوم الإنسان - عادة - فى أحلامه بخرق قوانين الطبيعة: فإذا كان طاعنا فى السنّ يحلم بالعودة إلى الشباب أو الصبا، وإذا كان مصابا بمرض أو أمراض مزمنة، فإنه يحلم بالفترة السابقة على المرض حيث كان صحيحا مُعافَى، وإذا كان فقيرا يحلم بالغنى..

يعيش الإنسان حياته فى ظل ظروف طبيعية لا فكاك منها: يشعر بالقوة فى الصبا والشباب والرجولة، فإذا ما جاءت الشيخوخة ينتابه الضعف وتعتريه الأمراض، فيؤمن بأن هناك مقدّمات تؤدى إلى نتائج يستحيل الهروب منها.. قد يرى أباه يمرض، أو ابنه يمرض، ماذا يفعل إزاء المرض؟ يسمع أن هناك فى محلّة مجاورة كاهنٌ قادرٌ على إبراء المريض، حتى لو كان قاب قوسين من الموت، وقادرٌ على إبراء الأكْمَه والأبرص.. إذنْ ليذهبْ إلى ذلك الكاهن، ويدفع له ما يقدر عليه حتى يُنقذَ مريضه، فلقد سبق لهذا الكاهن أن أبرأ كثيرين، فالأخبار فى القرى المجاورة تملأ الدنيا بإنجازات ومعجزات هذا الكاهن.

ويموتُ مريضُه، فيشعر بالأسى والحزن، ويذهب إليه كاهن آخر فيحدثه عن القضاء والقدر، وأن ما قُدِّر لابُدّ من وقوعه، ثم يُعلّل الكاهن الثانى لذلك البائس الحزين فيقول له: إنّك فعلْتَ المطلوبَ منك، وحاولْت العلاج

مع الكاهن الأول ولكنّ إرادة الله فوق كلّ كاهن وفوق كل طبيب.. وهكذا يقع ذلك الإنسان البائس بين سندان الكاهن الأول الدجّال، وبين مطرقة الكاهن الثانى الذى يعتمد على القضاء والقدر.

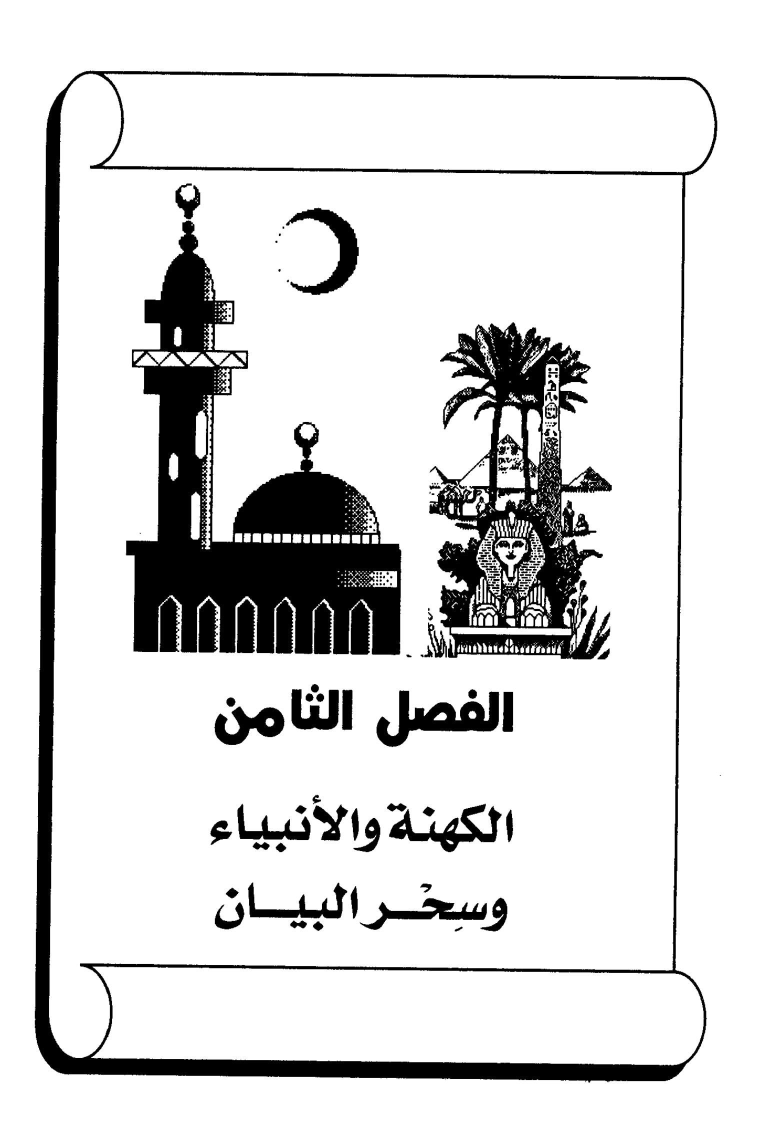
ولازلنا مع ذلك الإنسان البائس، فقد يعتدى على رزقه وطعام أطفاله حاكم ظالمٌ أو أمير غشوم.. فيظهُر له الكاهن الدجال، ويقول له: عليك أن تحفظ «المُنْجِيات» من المتن المقدس، فإذا حفظتها وكررتها مائة مرّة قبل النوم، ومائة أخرى حال اليقظة، فسوف تحدث «المعجزة» ويعود إليك مالك.. وقد يعود إليه الكاهن الثانى ليريحه فيقول له: «يا أخىَ إن السلطة العليا فى الكون تتمثل فى أبينا الذى فى السموات، وتنزل منه إلى الملك، ومنه إلى الأمير، ونحن جميعا مطالبون بالطاعة لهؤلاء الثلاثة.

يقول جون كيمْنى(١): «إن الإيمان بالمعجزات جزء من ميلنا إلى محاولة سَكْب الكون فى قالت تصوّراتنا الذاتية، ويعود هذا الميل إلى زمن الفكرة البدائية عن الله، فالله عند الشعوب البدائية رجل سماوى ضخم وقوى.. وقد يكون رَبْطُنا بين القانون والطبيعة أحد رواسب العصور البدائية، حين كان المعتقد أن الله هو الذى وضع القوانين الطبيعية التى سُجِلَت على صحيفة سماوية؛ إنّ على الطبيعة أن تطيع تلك القوانين.. وإذا خالفت الطبيعة قوانين الله السرمدية، فإن هذا لابد وأن يكون بفعل الله نفسه، لأنه هو واضع تلك القوانين، وهكذا فلا معجزة إلا بإرادة إلهية تخرق القانون الطبيعى.. علينا أن ندرك أن الطبيعة ليست كالكائن البشرى، فهى لا تملك أن تُطيع

(١) الفيلسوف والعلم. تأليف جون كيمْنى، ترجمة الدكتور أمين الشريف - المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر (بيروت) بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ١٩٦٥.

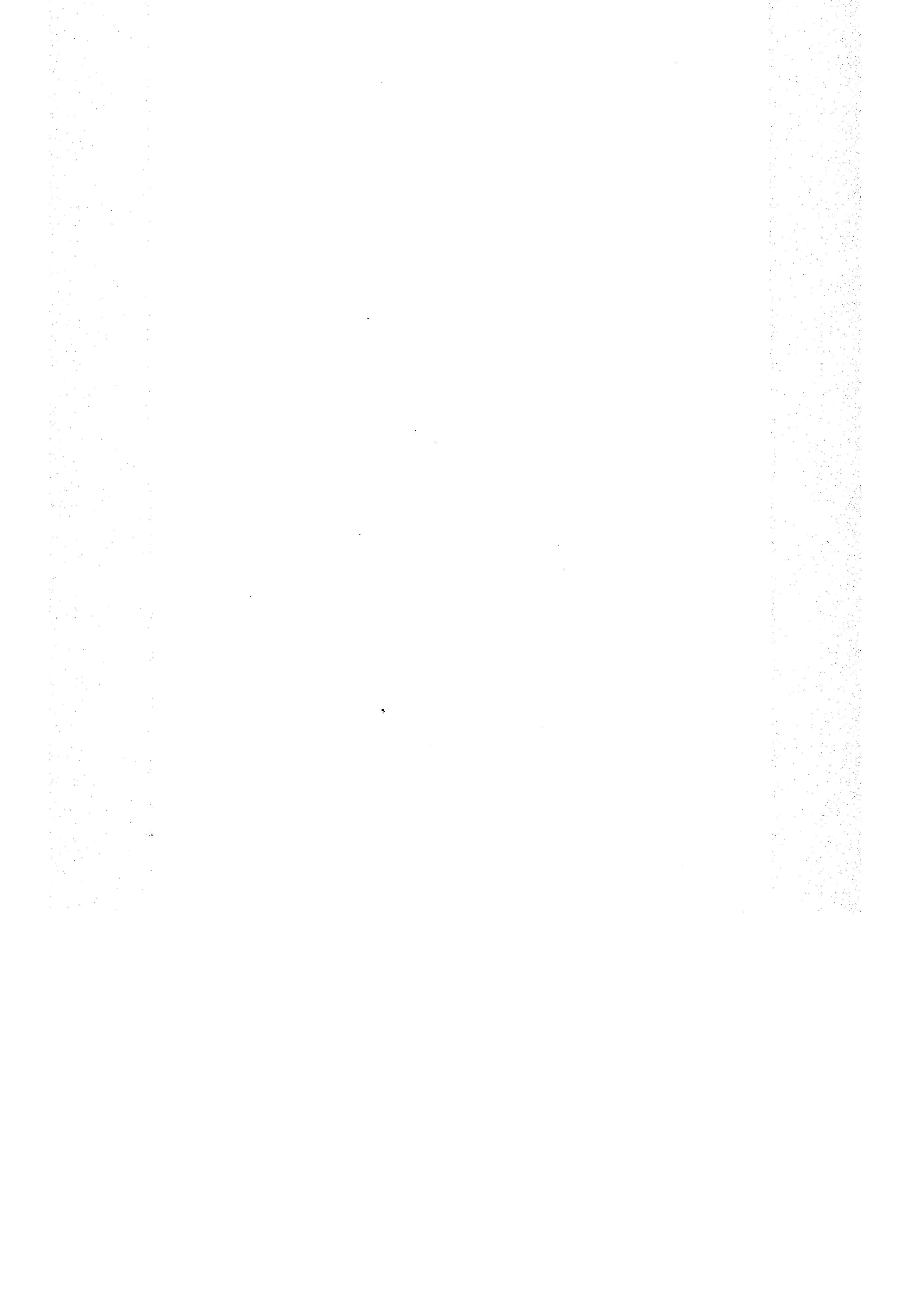
وأن تَعْصِى، إن قوانين الطبيعة لا تفرض حدوث ما يحدث، بل هى مجرّد «وصف لما يحدث بالفعل».. بينما نجد فى مقابل ذلك أن القانون البشرى يحمل إمكان خرقه.. فإذا وضعنا قانونا يحرّم القتل، فمن الطبيعى أن نؤمن أن ارتكاب القتل أمرٌ ممكن.. ولو كان الأمر غير ذلك، (أى لو كان القتل مستحيلا) لما كان ثمة مبرر لوضع قانون يحرّمه.. أما القانون الطبيعى فلا سبيل لخرقه، ولا حاجة لأى سلطة تُلْزِم به، لأنه لما كان هذا القانون الطبيعى سجل دقيق لما يقع بالفعل، أو هو وصف لما يقع، فليس ثمة وسيلة متاحة لخرق أى قانون طبيعى.. وإن المعجزات الكثيرة التى ترد فى أقوال الكهّان والمتون المقدسة، ليست إلا أحلاما وآمالا يتمناها الإنسان..».





الفصل الثامن

الكهنة والأنبياء وسِحْر البيان



الكهنة والأنبياء وسِحْر البيان

(أ)

■ **تطوّر استخدام البشر للغة.**

حينما كانت الأسر الإنسانية الأولى تعيش مرحلة الأسر الحيوانية فى الكهوف، فإنها لم تكن فى حاجة إلى « لغة حديث »، بل كانت فى حاجة إلى « التصويت والنداء »، ولعلّ الجهاز الصوتى للبشر، فى مرحلة الإنسان « الواقف على قدميه » ثم فى مرحلة « إنسان نياندرتال »، لم يكن مَرِنا بالقدر اللازم.. ثم ظهر الإنسان الحديث، وبسبب تحولات مناخية وجغرافية حادة، ترك الإنسان الحديث مناطق السافانا (الحشائش) والكهوف واتجه لوديان الأنهار والغابات وبدأ يبنى الأخصاص (الأعشاش بالنباتات) وابتدأت الحاجة إلى اللغة للتحذير ولطلب المساعدة من الآخرين.. فتطورت لغات الإنسان.

وظهرت الحاجة إلى قيادة لجماعة الأُسَر، وبسبب الفروق الفردية بين البشر، واختلاف الأفراد فى الإقدام والإحجام لمساعدة الآخرين، ظهر لكل جماعة « إبونيم » **Eponym** أى شخص رمزى أو قيادى أو نَبِى (نبو**Nepo** كما سمّاه المصريون القدماء).. ولابد لهذا الشخص القيادى من أن يكون قادرا على حسن استخدام اللغة، بل تميل الجماعة إلى انتخاب طبيعى لقائدها ونبيّها الذى ينبغى أن يكون قادرا على « سحر اللغة »، فضلا عن قدراته العسكرية والإدارية والتنظيمية.

والمتأمل فى برديات التراث المصرى الفرعونى، سوف يكتشف أن « سحر البيان » كان من الصفات الأساسية فى « الحاكم الإله » وفى كل « نبُو »**Nepo**

يقود جزءا من وادى النيل.

وإلى اليوم، لا تزال الفصاحة اللغوية وسحر البيان، من المؤثرات الأساسية فى الزعامة الدينية...(ودائما يرتبط الدين والسياسة فى الشرق) كان أحد الشيوخ فى مصر يملأ شاشات التلفزيون، مع أن فكره الدينى يقلّ كثيراً عن فكر المتنورين من أمثال محمد الغزالى وعبد الحليم محمود.. كذلك يطغى على وسائل الإعلام العربية الآن مجموعة كبيرة من « الفهلوية ». وكلمة « فهلوى » تمصير لكلمة « بهلوى » الفارسية وقريبة من كلمة « مجوسى » التى تشير إلى « العُلوّ » و « سحر اللغة » و « السحر » **Magic** .. وصاحب العظمة المتعالى (الحاكم أو الله) **His Majesty** .

☆☆☆☆☆

(ب)

سحر البيان الفرعونى.. وانتقاله للعهد القديم

١ - أسطورة القمح المصرية.

يروى «مانيتون» فى «الجبتانا - أسفار التكوين المصرية» أسطورة القمح ويقول: «يبدو أنها كانت قصيدة شعرية شائعة فى عصر «أوزيريس» (ادريس النبى) ينسخها الأطفال الشمامسة لتعلّم الكتابة والقراءة قبل أن يصيروا كهنة، وتقول البردية:

وَضَعَتْ «كونا» زوجة «بيبى» ولداً آخر
سمّوهُ «أبيس» تَيّمُّنا بالثور أبيس
فطمت كونا الطفل أبيس
أكل شيئًا من كبد الصيد ومن مُخ الصيد
أبيس يتألّم يبكى يصرخ
أمّه كونا تبكى من أجله
خرجَتْ كونا بأبيس إلى شاطئ حابى[١]
عسى «رع» ينظر آلامه فيرقّ لحاله
نظرت كونا لسَماء الغابة تتطلّع
وجدت أمّا عصفورة تطعم أطفالها منقاراً لمنقار

---

(١) حابى هو نهر النيل.

فتّشَتْ كونا فى الأعواد الذهبية عن الحبّات الذهبية
مضغت كونا تلك الحبات الذهبية
أطعمْت كونا الطفل أبيس فماً لفَمْ
ضحك أبيس.. ضحكت كونا.. جَمَعَتْ كلّ الحبات الذهبية
حَفظَتْ حبات «الكونا» (٢) فى الكهف المظلم
نَبَتَتْ بعض الحبّات الذهبية، صارت أعواداً خضراء
فى برمهات صارت الأعوادُ الخضراءُ أعواداً ذهبية
عرفت كونا سرّ «الكونا» وسر الحبات الذهبية.
فى العام التالى زَرَعَتْ كونا حبات «الكونا» الذهبية.

☆☆☆☆☆

(٢) اسم الحنطة أو القمح (وحبوب أخرى كالشوفان والشعير) يطلق عليها فى الانجليزية واللاتينية Corn .. وفى المصرية القديمة «كونا» Cona وهناك تقارب.

٢- أناشيد عصر التوحيد الإخناتونى.

وحّد أخناتون الآلهة المصرية فى «آتون»، فبدلا من أن يكون «رع» (لا = ألْ لا) سيد السماء، وبدلا من أن يكون «آمون» سيد السماء، فقد جعل إخناتون «آتون» سيّد السماء.. ورفض أخناتون اسمه القديم أَمنْحُتُب (= آمون حتب بمعنى آمون راضٍ أو آمون مرتاح) وحوّل إخناتون (أمنحتب سابقا) عاصمته من طيبة إلى «أخيتاتون» (= أُفُق آتون، وهى تل العمارنة الحالية).

لقد أمدّتنا المقابر، التى تخص إخناتون وأسرته والأمراء والتابعين والكهنة، والموجودة فى الهضبة الشرقية، أمدتنا بالكثير من الجذور اللاهوتية المصرية التى نرى أثرها فى العهد القديم وأديان السامية الثلاثة، زوّدَنَا هذا التراث الضخم من الجداريات ومتون التوابيت بمعلومات ثريّة عن تراث ذلك الزمان، كما زوّدَنَا بعدد لا حصر له من الأناشيد والشعر الفرعونى فى مدح سيّد الآلهة.. ونرى إخناتون، فى تلك الأناشيد رافعاً عينيه إلى السماء، محاولا الإحاطة بحقيقة سيد السماء فى بهائه غير المحدود، ذلك السيد الذى تجاوزت سلطاته وسلطانه الأرضين (مصر) لتمتد إلى البشر جميعا فى العالم كلّه... وعَبّرَتْ مرحلة إخناتون (وثورته الدينية) عن ذلك كلّه بهذا الحشد الضخم من الأناشيد التى انتقلت إلى العهد القديم (التوراة) ومنه إلى بقية أديان السامية.. ونثبت هنا عددا من تلك الأناشيد :

● **أنشودة بهاء آتون.**

أنت تشرق ببهائك فى أفق السماء، أنتَ يا آتون الحىّ الذى كُنت منذ الأزل حينما تشرق فى الأفق الشرقى، فإنك تملأ كلّ البلاد بنورك.

أنت مُشرق ومبهج فوق كل أرض.

أنت .. رَعْ.. (= لا = ألْ لا) وأنت تصل بنورك إلى الكون الواسع.

ورغم بعدك فإن نورك يصل إلى الأرض.

ورغم أنّك ترى البشر، فإن خطواتك تَخْفَى عنهم.

● **أنشودة الليل والإنسان.**

حينما تغيب فى البّوابات(1)، تذوب الأرض فى حالكِ الظلام

ينام الناس ورءوسهم ملفوفة ولا يَرَى أحد أحَدا

أمتعتهم تُسرَقُ من تحت أرجلهم ومن تحت رءوسهم وهم لا يشعرون

ويرى جيمس هنرى برستد(2) أنّ ما ورد فى «أنشودة الليل والإنسان الفرعونية، نقل إلى المزمور (١٠٤ – ٢٠) حيث يقول المزمور: «تجَعلُ ظلمةً، فيكون الليل ويدب فيه كل وحشٍ شرس».

---

(١) يعتقد المصريون القدماء، أن الشمس فى النهار تدور فى اثنى عشر مرحلة، وفى الليل تدخل كهفا مظلما له اثنا عشر بوّابة تخرج منه مع الصباح.. وفى الصيف يقل زمن ساعات الليل، وفى الشتاء يزيد زمن تلك الساعات.

(٢) جيمس هنرى برستد أحد المتخصصين فى التاريخ المصرى مع إجادة اللغة المصرية القديمة، مؤلف السِفر العظيم «فجر الضمير» عن الحضارة الصمرية باعتبارها فجر ضمير الأديان السامية الثلاثة فضلاً عن تأريخه الدقيق للحضارة المصرية فى كتابه «مصر القديمة» ولتلميذه جون ولسون كتاب بنفس العنوان.

● أنشودة الليل والحيوان.

فى الليل يخرج كل أسد من عرينه ليلتمس رزقه

فى الليل كل الثعابين تتلوّى فى الظلمة لتجد فرائسها

الظلام مخيّم والعالم فى صمت

فى حين أن الذى خلق يسيطر على كل شئ

ويرى برستد، أن هذه الأنشودة، انتقلت من المتن المصرى، إلى العهد القديم فى المزمور (١٠٤ - ص٢١) الذى يقول: «الأشبال تزمجر وتخرج.. وتلتمس طعامها»

● أنشودة النهار والإنسان.

الأرض زاهية حين تشرق

ويضئ النهار، وتولى الظلمة فتعود الظلمة داخل البوّابات

وتصير الأرضان (مصر) فى عيد وبهجة

والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم حتى المساء

ويرى برستد أن هذا النشيد انتقل إلى المزمور (١٠٤ - ٢٢ و ٢٣) فى قوله: «تشرق الشمس فتنصرف الوحوش، وإلى أوكارها تلوذ. الإنسان يخرج فى عمله حتى المساء».

● أنشودة خلق الإنسان.

أنتَ خالق النطفة، والنطفة تنمو فى الأنثى

فتخلق بشرا من تلك النطفة

الطفل يعيش فى رحم الأم

أنْتَ ـ بقدرتك ـ تسكته فى بطن الأم فلا يبكى

وترضعه، حتى فى رحم الأم
وحين تضعه أمّه تجعله يلتقم ثَدْىَ الأم
وتكونُ حياة.

● أنشودة رى الأراضى فى مصر وخارجها.

أنت تخلق النيل فى العالم السفلى
أنت تأتى به كما تشاء، لتحفظ أهل مصر أحياء
فأنت خلقتهم ليعبدوك(١)، وأنت سيدهم جميعا، ولا تحتاج منهم شيئا
وأنت الذى ترهق(٢) نفسك من أجلهم
وأنت ربّ كل مكان، وربّ كل أرض؛ وتشرق من أجل الجميع
لقد وضعت نيلاً فى السماء، حينما ينزل لهم، يتدفّق ماؤه فوق التلال
مثل البحر الأخضر العظيم (البحر المتوسط)
يوجد نيلٌ فى السماء للأجانب
أما نيل الأرضين (مصر) فإنه يأتى من العالم السفلى للأرضيْن

● أنشودة السيطرة العالمية.

(١) فى القـــرآن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات ٥٦، ٥٧].

(٢) فى القرآن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

* هذا الربط بين المتن المصرى والقرآن من فعل جيمس هنرى معتمداً على «ترجمة معانى القرآن» ورأى تناصًا بالسلب بين آية سورة ق رقم ٣٨ وبين قول المتن المصرى: «أنت الذى ترهق نفسك من أجلهم».

أنت خلقْت السموات لتشرق فيها
ولتشاهدَ كل ما صنعْتَ حينما كُنْتَ وحيدا. أنتَ مضيء يا آتون الحيّ
جميع العيون تراك تجاهها. فأنت شمس النهار فوق الأرض
وحينما تغيب، فإن جميع الخَلْق الذين سوّيْتَ وجوههم
يغشاهم النعاس فيكونون كالموتى
وتشرق بنورك وبهائك من جديد، فتدب الحياة فى الأرض والناس.

● **أنشودة الرّعاية العالمية.**

العالم والناس يعيشون بصنع يدك، فأنت خالقهم
يحيا العالم والناس حين تشرق، ويموتون حين تغيب
كل عمل يُطرح جانبا، حين تغيب فى الغرب
وحينما تشرق ثانية لأنك تجعل كلَّ الأكفّ تنشط لأجل الملك
وتجعل الخير يسعى مع سَعْى كلّ قدمين
إنك خلقت العالم والناس من أجل ابنك الملك الذى من لحمك
إنه ملك الوجهين القبلى والبحرى، وإنه يعيش فى الماعت (الحق - الصدق)
إنه إبنك ربّ الأرضين «نفَر خبْرُو رَعْ وَان رع» (إخناتون)
ابن رع، من يعيش فى الماعت.
ربّ التاجين إخناتون طالتْ حياتُه
ولأجل كُبرى الزوجات الملكية محبوبته
سيدة الأرضين نفَر نفْرو آتون (نفرتيتى)
عاشت جميلةً مزدهرةً أبدَ الآبدين.

ونُعيد ما سبق أن أشرنا إليه، لدى المؤرخين المهتمين بالتأثير المصرى فى المتون السامية، أن جميع دراسات الأديان المقارنة، تثبت التأثير المصرى العميق فى الأديان السامية، فمن المعروف أن حِكَم «أمين موبى» الحكيم المصرى أثّرَتْ فى سفر الأمثال، كما أن أقوال المعمّر أو النبىّ المصرى «بتَاحْ حُتِب» هى من المؤثّرات فى سفر المزامير.

☆☆☆☆☆

(جـ)

سحر البيان فى سفر الجامعة

يُعبّر الجامعة (سليمان بن داود) عن إنكار اليهود للعالم الآخر، أحيانا يتذكرون التأثير المصرى فيهم، والذى يؤمن بعالم آخر، ولكنْ غالبا ما ينكرون البعث والثواب والعقاب مثلهم كمثل البدو المؤمنين بتعاقب أنسال القبيلة.. ومع هذا نرى الكثير من سحر البيان فى سفر الجامعة، بل إن الكثير من عباراته تجرى على ألسنة الناس مجرى الأمثال.

● **الكل باطل.**

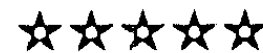
باطل الأباطيل. الكل باطل. ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبُه تحت الشمس؟ دورٌ يمضى، ودورٌ يجئ والأرض قائمة إلى الأبد.

والشمس تشرق والشمس تغرب، وتسرعُ إلى موضعها حيث تشرق. الريح تذهبُ إلى الجنوب وتدور إلى الشمال.. كل الأنهار تجرى إلى البحر

والبحر ليس بملآن.. العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلئ من السمع، ما كان فهو ما يكون.. وليس تحت الشمس جديد.. رأيتُ كلَّ الأعمال التى عُملَتْ تحت الشمس فإذا الكلُّ باطل وقبض الريح. أنا ناجيْتُ قلبى قائلا: ها أنا قد عَظُمْتُ وازدَدْتُ حكمة أكثر من كل من كان قبلى على أورشليم، وقد رأى قلبى كثيراً من الحكمة والمعرفة.. فعَرَفْتُ أيضا أن هذا قبض الريح... لأنّ فى كثرة الحكمة كثرة الغَمّ، والذى يزيد علما يزيدُ حزناً

●●●

اقتنيْتُ عبيداً وجوارىَ، وكان لى وِلدان البيت، وكانت لى أيضا قِنْيَةُ بقرٍ وغنم أكثر من جميع الذين كانوا فى أورشليم قبلى جمعْتُ لنفسى أيضا فضّةً وذهبا وخصوصيات الملوك... ثم التفتُّ أنا إلى كل أعمالى التى عَمَلَتهْا يداىْ وإلى التعب الذى تَعِبْتُه فى عمله، فإذا الكلَّ باطل وقبض الريح، ولا منفعةَ تحت الشمس.



اذْهَبْ كُلْ خُبْزَك بفرَح. واشربْ خَمْرَكَ بقلبٍ طيّب، لأن الله منذ زمان قد رَضِىَ عَمَلَكْ.. التذْعيشا مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياةِ باطلك التى أعطاك إيّاها تحت الشمس.

كلُّ ما تجدُه يدك لِتفعلَه فافعلْه بقوْتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها.

●●●

واضح من كلام سليمان وخبرته أن الكلَّ باطلُ الأباطيل، فالكلّ باطل وقبض الريح وحصاد الهشيم.. ويندر عند سليمان ذكر الآخرة والدينونة.. ولكننا لا ننكر «سحر البيان» عند سليمان.

☆☆☆☆☆

(د)

سحر البيان فى نشيد الإنشاد

نشيد الإنشاد (الذى لسليمان) منلوج (حوار داخلى صامت) بين العريس والعروس والأصدقاء، يرسم صورة ساميّة للحب والرغبة بين العريس والعروس فضلا عن تعليقات « الأصدقاء » وأحلامهم التى توحى بالعاطفة والرغبة :

● **العريس .**

لقد شبهتُك يا حبيبتى بفرسٍ فى مركبات فرعون
ما أجملَ خدّيْك بسُموطٍ، وعنقك بقلائد، نصنع
لكِ سلاسل من ذهب، مع جمانٍ من فضة

● **العروس .**

مادام الملك فى مجلسه، أفاحَ ناردينى رائحته . .
صُرَّةُ المُرِّ حبيبى لى . بين ثدييّ يبيت حبيبى

● **العريس .**

ها أنت جميلة يا حبيبتى . ها أنتِ جميلة
عيناكِ حمامتان . . .

● **العروس .**

ها أنت جميل يا حبيبى وحُلْوَ، وسريرنا أخضر .

● **العــروس.**

جوائز بيتنا أرْز وروافدنا سَرْوٌ

● **العــروس.**

أنا نرجس شارون، سَوْسَنَةُ الأودية

● **الأصدقاء.**

مَن هذه الطالعة من البرّيّة؟.. مُعَطرةً بالمُرّ
واللبان.. هو ذا تَخْتُ سليمان حولهُ ستون جبارا
... اخرجْنَ يا بنات صهْيون وانظرْنَ الملك سليمان
بالتاج الذى توّجَتْهُ به أمُّه فى يوم عُرْسه...

☆☆☆☆☆

(هـ)

سحر البيان فى الأناجيل

« نموذج من انجيل متى »

■ **زيارة المجوس لأورشليم.**

ولما وُلد يَسُوع فى بيت لحم اليهودية، فى أيام « هيرُودُس » الملك، إذا مجوسٌ من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولودُ مَلِك اليهود؟ فإننا رأينا مجده فى المشرق وأتيْنا لنسجدَ له.

فلما سمع هيرُودُس الملك اضطرب وجميعُ أورشليم معه.. وأتوْا (المجوس) إلى البيت ورأوا الصبىّ مع أمه مريم وسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم وقدّموا له هدايا: ذهباً ولبانا ومُرّا.. ثم انصرفوا إلى طريق أخرى...

■ **الهرب إلى مصر.**

فقام (يوسف) وأخذ الصبىّ وأمّه ليلاً وانصرف إلى مصر، وكان هناك إلى وفاة هيرودس، لكىْ يتم ما قيل من الربّ بالنبىّ القائل:

« من مصر دَعوْتُ ابنى »...

■ **العودة إلى الناصرة.**

فلما مات هيرودس، إذا ملاك الربّ قد ظهر فى حلم ليوسف فى مصر قائلا: « قم وخذ الصبىّ وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نَفْس الصبىّ. وإذْ أُوحِى إليه فى حلمٍ، انصرَفَ إلى نواحى الجليل، وأتى وسكن فى مدينة يقال لها ناصرة لكى يتم ما قيل بالأنبياء: « إنه سيُدْعَى ناصرِيّاً »

■ **يوحنا المعمدان يمهّد الطريق.**

وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يَكْرِزُ فى بريّة اليهودية قائلا: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات، فإن هذا هو الذى قيل عنه بإشعياء النبىّ القائل: صوت صارخ فى البرّيّة، أعِدّوا طريق الرب، اصنعوا سبله مستقيمة.. حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن، واعتمدوا منه فى الأردن، معترفين بخطاياهم. فلما رأى كثيرين من الفرِّيسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته، قال لهم: يا أولاد الأفاعى، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى؟... والآن قد وُضِعتْ الفأسُ على أصل الشجر، فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيّدا تُقطع وتُلقى فى النار، أنا أعمدّكم بماءٍ للتوبة، ولكن الذى يأتى من بعدى هو أقوى منّى الذى لست أهلاً أن أحمل حذاءه هو سيعمدّكم بالروح القدس...

● **معمودية يسوع المسيح.**

حينئذٍ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه. ولكنّ يوحنا منعه قائلا: «أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى إلىّ؟»

فأجاب يسوع وقال له: «اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أنّ نكمّل كلَّ برّ»... فلما اعتمد يسوع صَعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيا عليه، وصوت من السموات قائلا: «هذا هو ابنى الحبيب الذى به سُرِرْت».

■ **يسوع يواجه التجربة.**

ثم أُصْعِد يسوع إلى البرّيّة من الروح القدس، ليُجَرّبَ من إبليس .. فتقدم إيه المجرّب وقال له: «إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة

خبزاً ». فأجاب وقال: « مكتوبٌ: أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله ». ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: « إنْ كنتَ ابنَ الله، فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب: أنه يوصى ملائكته بك، فعلى أيديهم يحملونَك لكى لا تُصْدِم بحجرٍ رجلَك ». قال له يسوع: « مكتوب أيضا: لا تجرّب الربّ إلهَك ».. ثم أخذه إبليس.. وأراه كل ممالك العالم ومجدَها، وقال له: « أعطيك هذه جميعا إن خَرَرْتَ وسَجَدْتَ لى » حينئذ قال له يسوع: « اذهب يا شيطان لأنه مكتوب: للربّ إلهك تسجد وإياه وحده نعبد » ثم تركه إبليس... وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه...

■ **الموعظة على الجبل.**

ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل، فلما جلس تقدّم إليه تلاميذه. ففتح فاه وعلمهم قائلا: « طوبى للمساكين بالرّوح، لأنّ لهم ملكوت السموات، طوبى للحزانى لأنهم يتعزّون، طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ؛ لأنهم يُشْبَعُون، طوبى للرحماء، لأنهم يُرحَمُون، طوبى لأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناءَ الله يُدْعَوْن. طوبى للمطرودين من أجل البرّ لأن لهم ملكوت السموات....

وإذا عقّبنا على هذه النماذج من العهد القديم والجديد، فإننا نرى فيها بلاغة الكُهَان والأنبياء والقوّاد، الذين يريدون « البلوغ » إلى المُخَاطَب والتأثير فيه. إنّ قيادة الجماعات، ـ سواءً كانت على مستوى القبائل أو العشائر أو الشعوب ـ تحتاج إلى روح الزعامة فى القائد أو الكاهن أو النبى، ولا يكون الزعيم أو القائد أو النبى أو الكاهن دميما أو مشوّهًا، كذلك ينبغى أن

يتصف بالبلاغة والقدرة على التأثير والإقناع، ويكون حوله مجموعة من المساعدين والحواريين المؤيدين له فى دعوته... وإذا استثنينا دعوة المسيح، حيث كان المسيح يدعو للسلام والمحبة والروح، أى أنه كان يدعو دعوة أخلاقية، إذ إنّه كان يعلم بقوّة الرومان ودولة قيصر، ولهذا قال كلمته المأثورة: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله».. إذا استثنينا دعوة المسيح.. فإن بقية الدعوات الساميّة كانت تسعى لتأسيس الدول أو تنظيم الشعوب: ابراهيم كان قائدا للجماعات العبرانية... وكذلك داود وسليمان كانا ملكيْن عبرانيين، وموسى كان قائدا ونبيّا يسانده أخوه هارون، وكذلك كان نبىّ الإسلام.

أما أنبياء الشرق الأقصى من أمثال بوذا وذرادشت ومانى وكونفشيوس، فإنهم جميعا، كانوا دعاة أخلاقٍ وروحٍ وقيم ولا علاقة لهم بتأسيس الدول.

فاتنا أن نؤكد أن بلاغة القرآن أعلى بكثير من بلاغة أى متن دينى آخر... والسبب بدهىٌّ ومفهوم: العهد القديم والعهد الجديد ترجمات عن متون سابقة بالعبرانية أو السريانية أو الآرامية أو غيرها... أما القرآن الكريم، فإن المسلمون جميعا يؤمنون بأنه نزل من السماء، بنفس اللغة العربية التى كان يتكلمها نبى الإسلام.. واللغة العربية هى آخر اللغات السامية ظهوراً.



(و)

سحر البيان فى القرآن

يؤمن كل مسلم، بأن القرآن أُنزل على الرسول (ﷺ) من ربّ السماء؛ وبالتالى فهو محكم الصياغة بليغ... وينقسم القرآن إلى آيات أحكام (شريعة أو ما يسمونه فى الدراسات الغربية بالقوانين) وآيات تتحدث عن العقائد وتواريخ الأمم السابقة (خصوصا بنى إسرائيل) وأنبياء العبرانيين واليهود، والحديث عن العالم الآخر والثواب والعقاب والجنة والنار والدعوة الإسلامية....).

وبدهيّ أن آيات الأحكام التشريعية تتميز ببلاغة الدقة (أو ما يسميه الغربيون بدقة الصياغة القانونية).. وهذه نماذج من آيات الأحكام:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٢٣].

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٢٧].

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ... ﴾ [البقرة:٢٢٨].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة: ٢٨٢].

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾

[البقرة: ٢٨٣].

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء:١٢].

﴿ وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء:٢٢].

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:٢٣].

أمّا آيات العبرة التاريخية والموعظة والحديث عن الأمم السابقة وآدم وحواء والجنة والنار والثواب والعقاب، والحديث عن بني إسرائيل وأنبيائهم الكثيرين، والحديث عن الدعوة الإسلامية وتكليفاتها ووصْف الرسول.. فإن هذا كلّه يتميز بالبلاغة والقدرة الإلهية على التأثير...

ويأتي جولد(1) تسيهر المستشرق الألماني بأمثلة من آيات العبرة التاريخية والحديث عن نبي الإسلام وضرب أمثلة مترجمة إلى الإنجليزية (مع الأصل العربي القرآني) من سورة مريم والقلم وق وطه والأنبياء والطور..

ويقول عن هذه السور «إنها تتميز بالبلاغة والوزن الموسيقي الرائع:

﴿ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [من سورة مريم].

وذكر جزءاً من «الطور»:

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [من سورة الطور].

ويذكر جزءا من سورة «القلم»:

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5)

---

(1) جولد تسيهره - ألماني هنجاري يكتب بالألمانية والإنجليزية والعربية، فهو من كبار المستشرقين، ومن عجب أن له كتابا في قراءات القرآن، وكثير الحديث عن «البلاغة الشعرية في القرآن» في كتبه الانجليزية مثل: Holly Koran .

بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ [من سورة القلم].

كان جولد تسيهر يعانى من الصراعات الدينية فى زمنه، ولهذا كان يرى «أن الأديان إذا كانت توحّد المنتمين إليها، فإنها تشعل الصراعات بين الجماعات البشرية».. زار الهند (قبل انقسامها إلى الهند وباكستان)، وتقول مراجع أوربية أنه التقى المهاتما غاندى، وتمنى أنْ لو استمرت الهند على ما هى عليه من وحدة الهنود (وهم من أصل عرقى واحد) فى دولة واحدة.. ورأى جولد تسيهر القرآن محفوظا بين الهنود المسلمين الذين لا يعرفون العربية (معظمهم يتحدث الأوردية والقلة يتحدثون الإنجليزية) وفهم جولد تسيهر منهم أنهم يشعرون ببلاغة القرآن من خلال نصوصه المترجمة إلى الأوردية والإنجليزية.. وبما "أن التعبّد لا يكون إلا بالقرآن العربى، فشعر منهم أنهم يحسّون ببلاغة القرآن من خلال الترجمات الدقيقة، ومن خلال الجَرْسِ والتناغم اللفظى والموسيقى؛ وما يسميه بالانجليزية **"Rhymes & Rhythms"** (قوافٍ وأوزان).

☆☆☆☆☆

(ز)

من الابونيم إلى النبىّ
تفاقم الشعور بالسلطة والزعامة

سبقت الإشارة إلى الكلمة اللاتينية «إبونَيم» Eponym والتى تشير إلى زعيم الجماعة أو قائدها أو عرّافها أو عمدتها التوتمىّ، والذى يشعر الأفراد بشعور التوقير والقداسة له... وتساويها الكلمة المصرية القديمة نبُو Nepo والتى تشير أيضا إلى مسئول القرية أو الجماعة وزعيمها العشائرى الروحى.. فإذا اجتمعت عدّة قبائل فى وادٍ واحد أو جبل واحد أو قريبا من مورد مشترك للمياه، فإن القبائل تختار أحد هؤلاء «الإبونيم» ويصبح نبيّا وقائدا للجماعة.[1]

إن تفاقم الشعور بالسلطة والزعامة، ونمو شعور القائد بالعظمة يحرّك قدراته وإمكانياته ويخلقه خلقا آخر.

عرفناه شابا فى العشرين من عمره فى أوائل الستينيات، حصل على قدرٍ من التعليم يمكّنه من قراءة الصحف، كان أكثر إخوته الذكور خجلاً، وكان يهرب من الجلوس فى «مندرة» أبيه شيخ البلد.. بنى والده بيتا كبيراً وزوّج

(١) «المدارات الحزينة» للمفكر الفرنسى اليهودى كلود ليڤى شتراوس أهم علماء الأنثروبولجى فى القرن العشرين من مواليد ١٩٠٨ توفى ٢٠٠٩ (عن ملخص لكتابه فى الجريدة البريطانية "Sunday tel-eg" وهو ـ أيضا ـ أبرز علماء علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع الدينى ولا يقلَ عن روچيه باستيد.

« الأولاد » فيه، وكان للبيت حوش كبير و« جرن » لدراسة القمح والأرز، قبل ابتكار ماكينات الدراس.. كانوا يأكلون جميعا على « طلبليتين » للعشاء حين كان العشاء وجبة الفلاحين الرئيسية-.. أبوه يرأس طبلية « الأولاد »، وأمّه ترأس طبلية « البنات ».. وكثيرا ما كان صاحبنا يشكو (أو يفخر) بأن أباه كان يأكل أوزّةً منفردا، ويوزع الأخرى على الأولاد.. توفّى الأب شيخ البلد، وصار صاحبنا فى مكان أبيه، وارتقى واشترى أرضا زراعية للأسرة من « الوسيّة »، ثم صار عمدةً للقرية، ومن عجب أنه صار يأكل الأوزة، ويوزّع الأخرى على « الأولاد »... وصار عضواً فى مجلس الشعب.. وتطورت لغته، وأصبح يقوم بالصلح بين القرى وبين العُمَد، وصار مشهوداً له بالحكمة والقول الرزين.

شيخٌ بدأ متواضعا، يقدّم تفسيره للقرآن فى التلفزيون.. وتوالت الأيام والسنون وزاد انتشاره، واكتسب برنامجه شعبية بين الناس، وتفاقم شعوره بنفسه مع سعة انتشاره فى التلفزيون، ونما شعوره بالعظمة والثقة بالنفس.. وأحاط به مريدون وأتباع، وساعدتُهُ الدولة على الانتشار، حتى تزداد شعبيتها، بل وعينته وزيرا للأوقاف، وبدأت كتبه تملأ الأسواق، وقدّم تفسيرا للقرآن، وطبع بعضهم باسمه كتابا بعنوان « الليلة الأولى فى القبر » وتوالى طبع كتبه.

إن قضية « الشيوع والذيوع » أساسيّة فى انتشار المذاهب والرُّؤى الدينية، فالجنة حُلْمُ من لا حُلْمَ له فى الدنيا، وهم غالبية البشر.. فليس كلّ من شاع وذاع بين الناس هو الأفضل فى مذهبه وآرائه، ويضرب رجال الدين الإسلامى على ذلك بمثلٍ شهير وهو أن أتباع « مسيلمة الكذاب » قبل معركة اليمامة،

كانوا أكثر عددا من أتباع نبىّ الإسلام.. كذلك كان الأوزاعى إمام أهل الشام أفضل من بعض كبار الأئمة، كما كان الليث بن سعد، إمام مصر، من وجهة نظر الكثيرين، أفقه من الإمام الشافعى نفسه.. فالعبرة فى المذاهب، ليست بالأكثر فقها، بل بالأوسع انتشاراً.

إن الإنسان إذا تفاقم شعوره بذاته وإحساسه بالعظمة، فإنه يصبح قياديا وتنمو مواهبه وتتسع قدراته، ويصبح خبيرا فى التنظيم والإدارة ومخاطبة الجماهير... ويبدأ فى التسلط على الآخرين، وبلغة « شتراوس » يتحوّل من إبونيم إلى نبىّ...

القبائل السامية كانت تقوم بهجرات من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها، إذ إن منشأ الساميين كان جنوب اليمن ووسط شبه الجزيرة.. وأمام ضغط الجوع هاجروا شمالا إلى بادية العراق والشام وفلسطين، وقاموا بمحاولات للدخول إلى مصر...

عمليات الحل والترحال للساميين فرضت ظهور أعدادٍ كبيرة من « الإبونيم »، وتحولت أعداد كبيرة من هؤلاء إلى أنبياء.. إننا لا نستطيع حصر عدد أنبياء العبريين وبنى إسرائيل، بالرغم من قلة أعداد أفراد تلك القبائل (كانوا فى الزمن القديم لا يتجاوزون عدّة مئات من الآلاف) وعلى العكس، فإن حضارات شرق آسيا فى الهند والصين واليابان وما حولهم، كانت حضارات مستقرة، وكانت المجتمعات بالملايين، ومع هذا فإن عدد أنبيائهم أقلُّ من أصابع اليدين: بوذا. زاردشت. مانى وكونفشيوس، ....

اعتبر توماس كار لايل نبىّ الإسلام أحدَ أبطال[1] التاريخ الإنسانى

(١) «الأبطال» توماس كارلايل - ترجمة دار صادر ١٩٦٦.

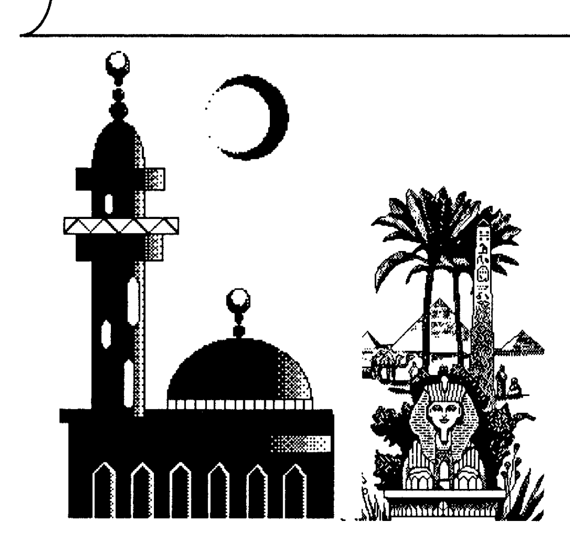
المؤثرين فى الجنس البشرى ولكنه يرى : « ... أن نبىّ الإسلام، كان فى بداية تصوّفه وتعبّده ودعوته يدعو إلى المسيحية المانوفستيه، وبالتالى فقد كان ذا صلة بالمسيحية المصرية وانقسام المصريين بين قيادتين دينيتين : آريوس وإثناسيوس.. إن خطاب نبىّ الإسلام إلى عظيم القبط فى مصر يبدو منه أنه يؤيد إثناسيوس ضد آريوس.. مع أن المنتظر منه أن يؤيّد آريوس القائل بالطبيعة الواحدة (الناسوتية) للسيد المسيح، ولا يؤيد إثناسيوس القائل بالطبيعتين للمسيح (ناسوت ولاهوت).

كذلك يرى توماس كارلايل : « أن موقف العبرانيين والإسرائيليين وكراهيتهم لمصر، والتى يشهد بها العهد القديم، موقف مفهوم، حيث كانت مصر تتصدى لهؤلاء وتمنعهم من دخول حدودها الشرقية، فإن دخلوا فهم عبيد وخدم للمصريين.. أما الأمر غير المفهوم فهو حملة القرآن على مصر والمصريين وفرعون، إلا أن يكون العهد الأخير (يقصد القرآن) صدى للعهد القديم ».

وكذلك يرى جولد تسيهر (وهو متقن للغة العربية، حتى أنه وضع كتابا فى قراءة القرآن يقصد « التجويد ») يرى « أن النبى محمداً قرأ ماثيو (يقصد إنجيل متى)، حتى ظهر كثيرٌ من التناصّ بين ماثيو والنبى : ففى قول النبى : « إياك نعبد وإياك نستعين » تناصّ مع قول ماثيو : « للربّ إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » وفى قوله : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » تناصّ مع قول ماثيو « وُضعَتْ الفأس على أصل الشجر ».. وواضح من كلام جولد تسيهر أنّه مُصرّ على عدم التفريق بين القرآن (كلام الله عند كل مسلم) وبين أحاديث النبىّ.

ويرى جولد تسيهر ـ أيضا ـ تناصًا « ... بين كلمات رئيس جند الربّ ليوشع: « اخلع نعَلك من رجلك لأن المكان الذى أنت واقف عليه هو مقدس » آخر ص ٥ يشوع، وبين ما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ **إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴾ [طـه:١٢]. وكذلك تناصّاً بين الإصحاح (١٢) صموئيل ثان، حيث إن ناثان يوبّخ داودَ لما أخذ زوجة « أوريا » وقال له مثل « صاحب النعاج الكثيرة وصاحب النعجة الواحدة » ونفس المثل ذكر فى القرآن – سورة ص الآيتان ٢٣، ٢٤ : ﴿ **إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ** ﴾.

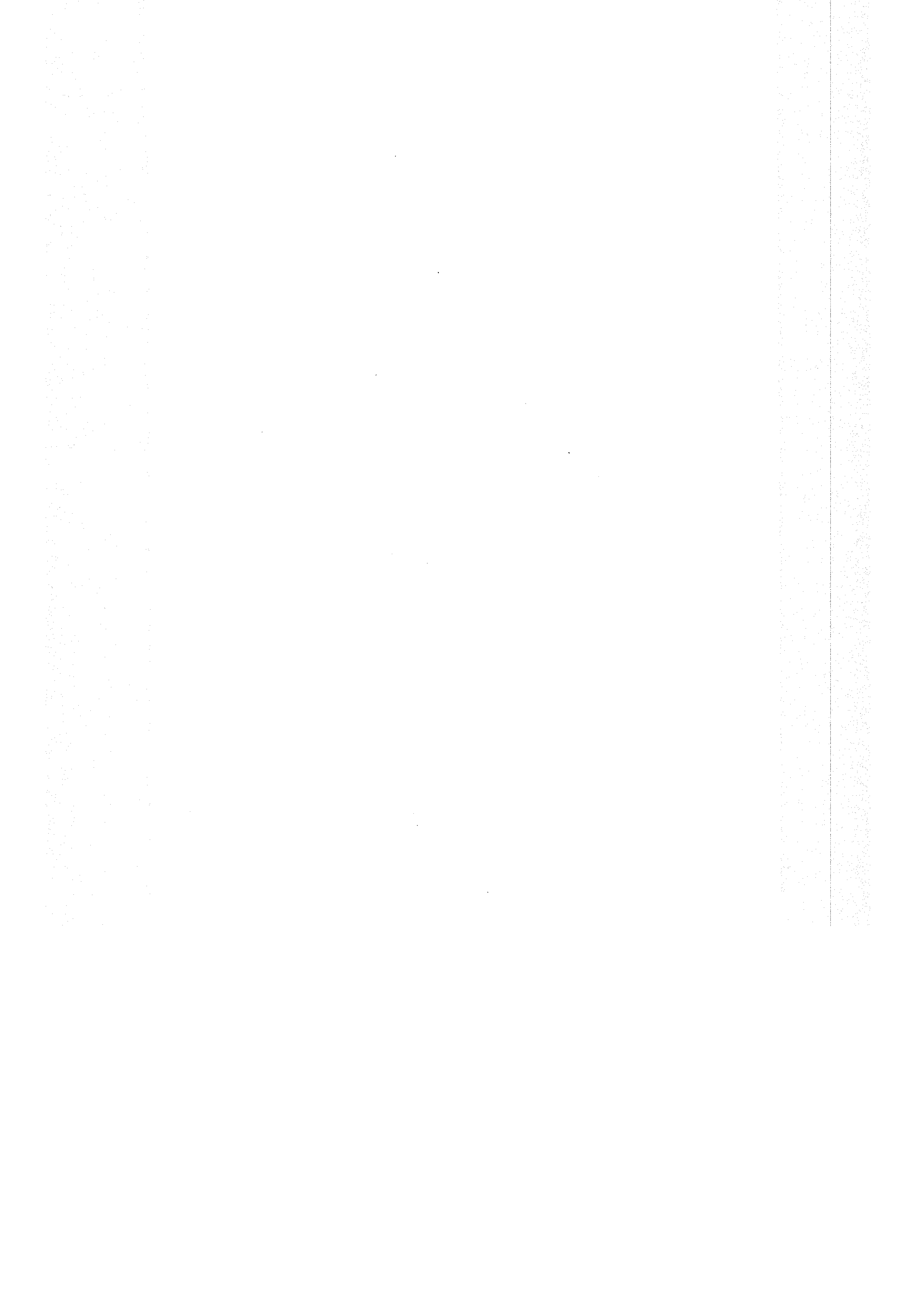
☆☆☆☆☆



الفصل التاسع

العداء العبرانى اليهودى لمصر

« صداه فى العهد القديم »



الفصل التاسع

العداء العبرانى اليهودى لمصر
« صداه فى العهد القديم »

« وحدث جوعٌ فى الأرض فانحدر إبرام « ابراهيم) إلى مصر . . وحدث لما قرب أن يدخل إلى مصر أنه قال لساراى (سارة) امرأته : إنى قد علمْتُ أنّك امرأة حَسَنَة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأتُهُ فيقتلونى ويستبقونك، قولى إنّك أختى ليكون لى خير بسببك » ١٠-١٣ ص١٢ تكوين .

● **عصا هارون تتحول إلى ثعبان .**

« وكلّم الربُّ موسى وهارون قائلا : إذا كلمكما فرعون قائلا هاتيا عجيبة، تقول لهارون : خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا، فدخل موسى وهارون إلى فرعون وفعلا هكذا . . . طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا، فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرّافو مصر أيضا بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصىّ ثعابين، ولكنّ عصا هارون ابتلعت عصيهم . فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما . . . » خروج إصحاح ٧ من ٨ إلى ١٣ .

● **تحويل ماء النيل إلى دم .**

« ثم قال الربّ لموسى : قلب فرعون غليظ قد أبى أن يطلق الشعب، اذهب إلى فرعون فى الصباح إنه يخرج إلى الماء، وقف للقائه على حافة النهر، والعصا التى تحوّلت حية تأخذها فى يدك، وتقول له : الربّ إله العبرانيين أرسلنى إليك قائلا : أطلِق شعبى ليعبدونى فى البرّيّة، وهوذا حتى

الآن لم تسمعْ. هكذا يقول الرب: بهذا تعرف أننى الربّ: ها أنا أضرب بالعصا التى فى يدى على الماء الذى فى النهر يتحوّل دما) ويموتُ السّمك الذى فى النهر، وينتن النهر فيعاف المصريون أن يشربوا من ماء النهر.. ففعل هكذا موسى وهارون كما أمر الربّ، رفع العصا وضرب الماء الذى فى النهر أمام عينى فرعون وأمام عيون عبيده، فتحوّل كل الماءالذى فى النهر دما، ومات السمك الذى فى النهر، وأنتنَ النهر، فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماءً من النهر، وكان الدّم فى كل أرض مصر.. وحفر جميع المصريين حوالى النهر لأجل ماء ليشربوا، لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر» ١٩-٢٤ ص٧ خروج.

● **ضربة الضفادع.**

« فقال الربُّ لموسى: قل لهارون: مُدّ يدك بعصاك على الأنهار والسواقى والآجام وأصْعِدْ الضفادع على أرض مصر» فمدّ هارون يده على مياه مصر، فصعدت الضفادع وغَطّتْ أرض مصر.. فدعا فرعون موسى وهارون وقال: «صلّيا إلى الرّب ليرفع الضفادع عنى وعن شعبى، فأُطلِق الشعب ليذبحوا للرب» فقال موسى لفرعون: «عين لى متى أصلّى لأجلك ولأجل عبيدك وشعبك لقطع الضفادع عنك وعن بيوتك ولكنها تبقى فى النهر». فقال: «غدا». فقال: «كقولك لكى تعرفَ أن ليس مثلُ الرب، ثم خرج موسى وهارون من لدن فرعون وصرخ موسى إلى الرب من أجل الضفادع.. ففعل الربّ كقول موسى، فماتت الضفادع من البيوت والدُّور والحقول وجمعوها كُوَماً كثيرة... فلما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج أغْلظَ قلبه، ولم يسمع لهما...» من ٥ إلى ١٣ إصحاح ٨ خروج.

● **ضربة البعوض.**

«ففعلا كذلك. مدّ هارون يده بعصاه وضرب تراب الأرض، فصار البعوض على الناس وعلى البهائم، كل تراب الأرض صار بعوضا فى جميع أرض مصر...» ١٦-١٩ ص٨ خروج.

● **ضربة الذبّان.**

« .. لكى تعلم أنى أنا الربّ فى الأرض، وأجعل فرقاً بين شعبى وشعبك، غداً تكون هذه الآية، ففعل الرب هكذا، فدخلت ذبّان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده، وفى كل أرض مصر خربت الأرض من الذُّبّان..» من ٢٠ إلى ٢٤ إصحاح ٨ خروج.

● **ضربة إهلاك الماشية.**

.. ثم قال الربّ لموسى: «ادخل إلى فرعون وقل له: هكذا يقول الربّ إله العبرانيين: أطلق شعبى ليعبدونى، فإن كنْتَ تأبى أن تطلقهم.. فها يد الرب تكون على مواشيك التى فى الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباءً ثقيلاً جدا، ويميّز الرّبّ بين مواشى إسرائيل ومواشى المصريين فلا يموت من كل ما لبنى إسرائيل شيئ».. فماتت جميع مواشى المصريين، أما مواشى بنى إسرائيل فلم يمت منها واحد.. ولكنْ غلظ قلب فرعون فلم يطلق الشعب» ١-٧ ص٩ خروج.

● **ضربة الدّمامل.**

« ... فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون، وذرّاه موسى نحو السماء، فصار دمامل بثور طالعة فى الناس وفى البهائم، ولم يستطع العرّافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل، لأن الدمامل كانت فى العرّافين، وفى كل

المصريين. ولكن شدّد الربُّ قلب فرعون فلم يسمع لهما كما كلّم الربُّ موسى» ٨-١٢ ص٩ خروج.

● **ضربة البَرَد والنّار.**

فأرسل فرعونُ ودعاموسى وهارون وقال لهما: «أخطأْتُ هذه المرّة، الربّ هو البار، وأنا وشعبى الأشرار، صليا إلى الربّ، وكفى حدوث رُعُود الله والبَرَد، فأطلقكم ولا تعودوا تلبثون». فقال له موسى: «عند خروجى من المدينة أبسط يدىّ إلى الربّ فتنقطع الرّعودُ ولا يكون البَرَدُ أيضا.. وأما أنت وعبيدك فأنا أعلم أنكم لم تخشوْا بعدُ من الربّ الإله. فالكتّان والشعير ضُربا، لأن الشعير كان مسبلا، والكتّان مُبْزرا، وأما الحنطة والقطانىُّ فلم تُضرب لأنها كانت متأخرة.. ولكنّ فرعون لما رأى أن المَطَرَ والبَرَدَ والرّعودَ انقطعت، عاد يُخطئ وغَلُظ قلبه هو وعبيده، فاشتد قلب فرعون فلم يطلق بنى إسرائيل، كما تكلّم الربّ عن يد موسى» ٢٧-٣٥ ص٩ خروج.

● **ضربة الجراد.**

«.. فصعد الجراد على كل أرض مصر، وحل فى جميع تخوم مصر، شىء ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك، وغطّى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض. وأكلَ جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذى تركه البَرَد حتى لم يبق شىءٌ أخضر فى الشّجر ولا فى عشب الأرض، فى كل أرض مصر.. فدعا فرعون موسى وهارون مسرعا وقال: «أخطأت إلى الربّ إلهكما وإليكما، والآن اصفحا عن خَطِيتّى.. فخرج موسى من لدن فرعون وصلّى إلى الرب، فردّ الربّ ريحا غربية شديدة جدا، فحملت الجراد وطرحته فى البحر، لم تبق جرادة واحدة فى كل تخوم

مـصـر. ولكنْ شـدّد الربّ قلبَ فـرعـون فلم يطلق بنى إسـرائيل» ١٤–٢٠ ص١٠ خروج.

● **ضربة الظلام.**

«ثم قـال الربّ لموسى: مُـدَّ يدك نحـو السـمـاء ليكون ظلام على أرض مصر، حتى يُلْمَسَ الظلام» فـمدّ موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام لم يبصرْ أحدٌ أخاه ولا قام أحدٌ من مكانه ثلاثة أيام. ولكنّ جمـيع بنى إسرائيل كان لهم نورٌ فى مساكنهم (؟؟!!) فدعا فرعون موسى وقال: اذهبوا اعبدوا الربّ غير أن غنمكم وبقركم تبقى.. ولكنْ شدّد الرّبُّ قلب فرعون فلم يشأ أن يطلقهم..» ٢١–٢٤ ص١٠ خروج.

● **ضربة موت الأبكار.**

«ثم قال الربّ لموسى: ضربة واحدة أيضا أجلب على فرعون وعلى مصر، بعد ذلك يطلقكم من هنا، وعندما يطلقكم يطردكم طرْداً من هنا بالتمام. تكلّم فى مسامع الشعب أن يطلب كلُّ رجلٍ من صاحبه، وكل امرأةٍ من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب» (؟!!) وأعطى الربُّ نعمة للشعب فى عيون المصريين، وأيضا الرجلُ موسى كان عظيما جدا فى أرض مصر.. وقال موسى: هكذا يقـول الرّبّ: إنى نحو نصف الليل أخرج فى وسط مـصـر، فيموتُ كل بكرٍ فى أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيّه، إلى بكرالجارية التى خلف الرَّحى وكل بكر بهيمة.. ولكنّ جميع بنى إسرائيل، لا يُسَنِنُ كلب لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم (؟؟؟!) لكى تعلموا أن الربّ يميّز بين المصريين وإسرائيل.. ولكن الرب شدّد قلب فرعون فلم يطلق بنى إسرائيل من أرضه» ١–١٠ ص١١ خروج.

● **نبوءة عن مصر .**

« وَحْيٌ من جهة مصر: هو ذا الربّ راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر . . ويذوبُ قلبُ مصر داخِلَها، وأُهَيّجُ مصريين على مصريين . . وتراق روحُ مصر داخلها وأُفنى مشورتها، فيسألون الأوثان والعازفين وأصحاب التوابع والعرافين، وأغلقُ على المصريين يد مولى قاسٍ فيتسلّط عليهم ملك عزيز (هكذا) يقول السيّد رب الجنود، وتُنَشّفُ الأنهار وتضعف وتجف سواقى مصر، ويتلف القَصَبُ والأسل والرياض على النيل حافة النيل، وكل مزرعة على النيل تَيْبَسُ وتتبدّد ولا تكون . والصيادون يئنون، وكل الذين يلقون شصّاً فى النيل ينوحون، وَيخْزَى كل الذين يعملون الكَتَّان الممشط، والذين يحيكون الأنسجة البيضاء . » ١--٩ ص١٩ إشعياء .

● **فرض ملوك مصر سلطانهم على العبرانيين .**

« قتل « نخُو » ملك مصر « يُوشِيا » . . وأخذ شعب الأرض « يِهو آحاز » بن يوشيا وملّكوه عوضاً عن أبيه . . وعزله ملك مصر عن أورشليم وغَرّمَ الأرض بمائة وزنة من الفضّة، وبوزنه من الذهب ومَلّكَ ملكُ مصرَ « ألياقيم » بدلا من « يهو آحاز » على يهوذا وأورشليم وغير اسمه إلى « يهُو ياقيم » . . » ١--٤ ص٣٦ أخبار الأيام ثان .

● **العبرانيون لا يحقدون على بابل الكلدانيين .**

أذلّت بابل اليهود وأسرتهم فى ديارهم، وبالرغم من هذا لا يحقدون على بابل حقدهم على مصر: « فلما رآهم « صدقيا » ملك يهوذا وكل رجال الحرب هربوا وخرجوا ليلاً من المدينة فى طريق جنّة الملك من الباب بين السورين وخرج هو فى طريق العربة، فسعى جيش الكلدانيين وراءهم

فأدركوا صدقيا فى عربات أريحا فأخذوه وأصعدوه إلى « نبوخذ نصر » ملك بابل فى « ربلة » فى أرض حماة فكلمه بالقضاء عليه، فقتل ملك بابل بنى صدقيا فى ربلة أمام عينيه، وقتل ملك بابل كل أشراف يهوذا، وأعمى عينَىْ صدقيا.. وأحرقوا أورشليم بالنار...» ٤ ص ٣٩ إرميا.

ونلحظ من هذا العرض:

١- حقد العبرانيين واليهود الممعن على مصر، ربما لأن مصر كانت تتركهم يدخلون أرضها ويأكلون من خيراتها أحيانا.. وأحيانا أخرى تتصدى لهم فى سيناء وتطردهم.. وأحيانا تستوعبهم وتستخدمهم عبيدا وأُجَرَاء.

٢- معظم قوّاد وأنبياء بنى إسرائيل لم يكونوا يرتاحون لدخول الشعب اليهودى إلى مصر، لأنهم إذا دخلوا فسوف يكتشفون أن ما يقوله أنبياؤهم صدى مباشر لأقوال الأنبياء (أو الكهان والحكماء) المصريين.

٣- لم يحقد العبرانيون على بابل بالرغم من أسرها لهم وعنفها فى إبادة اليهود وتعذيبهم.

٤- نلحظ أشياء تُنسب للأنبياء، وحتى للرب نفسه، ونرى فيها خروجاً عن المبادئ والأخلاق:

أ- إبراهيم يقول لسارّة إمرأته أن تدّعى أنّه أخوها حتى لا يقتله المصريون ويأخذوها منه.

ب- رب إسرائيل ينصح موسى واليهود أن يستعيروا من المصريين (قبل الخروج) أشياء ذات قيمة فيسلبونها من المصريين.

٥- الربّ خاص باليهود وهو رب الجنود ورب إسرائيل، وهذا يعنى الإيمان

بتعدد الآلهة، بل بالخرافة والتجسيم فى تصوّر الآلهة: (الربّ راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر).

٦- يستغل اليهود وأنبياؤهم بعض مظاهر الطبيعة ويجعلونها معجزات لله ولأنبيائهم:

أ- كثرة الضفادع فى مصر.

ب- كثرة البعوض فى مصر.

جـ- إهلاك الماشية (ربما دورات للحمّى القلاعية التى تصيب الحيوانات).

د- الدمامل (ربما انتشار الجرَبَ).

هـ أسراب الجراد.

و- كسوف الشمس (الظلام).

ز- موت الأطفال فى صورة وبائية (تيفوس. تيفود. الحصبة... الخ).

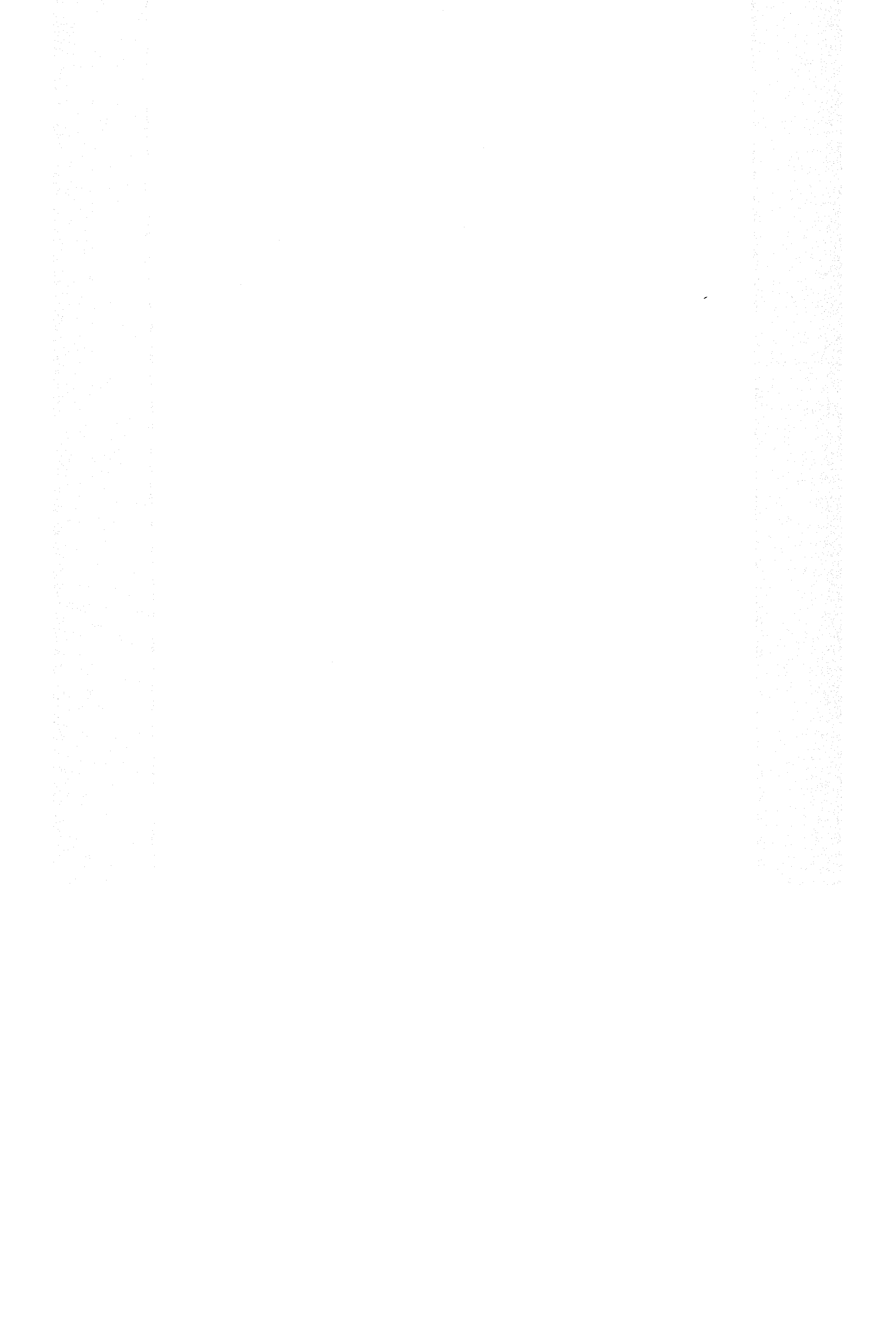
٧- لا يوجد أى صدى لما فى التوراة (العهد القديم) فى المتون المصرية.. لا معجزات أنبياء العبرانيين، ولا الضربات التى ضَرَبَها ربّ الجنود لمصر.. بل العكس هو الصحيح، فإن جميع دارسى الحضارات القديمة يؤكدون عمق التأثير المصرى فى العهد القديم.

☆☆☆☆☆



الفصل العاشر

التأثيرات المصرية فى الحضارات الشرقية وفى العهد القديم



التأثيرات المصرية فى الحضارات الشرقية وفى العهد القديم

(أ)

ربّ الجنود إله إسرائيل يدمّر الأمم لصالح بنى إسرائيل

١- يدمّر آشور.

« قد حلف رب الجنود قائلا : « إنه كما قَصَدْتُ يصير، وكما نويْتُ يثبت . أن أحطم آشور فى أرضى وأدوسه على جبالى فيزول عنهم نيره . . هذا هو القضاء المقضى به على كل الأرض وهذه هى اليد الممدودة على كل الأمم . فإن رب الجنود قد قضى . فمن يبطل؟ ويده هى الممدودة فمن يردّها؟ » ٢٤-٢٧ ص ١٤ إشعياء.

٢- يدمّر مؤاب.

« وَحْىٌ من جهة مؤاب . إنه فىَ ليلة (حل العار على) مؤاب وهلكت . إنه فى ليلة خَرِبَتْ قير مؤاب وهلكتْ . . يصعدون إلى المرتفعات للبكاء، تولول مؤاب على نبُو وعلى ميديا . . على سطوحها ومرتفعاتها يولولون . . وتصرخُ حشبون والعالة . . لذلك تصرخ مسلّحو مؤاب . . لأنهم فى طريق خُورُو نَايم يرفعون صراخ الإنسكار . . لأن مياه ديمُون تمتلئ دما لأنى أجعل على ديمون زوائد على الناجين من مؤاب . . وعلى بقية الأرض » ١-٩ ص١٥ إشعياء.

٣- يدمّر دمشق.

« وحْىٌ من جهة دمشق . هوذا دمشق تُزال من بين المدن وتكون رُجْمَةَ

ردم. مدن عَرُوعِير.. صارت للقطعان.. ويزول الحصن من أفرايم والمُلْكُ من دمشق وبقية آرام.. ويصير المجد لبنى إسرائيل. يقول رب الجنود» ١-٣ ص١٧ إشعياء.

٤- يدمّر مصر.

«وحيٌ من جهة مصر. هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر.. وأُغْلِق على المصريين في يد مولى قاسٍ يتسلط عليهم ملك عزيز. يقول السيّد رب الجنود» ١-٤ ص١٩ إشعياء.

٥- يدمّر بابل.

«لأنه هكذا قال لى السيد (رب الجنود إله إسرائيل): «اذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى» فرأى ركابًا أزواجاً فرسانا. ركاب حمير. ركاب جمال. فأصغى إصغاءً شديدا ثم صرخ كأسد: «أيها السيد أنا القائم على المرصد دائما في النهار. وأنا واقف على المحْرَس كلّ الليالى. وهوذا ركّاب من الرجال أزواج من الفرسان» فأجاب وقال: «سقطت سقطت بابل. وجميع تماثيل آلهتها المنحوته كسّرها إلى الأرض» يا دياستى وبنى بَيْدرى ما سمعتُه من رب الجنود إله إسرائيل أخبرتكم به» ٦-١٠ ص ٢١ إشعياء.

٦- يدمّر بلاد العرب.

«وحيٌ من جهة بلاد العرب: فى الوعر فى بلاد العرب متبيتين. يا قوافل الدّدانيين هاتوا ماءً لملاقاة العطشان. يا سكان أرض تيماء: وافُوا الهاربَ بِخُبْزِه. فإنهم من أمام السيوف قد هربوا.. ومن أمام القوس المشدودة... فإنه هكذا قال السيد (رب الجنود إله إسرائيل): «فى مدة سنة سنة الأجير يفنى كل مجد قيدار. وبقية عدد قِسِىّ بنى قيدار تقل. لأن الرب إله إسرائيل

تكلّم» ١٣-١٧ ص٢١ إشعياء.

٧- يدمّر صور وصيدون وكنعان والكلدانيين.

«وحيٌ من جهة صور: وَلْولي يا ترشيش.. اندهشوا يا سكان الساحل. تُجّار صيدون العابرون البحر ملأوك.. اخجلي يا صيدون.. عند وصول خبر صور اعْبُرُوا إلى ترشيش. وَلْوِلُوا يا سكان الساحل.. من قضى بكل هذا على صور؟.. رب الجنود قضى به ليدنّس كبرياء كل مَجْد ويُهين كلَّ مُوقَّرِي الأرض.. أمر الرب من جهة كنعان أن تُخَرَّب حصونُها.. هوذا أرض الكدانيين. هذا الشعب لم يكن. أسّسها أشور لأهل البرّيّة. قد أقاموا أبراجهم. دمّر قصورها جعلها ردما (رب الجنود إله إسرائيل).» ١-١٤ ص ٢٣ إشعياء

٨- يدمّر الأرض.

«هوذا الربّ يخلي الأرض ويفرغها ويقلّب وجهها ويبدّد سكانها. وكما يكون الشعب، هكذا الكاهن. كما العبد هكذا سيّده. كما الأمَةُ تكون سيّدتُها.. تفرغ الأرض إفراغا وتُنهب نهبا لأن الرب قد تكلّم بهذا القول» ١-٣ ص ٢٤ إشعياء.

٩- يدمر الأمم.

«اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا. أيها الشعوب أصغوا. لتسمع الأرض وملؤها. المسكونة وكل نتائجها. لأن الربَّ ـ سَخَطاً على كل الأمم، وحُمُوّاً على كل جيوشهم ـ قد حرّمهم دفعهم إلى الذبح. فقتلاهم تطرح. وجيفهم تصعد نتانتها. وتسيل الجبال بدمائهم.. للربّ سيفٌ قد امتلأ دماً.. لأن للربّ يوم انتقام. سنة جزاء من أجل دعوى صهيون» من ١-٨ ص٣٤ إشعياء.

١٠- رب الجنود يأمر أنبياءه بحرق المدن وإبادة الشعوب.

« حين تضرب مدينة لكى تحاربها، وقبل أن تحاربها، استدعها للصلح فإن أجابتك وفَتَحَتْ لك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويُسْتعبَد لك. وإن لم تُسالمك، بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الربّ إلهك إلى يدكِ فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما مدن هؤلاء الشعوب.. فلا تستبق منها نسمة بل حرّمها (تحرقها) تحريما: الحِثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين واليبوسيين... » ١٠-١٧ ص٢٠ تثنية.

١١- تحريم وحرق ونشر للناس بالمناشير والنوارج هكذا يأمر ربّ الجنود أنبياءه.

« وحرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف... » ٢١ ص٦ يشوع.

« وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان « عاى » بحد السيف حتى فَنَوْا بأطفالهم. أن جميع إسرائيل رجع إلى « عاى » وضربوا مدينتها بحد السيف » ٢٤ ص ٨ يشوع.

« يقول داود: « الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا » ص١٧ آية ٤٧ صموئيل أول.

« وضرب داود الأرض ولم يستبق رجلا ولا امرأة » ٩ ص ٢٧ صموئيل أول.

« وليتعظم اسمك إلى الأبد فيقال رب الجنود إله إسرائيل » ٢٦ ص٧ صموئيل ثان

« وأخذ داود تاج ملكهم عن رأسه.. وأخرج الشعب الذين بالمدينة ونشرهم بمناشير ونوارج حديد وفئوس » ٣ ص ٢٠ أخبار الأيام أول

١٢- يوشيا ملك يهوذا يحارب ملك مصر.

«صعد نخُو ملك مصر إلى كركميش ليحارب عند الفرات. فخرج يوشيا للقائه. فأرسل إليه رسلاً يقول: «مالى ومالك يا ملك يهوذا!! لستُ عليكَ أنت اليوم ولكن على أعدائى (على الفرات) ... فكُفّ عن الله الذى معى فلا يهلكك» ولم يحوّل يوشيا وجهه عنه بل تنكّر لقتاله ولم يسمع لكلام نخو. بل جاء ليحارب فى مجدّو. وأصاب الرماة (المصريون) الملك يوشيا. فقال الملك لعبيده: «انقلونى لأنى جُرِحْتُ جدا» فنقله عبيده.. إلى أورشليم فمات ودفن فى قبور آبائه.. وكان كل يهوذا وأورشليم ينوحون على يوشيا.. وأخذ شعب الأرض «يهو آحاز بن يوشيا» وملّكوه عليهم عوضا عن أبيه فى أورشليم.. فعزله ملك مصر فى أورشليم. وغرّم الأرض بمائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب وملّك ملك مصر ألياقيم (أخا يوشيا) على يهوذا وأورشليم وغيرّ اسمه إلى يهوياقيم. أما يوآحاز أخوه فأخذه نخو معه إلى مصر» آخر إصحاح ٣٥ وأول ٣٦ أخبار الأيام الثانى.

وتعقيبا على كل ذلك نقول: هذه هى الروح الإسرائيلية العبرانية العسكرية العنيفة ضد الشعوب الأخرى، والناشئة عن كثرة الحروب والهجرات وإبادة القبائل والمدن والاستيلاء عليها.. وكل نبىّ من أنبياء بنى إسرائيل ما هو إلا «إبونيم»[1] يقود جماعة من الجياع الساعين إلى استلاب أرزاق الآخرين.. وظلوا هكذا.. هم وربهم رب الجنود.. حتى بدأت التأثيرات الحضارية المصرية (وغير المصرية) تؤثر فيهم، فابتدأت أفكار أنبيائهم (حكمائهم) تتبنى قيما أخلاقية وإنسانية من الأنبياء المصريين.

(١) إبونَيم : Eponyme كلمة لاتينية وانجليزية تشير إلى قائد الجماعة التى تأتمر بأمره وتشعر بالقداسة تجاهه.. ولو اتحدتْ عدّة جماعات يُختار الأبونيم القادر على الإدارة والحرب وسحر الكلام ويصبح نبيّا.

(ب)

مصر والتأثير الأخلاقى فى العبرانيين

« تعلم موسى كل حكمة المصريين فكان مقتدراً فى الأقوال والأفعال » .. وظهر أنبياء أو حكماء مصريون يدعون إلى الخلق القويم والتسامح ويرفضون العدوان على الضعيف .. ظهر هؤلاء الأنبياء المصريون قبل موسى بحوالى ألفىّ عام، وهؤلاء ـ بالقطع ـ أثروا فى موسى النبى العبرانى الذى تربى فى مصر .. وكذلك أثروا فى الشعوب السامية والعبرانية المجاورة لهم.

انتقل العبرانيون من حياة الرعى والبداوة إلى حياة زراعية حينما احتلّوا مناطق من أطراف غرب العراق وجنوب سوريا وفلسطين واتصلوا بالفينيقيين فى غرب سوريا .. وحينما كتب الأنبياء العبرانيون الوصايا العشر، كانوا ـ بالفعل ـ يعيشون حياة زراعية مستقرة (أو معظمهم)، وظهرت مفاهيم الملكية الزراعية والتجارة بين المدن (وبخاصة المدن الساحلية والداخلية) وهكذا ظهرت طبقة من الأثرياء (فى الزراعة والتجارة) لهم عبيد وأقنان وجوارى .. وبدأ الإحساس بالفوارق بين الطبقات، يحرّك مفاهيم العدل الاجتماعى .. كذلك نمت العلاقات التجارية على مستوى الوكالات، ويؤدى هذا أيضا للتفاوت الاجتماعى ويحرك مفاهيم العدالة .. وثابت فى التاريخ أن سليمان بن داود اشترك فى معاملات تجارية مع هيرام (حيرم) ملك صور .. وكان سليمان يتاجر فى الخيول ويشترى سلالاتها المحسّنة من مصر ويبيعها فى الشام وفلسطين، وَوُجِدَتْ أطلال لحظائر سليمان بمدينة « مجدّو » الواقعة فوق هضبة الكرمل.

ورويدا رويدا بدأ العبرانيون يتخلصون من وحشيتهم وقسوتهم وبداوتهم وشعائرهم وطقوسهم وأضحياتهم التى كانت تُحرق حيّة بلا رحمة، وتقديمهم للأعداء على مذابح السيّد رب الجنود إله إسرائيل.

وواضح من هذا العرض، تأثّر العبرانيين، بعد استقرارهم، بأقوال الأنبياء المصريين، من مثل قول ملك أهناسيا لابنه «مَريكا رَعْ»: «إن أخلاق الرجل ذى الضمير تفوق كثيرا ثور وأضحية الرجل الظالم». ويبدو كما يقول برستد[1]: «أن هذه الحِكَم الصادرة من الأنبياء المصريين، عرفَتْ طريقها إلى فلسطين، فظهرت فى كتابات الأنبياء العبرانيين بلغةٍ أقرب إلى المتن المصرى: «إن الطاعة أفضل من الأضاحى، والإصغاء أفضل من الكبش السمين.».. جاء فى سفر الأمثال: «فعل الحق والعدل أفضل عند الربّ من الذبيحة».

وجاء فى سفر الأمثال أيضا: «والرب (يهوه) وازن القلوب» وحكاية أن الله «يزن القلوب» مسألة مصرية خالصة موجودة فى محكمة أوزيريس.. كذلك فإن المصريين هم الذين علّموا العبرانيين (وكل المنطقة السامية) أن الطقوس والمراسم الدينية لا قيمة لها، بل القيمة ـ كل القيمة ـ بأن يتميّز الإنسان بقوة الأخلاق ويقظة الضمير.

ولعل ظهور قصة يوسف فى ذلك الوقت المتأخر، وبعد التأثر بالأنبياء والأدباء المصريين، تُظهِرُ لنا الاتجاه الأخلاقى الجديد عند العبرانيين، ويرى برستد[2] أن قصة يوسف فى العهد القديم: «مأخوذة عن قصة أخلاقية مصرية كُشِف عنها حديثا، وكانت قد انتشرت فى فلسطين الكنعانية، حيث سمع بها ذلك الكاتب الموهوب الذى ألّف قصة يوسف».

(١)،(٢) جيمس هنرى برستد «فجر الضمير - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩.

والقصة المصرية القديمة، التى كُشِف عنها حديثا، تعرف «بقصة الأخوين» «أنوبيس وباتا» (ويمثلان إلهين قديمين قبل عصر أوزيريس).. وصورتهما القصة فى صورة أخوين.. كان أنوبيس الأكبر، وكان باتا الأصغر يعيش مع أخيه وزوجة أخيه، وراودته زوجة أخيه عن نفسه، فانقلب باتا غاضبا، كأنّه فهد من فهود الوجه القبلى.. وخافت الزوجة من افتضاح أمرها... وقال لها باتا: إنّكِ بمنزلة الأم، وأخى أنوبيس بمنزلة الأب... لا تعيدى موقفكِ مرّة أخرى، ولن أنبس ببنت شفة عن هذا الذى فعلتيه.. إلا أنّ زوجة أنوبيس، خدعت زوجها، وزوّرت حكاية معكوسة ضد باتا.. وتربص أنوبيس لقتل أخيه وحين اقترب باتا من البيت حذّرته البقرتان من أنّ أنوبيس متربّص به،فهرب باتا.. ويقول برستد: «إن هذه القصة ذات الجذور المصرية، ظهرت أولاً فى العهد القديم، ثم ظهرتْ بعد ذلك بأكثر من ١٤٠٠ سنة فى القرآن». وللقصة المصرية روايات مختلفة لأنبياء مصريين.

إنّ ظهور قصة يوسف فى العهد القديم، إعلان عن التحوّل الأخلاقى العبرانى من «السيد رب الجنود إله إسرائيل» الذى يدعو إلى القتل والعنف وحرق الأعداء وذبح أطفالهم وتدمير بيوتهم، إلى «ربّ» عصرى إنسانى النزعة، ويؤكد ذلك ما قاله أحد أنبياء العبرانيين: «إليكم يا من تخافون اسمى. تشرق شمس العدالة بالشفاء فى أجنحتها» [سفر ملاخى إصحاح ٤].

إن قصة الفلاح الفصيح المصرية، لابد وأن تكون من صياغة نبىّ مصرى قديم، يدعو من خلالها إلى «الماعِت» أو العدالة، وإلى ضرورة أن يلتزم الحكّام، ممثلو فرعون، مبادئ العدل والمساواة بين الجميع.

كذلك فإن أقوال النبيّيْن المصريّيْن: «إيبور» و «نِفَرْ رُوهُو» كانت شائعة

فى منطقة الشرق الأدنى السامى، وبالتالى فقد تسربت أقوال هؤلاء الأنبياء المصريين إلى العبرانيين، وظهرت آثارها فى العهد القديم.

ويؤكد هذا التأثير المصرى، اكتشاف مقابر فينيقية قديمة، قرب مَجدّو، أُستخدمَتْ فيها التوابيت الحجرية المصرية، كما وُجد بداخل تلك التوابيت كنوز مصرية، من تلك التى تعوّد المصريون وضعها داخل التوابيت كالأوانى الكانوبيّة[1] المصرية والحلىّ وتماثيل الشوباشى[2] والجعارين المصرية.

إن الطموح الإنسانى والحلم بحكام يبسطون جناح العدل فى مجتمعاتهم، وليد فكر الأنبياء المصريين الذين رفضوا مقولة: «أن القوّة هى الحق» وآمنوا بالعدل الإنسانى... إن الحضارة المصرية بأنبيائها وأحلامها سبقت كلّ الحضارات الإنسانية.. إن هذه الأحلام المصرية وما يرتبط بها من تشريعات ما هى إلا البناء العلوى للحضارة.. ولم يدّع الأنبياء المصريون أنها هبطت لهم من السماء، صحيح أنهم ـ أحيانا ـ يعتبرون «ماعت» هى ابنة لرع إلا أنّ هذا كان بمثابة إشارة رمزية للحق والعدل.. أما أنبياء العبرانية والسامية فقد ادعوْا أنّ مبادأهم وشرائعهم أرسلت إليهم من السماء، من الرب، سواء بالاتصال المباشر به، أو عن طريق وسيط الوحى جبريل أو جبرائيل. (وفى الجبتانا عن مانيتون السمنّودى أن «جابار» كان يحمل الرسائل من تحوت «رب الحكمة» إلى الكهنة وبخاصة الكاهن الأعظم

(١) الأوانى الكانوبية المصرية، أوانٍ فخارية تصنع فى مدينة كانوب المصرية، وهى لحفظ الأعضاء الإنسانية كالقلب والكبد....

(٢) تماثيل الشوباشى (شوباتش) تعنى فى المصرية: المردّدين، الذين يطلبون من رع أن يدخل الفقيد فسيح جناته، وهى بحجم الإبهام.. وكل قريب للمتوفى المحنط عليه أن يضع عددا منها مع الجثة.

المسئول عن المعبد) . . ويقول مايَر : « إن الأنبياء العبرانيين كانوا يقفون على أكتاف الأنبياء المصريين » .

وكان بعض المؤرخين يتصورون أن الأمثال والقصص العبرانية، ربّما تأثرّوا فيها بالخرافات الهنديّة . . ولكن المؤرخ والآثارى العظيم « ماسبيرو » المسئول عن دار الآثار المصرية، وجد منذ أواخر القرن التاسع عشر أقدم خرافة من تلك الخرافات على لوح كتابة مصرى، من تلك الألواح التى كان الأطفال والشماسة يتعلمون عليها القراءة والكتابة . . وهذا اللوح معروض الآن فى متحف تورينو .

ونؤكد مرّة ثانية على أنّ الأنبياء العبرانيين سلبوا الكثير من الأنبياء المصريين، ونعود لنستخدم مقارنات جيمس هنرى برستد[٢] بين المتون المصرية وبين بعض أسفار العهد القديم مثل : الأمثال . المزامير . سفر الجامعة . ونشيد الإنشاد : يقول النبىّ المصرى أمين موبى : « الرجل الأحمق الذى يخدم فى المعبد كمثل شجرة نَمَتْ فى غابة ثم فَقَدَتْ فروعها وأوراقها ونهايتها فى متجر الخشب . . والرجل الحازم فإنه مثل شجرة نَمَتْ فى حديقة تزدهر ويتضاعف ثمرها وثمارها حلوة وظلها ظليل » . . . ويقول النبى العبرانى « أرميا » : « ملعون ذلك الرجل الذى يعتمد على الآخر ويجعل البشر ذراعه . . ومبارك ذلك الرجل الذى يتكل على الرب « يهوه » فإنه يكون كشجرة مغروسة على مياه نهر يَمدُّ أصولها ولا تخشى إذا جاء الحرّ وورقها

(١) النقل عن الأنبياء المصريين وعن الشرائع المصرية وتأثيرها فى العهد القديم قد أثبته الفيلسوف والمؤرخ الألمانى «إدورد مايَر فى كتابه عن تأثير أنبياء مصر فى أنبياء السامية.

(٢) جيمس هنرى برستد فجر الضمير.

أخضر ولا تتوقف عن أن تعطى ثمرها » (أرميا ص ١٧ ٥-٨) .

« ... لذلك لا تقوم الأشرار فى الحساب ولا الخطاة فى جماعة الأبرار » المزامير تعليقاً على هذه الآية من العهد القديم، يرى جيمس هنرى أن « الحساب » لم يرد إلاّ هذه المرّة الوحيدة فى المزامير.. وبدهىٌّ أن فكرة « الحساب » فى عالم آخر هى فكرة من ثمرات العقل المصرى القديم.

ويقول النبىّ المصرى أمين موبى : « أمل أذنك لتسمع أقوالى ووطّن قلبك على فهمها، حيث إنه من المفيد أن تحتفظ بها فى صدرك » ويقول سفر الأمثال العبرانى : « أمل أذنك لتسمع كلام الحكماء، ووطن قلبك على فهمى. أمر طيب إن حَفظت كلام الحكماء فى صدرك » سفر الأمثال ص ٢٢ ١٧-١٨ ... ويقول أمين موبى : « لا تزحزحن حدود الحَقْل.. ولا تكوننّ شرها من أجل ذراع أرض، ولا تتعدّيَنّ على حدود أرملة ».

ويقول سفر الأمثال العبرانى : « لا تنقل التُّخَم القديم ولا تدخل حقول الأيتام » أمثال ص٢٣ ١٠ .

يقول أمين موبى : « الفقر وأنت مع الله خير من الثروة التى فى المخازن. وأرغفة تحصل عليها بنفس مطمئنة خيرٌ من ثروة تحصل عليها مصحوبة بالتعاسة ». ويقول سفر الأمثال العبرانى : « لقمة يابسة ومعها سلامة خيرٌ من بيتٍ ملآن ذبائح مع خصام ». سفر الأمثال ص١٧ .

إن الأناشيد الدينية المصرية التى كتبها هؤلاء الأنبياء الأوائل، كانت منتشرة فى كل المنطقة السامية.. وهكذا فجميع الأنبياء العبرانيين والفينيقيين والكلدانيين، كانوا لا يتَغنّوْن بأناشيد خاصة بهم، بل بأناشيد مصرية.

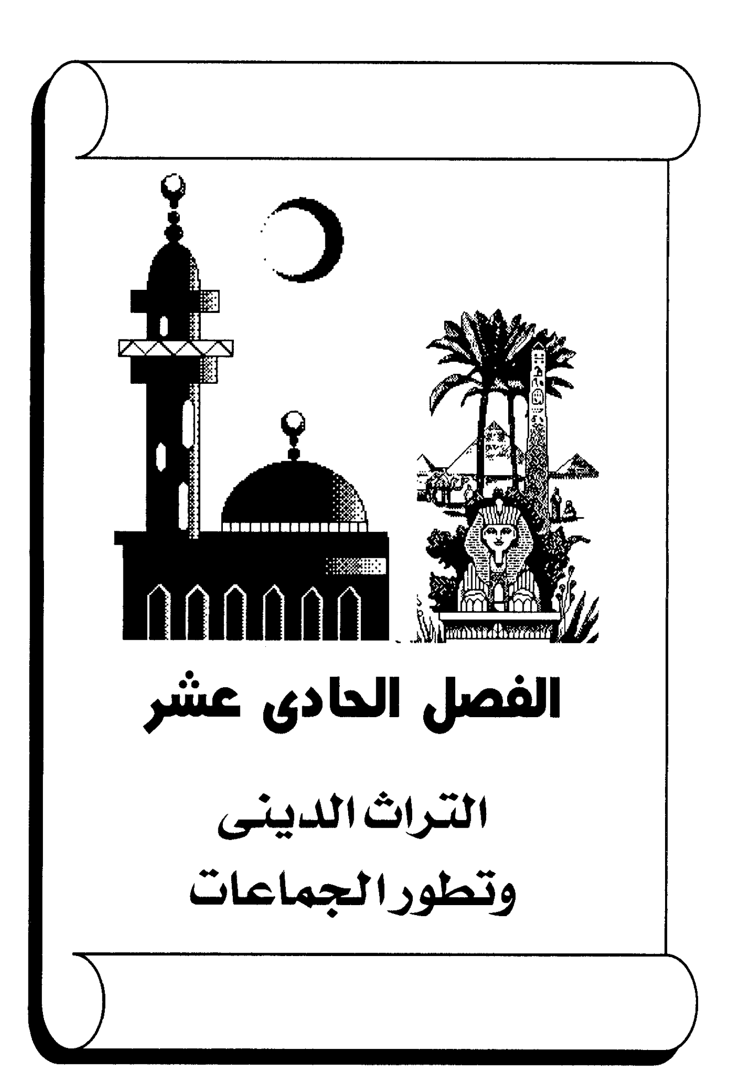
وإذا كانت أناشيد النبى « أخناتون » المصرى قد تغنّت بالإله الواحد (كنتاج للأمة الواحدة والملك الواحد) ممثلا فى آتون (مثلما كانت وحدة مصر فى عهد الدولة القديمة متمثلة فى رع) . . فإن العبرانيين قد غيروا نظرتهم إلى « يهوه » باعتباره ربّا توتميّا[1] خاصا بهم، وصار « يهوه » ـ بالتأثير المصرى ـ إلها مسيطراً عى كل الشعوب والأمم والملوك .

إن « مجدّو » أو « أرماجدّون » كان يمكن رؤيتها من « الناصرة » حيث وُجد النبىّ الأخلاقى العظيم « يسوع » . . إن « أرماجدون » دارت حولها أشرس المعارك والمذابح باسم « رب الجنود إله إسرائيل » الداعى لإبادة المدن بنسائها وأطفالها، وكان يدعو إلى ذلك باسمه أنبياء القسوة والعنف الإسرائيليون أمثال إيليا وسليمان وداود . . ولكن الحضارة المصرية بسموّها الأخلاقى أزاحت هؤلاء، ومهدت لمجئ يسوع الناصرى وربّه الرحيم، الذى يرى المحبة والتسامح غاية كلّ إنسان .

☆☆☆☆☆

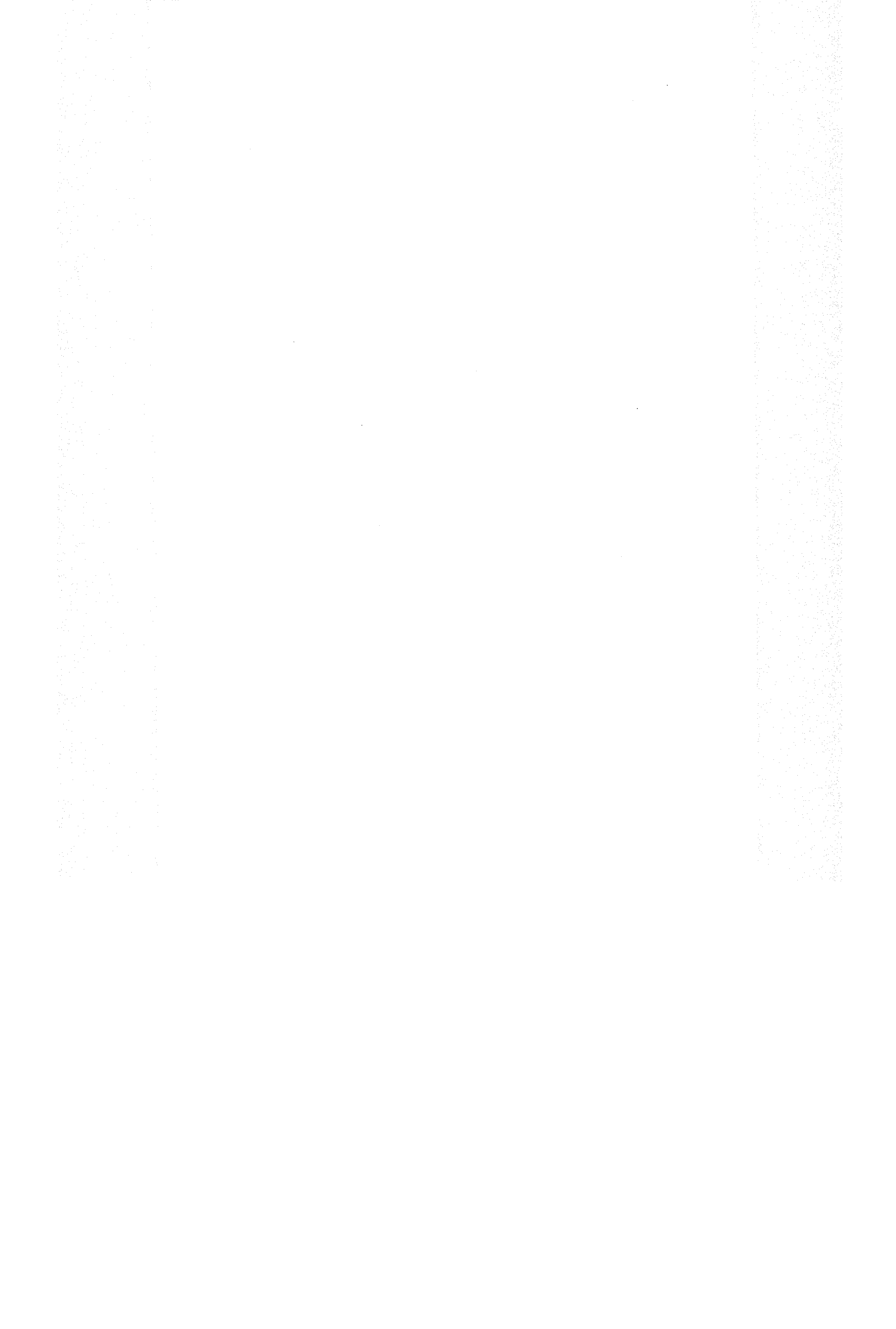
---

(١) توتم رمز للقبيلة فى العصور القديمة (كالعَلم فى العصر الحديث) وكان لكل جماعة عبرانية «توتم» أو إبونيم Eponym .



الفصل الحادى عشر

التراث الدينى وتطور الجماعات



التراث الدينى وتطور الجماعات

(أ)

الدين وسيلة لتمييز الجماعات الإنسانية

المقصود بالتراث الدينى، كافة المتون الدينية الأصلية التى رواها الحكماء والأنبياء، وهى «السُّورْتا»[1] فى اللغة المصرية القديمة.. ويضاف إلى تلك المتون والسورتات أقوال الشرّاح والمفسرين، وقصص وأحلام وأوهام وأكاذيب المنتفعين بالأديان.

وهناك مصدران كبيران للتراث الدينى فى العالم القديم: المنبع الهندى المسئول عن كافّة تلوينات الدين فى جنوب شرق آسيا (بما فى ذلك اليابان والفلبين) من بوذية وكونفشيوسية وزرادشتية.. والمنبع المصرى المسئول عن أديان السامية فى غرب آسيا والشرق الأوسط (وانتشار أديان السامية الثلاثة فى أوربا وأمريكا والعالم).

والأصل فى الأديان أنها الوسيلة التى لجأ إليها الإنسان الحديث (ما بعد إنسان نياندرتال) لاكتساب التماهى (التشابه بين أفراد جماعة معينة) والتمايز عن الجماعات الأخرى.. واتساقاً مع هذا الدور الرئيسى للدين، نذكّر القارئ بأنّ كثير من كهنة القبائل الإفريقية قريباً من خط االستواء كانوا مسئولين عن تشريط وجوه أفراد مجتمعاتهم أو تخطيطها بخطوط خاصة تميّز أفراد الجماعة عن الجماعات الأخرى، وهذا لا يمنع من أن الدين أجاب

عن تساؤلات البشر، كما أنه يسّر عليهم تقبل الموت بالأمل فى رجاء القيامة والبعث ودخول الجنة.. خصوصا لدى المكدودين والفقراء الذين ساندهم المسيح بقوله: «إن دخول الأغنياء إلى مملكة السماء أصعب من مرور الجمل من سمِّ الخِياط (ثقب الإبرة).

والدين ـ بإكسابه الإنسانَ التمايزَ والتماهى ـ لا يختلف عن الرائحة الخاصة التى تميِّز جماعات الحشرات الاجتماعية كالنمل والنحل، كما أشار إلى ذلك العالم الأمريكى الإفريقى جورج واشنطن كارفر[٢].

☆☆☆☆☆

---

(١) سُورتا: كلمة مصرية قديمة تعنى النصّ المستخدم فى القداس وانتقلت للساميات فى أشكال منها: سورة من سور القرآن. سِفْر العربية وسيفر العبرانية بمعنى كتاب. صوارا الآرامية والسريانية..

٢- چورج واشنطن كارڤر: عالم حيوان (حشرات) أمريكى من أصول إفريقية، فضلا عن عمقه وتأملاته فى الحيوان والحشرات.

(ب)

أعباء التراث الدينى على تطوّر الجماعات

تختلف أعباء التراث الدينى على تطوّر الجماعات:

■ لإحكام سيطرة المؤسسة الاجتماعية الدينية فى الهند القديمة على أفرادها، ابتكر الفقهاء الهنود، ذلك التقسيم الحاد بين طبقات المجتمع الهندى القديم، وأثبتوا ـ فى تراثهم الدينى ـ: «أن الكهنة وفقهاء الدين ومفسروه والحكّام خرجوا من رأس الله «براهما» والكاشاتْرِيا (الجنود) خرجوا من منكبىّ براهما، والڤيسيا (العاملون باليد) خرجوا من رجلىْ براهما، والسُّودْرا (العبيد) خرجوا من أقدام براهما.

والهندى الصالح عليه أن يرضى بالطبقة التى وُلد فيها، وإن أراد الصعود فَلْيعَمَلْ المزيد من الخير فى دورته الحياتية الحاليّة، فيرقى فى دورته التالية.. وفى النهاية يموت فيندمج تماما مع براهما، فيما يُعرف بالنَّرْڤانا، أى الحلول فى الله.

كذلك فسّر الكهنة الهنود الأمور الطبيعية تفسيرات ميثولوجية: «...سمع سائقنا الهندى ديكا يصيح عند الفجر، فوجّه إلينا السؤال: لماذا يصيح الديك عند الفجر؟ فأجبنا: هذه مسألة تعود لأسباب طبيعية كإحساس الطائر بالضوء، أو حركة الطيور الأخرى أو ماشابه ذلك. فابتسم السائق مزهوّا بتراثه الدينى الذى يفسر كل صغيرة وكبيرة. وقال: «كان الديك قديما ذا ذيل جميل كمروحة الربّة «تارا».. وكان الطاووس ذا ذيل

قصير، فاستعار الطاووس ذيل الديك الذى يشبه مروحة الربّة « تارا » . . واتفقا على أن يعيد الطاووس للديك ذيله عند الفجر (بعد أن يكون الطاووس قد حضر عُرْس طاووس وطاووسة) . . ولكنّ الطاووس لم يُعِد ذيل الديك الذى يشبه مروحة الربّة تارا . . وظلّت الديكة - حتى الآن - تصيح عند الفجر عسى أن تعيد إليها الطواويس ذيولها التى تشبه مروحة الربّة « تارا »!!!

ومع هذا، فليس للتراث الدينى الهندى أى عبء على تطور وتقدّم الجماعات الهنديّة، ذلك لأن « براهما » يقول صراحة : « دعونى فى سمائى واهتموّا بشئونكم . . . والخير كل الخير فى إتقان الزراعات والحرف من أجل أبناء براهما . . . » .

■ فصل المسيح - بتأثره بالفكر اليونانى الرومانى - بين الدين والدولة بكلمته الخالدة : « دَعْ ما لقيصر لقيصر، وما لله لله » وبالرغم من ذلك » فإن المؤسسة الدينية المسيحيّة القاهرة سيطرت بقسوة على أتباعها فى العصور الوسطى، حتى صارت المسيحية عبئاً على تطوّر الجماعات المسيحية :

١- أدخلَتْ الكنيسة بعضَ الناس الجنةَ، وحرمَتْ آخرين منها، وفقا لصكوك الغفران . . . مع أن المسيح استسلم للصلب - فى العقيدة المسيحية - تكفيرا عن الخطيئة الأولى، وعن خطايا من يأتون بعده .

٢- حينما أكدّ المشرّح هارڤى أن فى القلب أذينين وبطينين . . وكان أرسطو يقول : إن فى القلب وعائين أحدهما للدم الصالح (الأحمر) والآخر للدم الفاسد (الأزرق) . . ولما كانت الكنيسة مسئولة عن أفكار أرسطو . . سمح أحدُ آباء الكنيسة الكاثوليكية لنفسه أن يقول : « إذا كان ما رآه هارڤى حقاً . . وإنّ ما يقوله أرسطو حق هو الآخر . . إذن فقد

حدث تغيّر للطبيعة البشرية بعد أرسطو .!!؟؟» .

٣- كذلك أوشك رجال الدين أن يقتلوا جاليليو لأفكاره المخالفة للتراث الديني (والمتفقة مع العلم) .

٤- كذلك ابتدع رجال الدين «الحرمان من الكنيسة» والذى تحرمه الكنيسة لا يتزوج، ولا يدفن حين يموت، بل يترك حتى يتعفّن، ولا يجرؤ أهله على دفنه .. (هناك قصيدة للشاعر الفرنسى الكبير «بُودْلِيِرْ» بعنوان «وصف جيفة على نهر السين» تصف ذلك الأمر .

٥- حرّمت الكنيسة الكاثوليكية أفكار ابن رشد التى انتشرت فى أوربا (خارجة من مهدها فى الأندلس) واعُتبرُ كل من يقرأ ابن رشد «رشدّيا» أى ملحدا (واعتبر الأوربيون المعاصرون ابنَ رشد أحدَ المؤثرين فى النهضة الأوربية وتخطى عقبة العصور الوسطى المسيحية) .

وتهاوَتْ رجعية العصور الوسطى، ورفضت الجماعات (والجامعات) الأوربية أعباء التراث المسيحى .. وأضاءت أوربا أنوارٌ جديدة، كان من أعلامها ـ كما قلنا ـ ابن رشد العربى المسلم . «وابن رشد هو الأستاذ المباشر لعميد التنوير فى الفكر المسيحى، وهو الأب توماس الإكوينى، وثابتٌ عند (رينان وغيره من مؤرخى الحضارات) أن الأب توماس كان من جماعة الدّومينيكان، وكان صديقا للأب «ريموند مارْتان»، وأن الكنيسة التى كان هؤلاء يتبعونها هى كنيسة «توليدو» (طليطلة العربية)، التى أرسلت بهم إلى المغرب لدراسة اللغة العربية وعلم الكلام والثقافة الإسلامية وآراء ابن رشد .



(جـ)

عبء التراث الإسلامى على تطور المسلمين

ويظهر الإسلام، وهو الدعوة الساميّة الأخيرة، ويسود منطقة الشرق الأدنى وينتشر فى العالم (أكبر أعداد أتباع الأديان هم : البوذيون . الكونفشيوسيون . المسيحيون . المسلمون) وتخضع المجتمعات الإسلامية والعربية لأعباء التراث الإسلامى . . ويسود فكر إسلامى أحادى النزعة يميل إلى رفض الآخر، بما فى ذلك « الآخر الإسلامى » الذى يميل إلى العقل والتأمل والفلسفة :

١- حاول **الخوارج** تقديم رؤاهم الخاصة، وهى أفكار عميقة تميل إلى الحكمة والعقل : فيرى عبد الله بن أباض التميمى أن الله لا يمكن أن يُرَى لأنّه يندّ عن المكان والزمان، وفسر « إلى ربّها ناظرة » بمعنى أنها منتظرة لحكم ربها . . ورفض الإسلام السنّى السلفى ذلك . . ولم يبق من الخوارج إلا الإباضية فى عمان وتونس وبعض مناطق شمال إفريقيا . . ولفظ « الخوارج » ليس بمعنى الخروج عن الدين (كما يحاول أن يوهم بذلك بعض أهل السنة) ولكن « الخوارج » نسبة إلى الآية الكريمة : ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [النساء: ١٠٠].

٢- حاول **إخوان الصفا** - من خلال رسائلهم - الحد من عبء الفهم السطحى للمتون الإسلامية (الكتاب والسنة) ومالوا إلى تفسير التراث

الإسلامى تفسيرا عقليا فلسفيا. (نشأت جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا فى البصرة فى العراق حوالى سنة ٩٠٠ ميلادية) إلا أن التيار السلفى السنّى حَرَم المجتمعات الإسلامية من هؤلاء (البروتستانت المسلمين) كما كان يشبههم الدكتور عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر وهو حاصل على الدكتوراه من السوربون) فى بعض محاضراته فى دار العلوم.

٣- وفى وقت مقارب لظهور الخوارج والإباضية وإخوان الصفا، ظهر **المعتزلة**، وحاولوا الخروج من أسر التيّار السلفى العام، ومالوا إلى التفسير العقلى العميق للنصوص، ولو استجابت المجتمعات الإسلامية لفكر المعتزلة، لكان لتطور المسلمين شأن آخر.. آمن المعتزلة بحرية الإرادة الإنسانية، وبمسئولية الإنسان عما يفعل، وأمّا «إرادة الله» فقد فسروها بسابق علم الله لأفعال العباد، ولهذا أطلق عليهم «أهل العدل والتوحيد» لأن سبق علم الله، لا ينفى مسئولية الإنسان عما يفعل، كذلك لم يرتاحوا إلى تصنيف مركز المسلم: إما أنه مؤمن أو كافر، ورأوْا أن مرتكب الكبيرة فى «منزلة بين المنزلتين» فهو متروك لحكم الله.. ولم يسمح التيار السلفى العام باستمرار المعتزلة، خصوصا وأن الدول الإسلامية ـ عموما ـ دول تعتمد على فقهاء التيار السلفى، فضلا عن أنها فى مجملها (كما يقول رينان): «دول استبدادية شرقية تميل إلى استخدام الأعوان والمنافقين والأفاقين، ولا تميل لأصحاب العقول الراجحة والضمائر الحية».

٤- ونلحظ استبداد التيار السلفى العام، وتحوّله إلى عبء على تطوّر الجماعات الإسلامية من خلال هذه الاقتباسات من أقوال بعض أقطاب الاتجاه السلفى:

● قال ابن تيمية (وهو حنبلي) :« . . .لابد وأن الله سيعاقب المأمون العباسي (المسئول عن ترجمة الفكر اليوناني والروماني إلى العربية) لما أدخله على هذه الأمة . . . » .

● قال أبو يوسف (وهو من تلاميذ أبي حنيفة) : « من طلب الدين بعلم الكلام (الفلسفة) تزندق » .

● ينسب للإمام الشافعي قوله : « لأن يبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه، خيرٌ له من علم الكلام (الفلسفة) » .

● يقول ابن حنبل « لا فرق بين الزنديق والقارئ لعلم الكلام » .

٥- ترتب على سيادة التيار السلفي العام حرمان الجماعات الإسلامية من أية أفكار تجديدية :

توفي الطبري المؤرخ سنة ثلاثمائة وعشرة للهجرة، ودفن ليلا بداره، لأن العوام منعت من دفنه نهارا في مقابر المسلمين، وادعوا عليه الرفض (شيعي) وبعضهم ادعى عليه الإلحاد . . قال صديقهُ علي بن عيسى الإباضي : « والله لو سُئِل هؤلاء عن معنى الرفض أو الإلحاد لما عرفوه » (روى ذلك ابن الأثير في تاريخه) .

٦- روى ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٣ هجرية :« وفيه عظم أمر الحنابلة، وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون الدور : دور القوّاد والقضاة والعامة، فإن وجدوا نبيذا أراقوه أو أخذوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها، وهاجموا الأسواق، ومنعوا مشي الرجال مع النساء . . . وكانوا إذا مرّ بهم شخص يعلمون أنّه شافعيّ أغروْا به الصبيان » .

٧- حكى القفطي في « تاريخ الحكماء » عن حرق كتب عبد السلام الجيلاني في « الرحبة » ببغداد، وذلك لأنه كان يقرأ كتب الحكمة . . ووُجِدَتْ في

كتبه نسخة من كتاب « الهيئة » للحسن بن الهيثم، فاستعاذ الحَفَظَة (رجال الأمن) بالله من الشيطان الرجيم، وأحرقوا الكتاب، وسُجن الجيلانى مدة طويلة.. ونقل الأوربيون كتاب الحسن بن الهيثم « الهيئة » وهو فى الرياضيات المتقدمة والفَلَك، كما نقلوا كتاب « الجبر » للخوارزمى.. وكان الكتابان أساسيْن هاميّن لتطور الفكر الرياضى فى أوربا فى العصر الحديث. (ولا تزال « خوارزمية » تعنى مسألة رياضية، فى اللغة اللاتينية، ولا يزال علم « الجبر » باسمه العربى فى اللاتينية وما تفرّع عنها من لغات).

٨- أُحْرِقَتْ كتب كثيرة فى الأندلس والمغرب العربى، ومنها الكتب الأولى لأبى حامد الغزالى، قبل أن يقهره الخط السلفى العام ويكتب « تهافت الفلاسفة ».

٩- لابن رشد تأثيره الكبير فى الفكر الإنسانى، ومع هذا فقد حاربه المسلمون « بروح اضطهاد المفكرين المسيحيين فى العصور الوسطى » (كما يرى رينان) وربما أُضُطهِد ابن رشد - كذلك - لحملته الشرسة على « سلفية الأشاعرة » ورجعيتهم فى فهم المتون الإسلامية، خصوصا وأن معظم الدول الحاكمة لدى مسلمى الأندلس والمغرب كانت تخضع للفكر السلفى الأشعرى.. ويضيف رينان: « إن ما فعله المسلمون بفيلسوفهم العظيم ابن رشد حجب عنهم الاتجاه العلمى التحليلى النقدى الذى أخذته عنه أوربا » ويكمل رينان حديثه: « فى الوقت الذى بدأ الظلام فيه يطبق على المجتمعات الإسلامية فى القرن الثالث عشر الميلادى بدأت طلائع التخلص من قيود العصور الوسطى فى أوربا، وبدأت روح الحرية.. وزال خوف الأوربيين من سطوة التراث المسيحى

والتابوهات (المحرّمات) القديمة. . ومنها « تابو » بحر الظلمات، الذى يقع خلف أعمدة هرقل، والذى منع البحارة من التوغل فى المحيط الأطلسى . . . بدأت روح الانطلاق الأوربية، وكُسرَتْ أعمدقة هرقل (معنويا) وبدأت الكشوف الجغرافية، على يد الأسبان والبرتغال (الذين تأثروا بأقوال ابن رشد) وسيطرت أوربا على الأمريكتين واستراليا وجزر الأوقيانوس، وأتاح ذلك وفرة اقتصادية، مكنت الأوربيين من السيطرة الاستعمارية على بلدان العالم القديم ومنها البلاد العربية والإسلامية، مما زاد من وفرة وثروة الأمم الغربية ».

١٠- فى قضية الشيخ على عبد الرازق وكتابه « الإسلام وأصول الحكم » نجد سعد زغلول وهو محام وقانونى كبير، يخضع لعبء التراث فيقول ـ بعد أن فصل العلماء الشيخ على عبد الرازق من زمرتهم « هيئة كبار العلماء » : « . . وما قرار هيئة كبار العلماء إلا قرار صحيح، بمقتضى القانون والعقل والمنطق، فقد أخرجوا من خرج عن أنظمتهم . . . **وهذا أمرٌ لا علاقة له بحرّية الرأى** »!!؟؟ وللأسف فإن الشيخ على عبد الرازق نفسه خضع لعبء التراث وسيطرته، فمنع بنفسه كتابه من النشر حتى وفاته سنة ١٩٦٦ .

١١- فى قضية طه حسين مع كتابه « فى الشعر الجاهلى » حُوِّل طه حسين إلى النيابة العامة بتهمة الإساءة للقرآن الكريم وشخص الرسول بعبارته : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم واسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم واسماعيل، ولكنّ ورود هذين الاسمين التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى . . » وتثور ثائرة السلفيين لعبارة طه حسين،

مع أن نابليون ـ منذ أكثر من قرن ـ سأل « هيجل » الفيلسوف الألمانى عن مدى إيمانه بتاريخية وجود المسيح، ولم يثر أحد، ومعروف أن التصدّى للأفكار الجريئة، بغير العقل، يفقد المجتمع قدرته على تطوير ذاته.. والأمر الغريب أن أعداء طه حسين اعترفوا أمام المحكمة بأن المراكز العلمية العالمية (ومنها الجامعات) لا تعترف بالكتب المقدسة كوسيلة إثبات تاريخى، وبُرّئ طه حسين لصموده ضد « المنتفعين بالدين » كما كان يقول.

١٢- لا يزال العالم العربى والإسلامى يعانى من السلفيين الذين يرون « أن الإنسان خلق من أجل الدين، لا أن الدين جُعل من أجل الإنسان ».. ويشعر هؤلاء بأن الأرض تميد من تحت أقدامهم، نظرا لترابط الجماعات الإنسانية، وشيوع أفكار الحرّيّة الدينية وحقوق الإنسان على مستوى الدول وعلى مستوى المنظمات الدولية، فضلا عن كثافة وترابط وسائل الإعلام العالمية وتقريبها بين أفكار البشر.

وفى المستقبل ـ غير المنظور ـ سوف يتحوّل البشر إلى جماعة واحدة، وسوف تتحكم « إدارة بشرية عامة » فى العدد المناسب لسُكنَى الكرة الأرضية، وساعتها سوف تنتهى مخاوف الإنسان وحروبه وصراعاته.. وتنهار ـ إلى غير رجعة ـ كل الخرافات الميثولوجية، التى عوّقت الإنسان ودفعته إلى الحرب والعدوان، وحينئذٍ تُردِّدُ الدنيا مع أبى العلاء المعرّى بيتيه الخالدين:

زَعَم الناسُ أنْ يقومَ إمامٌ ... ناطقٌ فى الكتيبة الخرساءِ
كَذِب الزعمُ لا إمامَ سوى ... العقلِ مشيرا فى صبحه والمساءِ

☆☆☆☆☆

(د)

تجاوز أصول الفقه والتغاضى عنه يؤدى إلى أضرار جسيمة

هناك قواعد عامة لأصول الفقه تعدّل الأحكام أو تغيرّها أو تُلْغيها بما يتفق مع المصالح العامة للبشر الخاضعين لتلك الأحكام.. ومن عجب أنّ هناك أحكاماً أصولية عامة لا يرضى عنها بعض الأصوليين (كبعض الأصوليين من المعتزلة) فعلى سبيل المثال فالقاعدة الأصولية التى تقول: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» لا يرضى عنها الزمخشرىُّ ولا واصل (من المعتزلة) كذلك لا يرضى عنها كثيرون من مفكرى آل البيت (الشيعة).. بل يرى كثيرون من هؤلاء أن العبرة «بخصوص السبب لا بعموم اللفظ» لأن التشريع الإسلامى صيغ وفق التفصيلات.

كذلك، هناك «المصالح المرسلة» و «الاستحسان» وقاعدة: «الضرورات تبيح المحظورات» وكل هذه القواعد تُعّدِل فى الأحكام، بل وقد توقف العمل بها، حتى ولو كانت بنص القرآن، فالقرآن ينصّ على قطع يد السارق، إلا أن عمر بن الخطّاب أوقف القطع فى عام الرمادة.. كذلك لو تصوّرنا أن جماعة يركبون سفينة، وضّلوا فى البحر الواسع، ولم يجدوا ماء، وفتشوا فى السفينة عن الطعام والشراب، وتصادف أن عثروا على صناديق مليئة بزجاجات النبيذ، يشربها مسيحيون مشتركون معهم فى الرحلة، فالأمر البدهى أن يُسمح لهم بشرب النبيذ حتى لا يموتوا (والنبيذ محرّم وهم مسلمون).

رفض مَجْمَع البحوث الإسلامية فى القاهرة طلب « هيئات حقوق الإنسان » التى طالبت بتبنِّى الأطفال الذين لا يُعرف ذووهم « اللقطاء » .. ورأت « هيئات حقوق الإنسان » أنّ طفلا تتبنّاه أسرة (لا أطفال لديها) سيكون فى « حالة عادية من حالات التربية » وسيأخذ اسم الأب الذى تبنّاه وسوف يكون ابنا للزوجة .. أى أنه سيعيش حياة طبعية كغيره من بقيّة خلق الله؛ خصوصا وأن طرق إثبات الشخصية فى وقتنا هذا، تصرّ على أن يكون كلُّ إنسان منسوبا إلى أب وأم وجدين ولقب للأسرة.

إن مجمع البحوث الإسلامية، لم يُعْمِلْ قواعد أصول الفقه « الاستحسان. الضرورات تبيح المحظورات. المصالح المرسلة... » وفضل الالتزام بعموم لفظ آيتى الأحزاب: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ...** ﴾ [الأحزاب: ٤، ٥].

يقول السيوطى[1] فى أسباب نزول الآية الخامسة من الأحزاب: « أخرج البخارى عن ابن عمر قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزل فى القرآن ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ** ﴾.

● تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلى، والشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، وذُيِّل التفسير بكتاب «أسباب النزول للسيوطى. طبع دار الفكر بيروت لبنان - بدون تاريخ توزيع دار الرشاد الحديثة - المغرب - الدار البيضاء.

بالنسبة لهيئات حقوق الإنسان، المطالبة بالتبنّى لحماية عدد لا بأس به من الأطفال مجهولى النسب، فإن هذه الجماعات، ترى أن مجمع البحوث لم يُعْمِل قواعد أصول الفقه مضحيا بمصالح ومستقبل هؤلاء الأطفال.

والأسوأ من هذا بكثير، كتبه «جولد تسيهر» المستشرق الألمانى المجرى المتقن للغة العربية أكثر من بعض المتخصصين العرب، يقول:

«كان زيد ابناً لمحمدٍ بالتبنى.. وزوّجَهُ النبىُّ محمدٌ لواحدة من قريباته الجميلات، والتى لم تكن مرتاحة من الزواج بزيد، ولم يكن زيد مرتاحا إليها، وكان النبى يتمنّاها (وهذا تطاول على مقام النبوّة من جولد تسيهر).. طلّقها زيد، بالرغم من إلحاح النبىّ على زيد «أن يمسك عليه زوجه».. ولما طلّقها زيد، تزوجها النبى، فثار همس بين أهل المدينة، حيث كان الابن بالتبنّى يُعامَلُ معاملةَ ابن الصَّلب، وكان مجتمع المدينة لا يبيحُ للأب بالتبنى (كالأب من الصلب) أن يتزوج زوجة ابنه، ... لهذا وردت آيتا الأحزاب اللتان تبيحان ذلك الزواج وتَنُصّان على أن المتبنين مجرّد أدعياء».

ليس من صالح الإسلام ولا من صالح المسلمين أن يُقال عنهم: «إنّهم يضحّون بمصالحهم من أجل المتون الدينية، فيصرون على إعمالها بدون فهم لقواعد أصول الفقه وفلسفة أحكام التشريع».

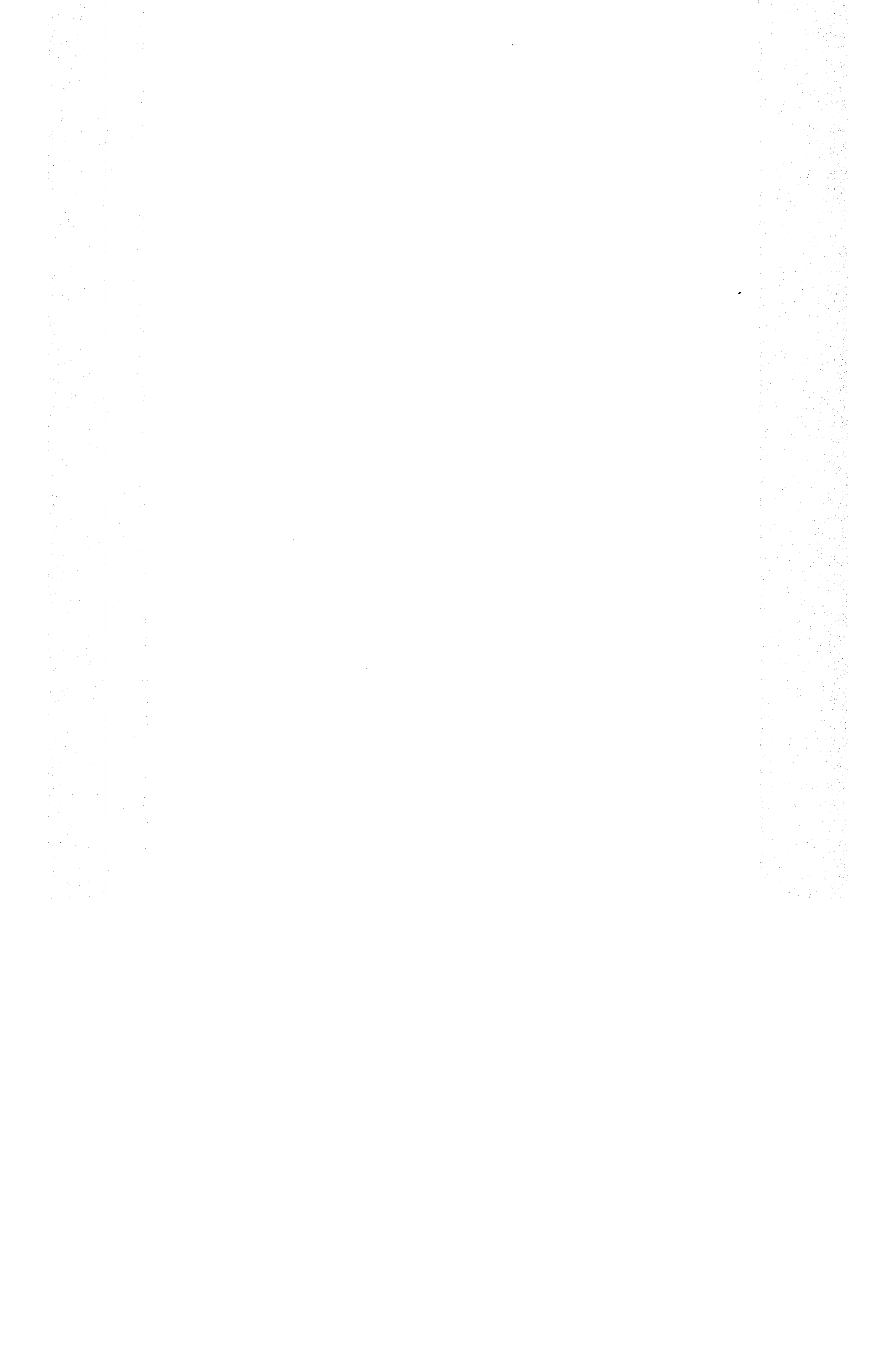
لا يُعقَل أن يكون عمر بن الخطاب، أقرب إلى إعمال قواعد أصول الفقه (التى لم تكن قد ظهرت بعد) وأقربَ إلى تفهّم فلسفة أحكام التشريع من المعاصرين ومن الدارسين من كافة المذاهب، حين أوقف قطع يد السارق فى

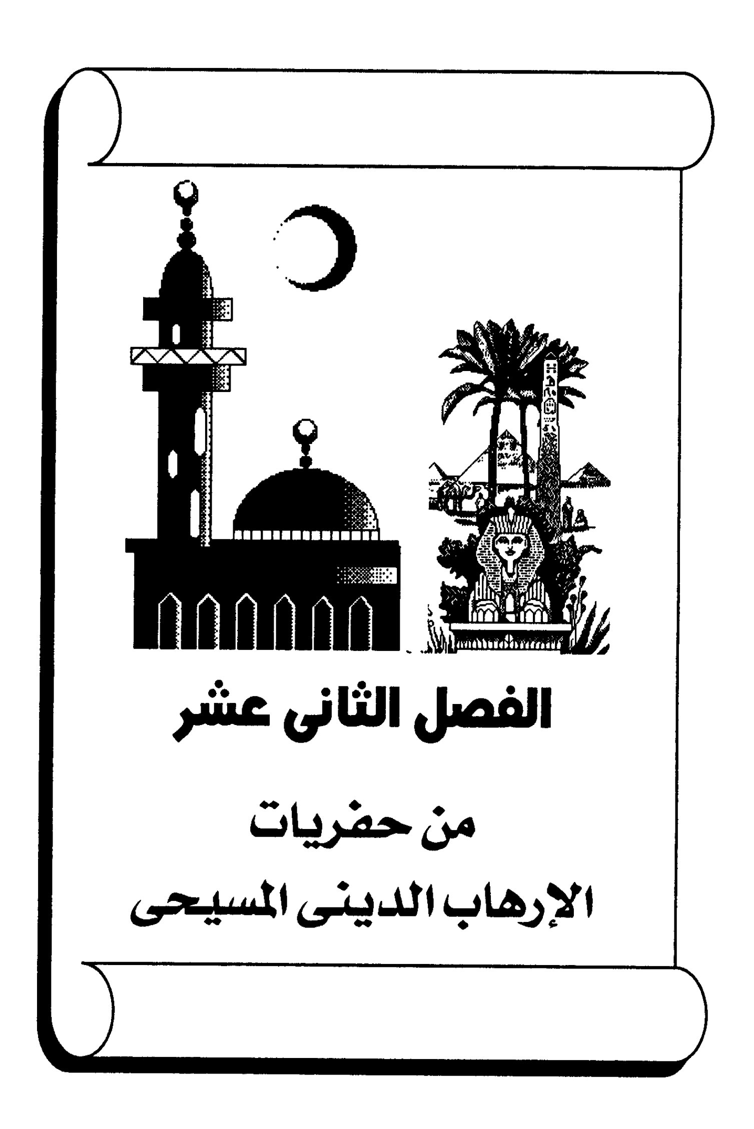
عام الرّمادة (المجاعة) .

في سنة ١٩٤٧، حين داهمت « الكوليرا » مصر . . امتنعت الدولة عن الموافقة على إرسال الحُجّاج، حتى لا تنتشر « الكوليرا » في الأقطار الإسلامية .

وفي سنة ٢٠٠٩م – ١٤٣٠هـ، انتشرت « انفلونزا الخنازير $\mathbf{H_1N_1}$ » ولم تمنع الحكومة المصريّة الحُجاج من السفر بالرغم من الخطر، وبالفعل زادت حالات المصابين بعد العمرة والحج .

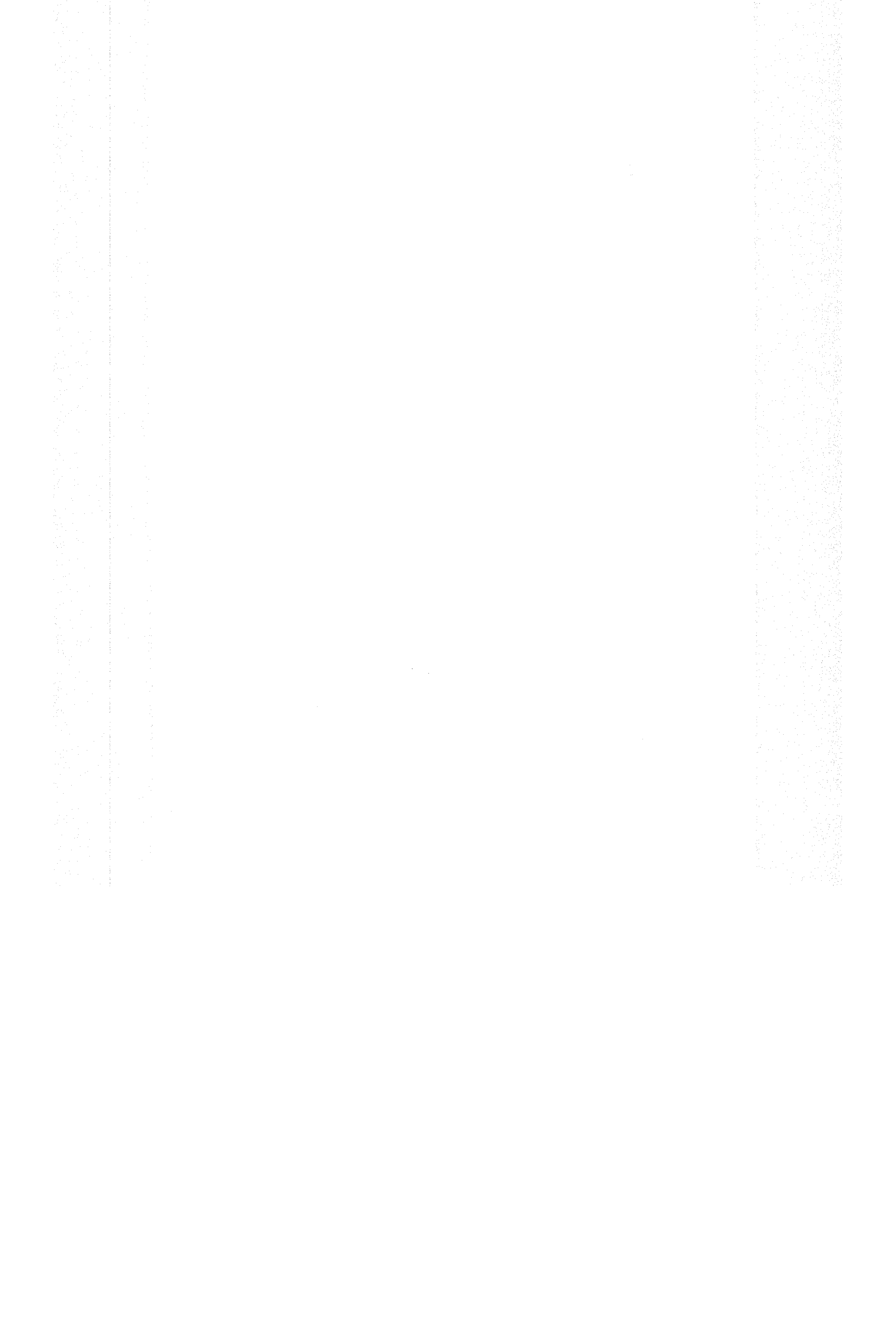
☆☆☆☆☆





الفصل الثانى عشر

من حفريات
الإرهاب الدينى المسيحى



من حفريات الإرهاب الدينى المسيحى

(أ)

الإرهاب الصليبى ضد المنطقة العربية والإسلامية

المصطلح الأوربى **Crusade** يطلق على :

١- الروّح الصليبية المتطرفة .

٢- وعلى إحدى الحملات الصليبية الأوربية ضد العرب والمسلمين .

٣- وعلى أية حملة عنيفة ضد مبدأ ما أو لنصرة مبدأ ما . . ويطلق لفظ **Crusado** أو **Cruzado** على قطعة نقدية (فضية أو ذهبية) ضربتها محاكم التفتيش الأسبانية ، فى فترة القضاء على الذاكرة العربية الإسلامية ، بما فى ذلك العملات العربية المشرقية والأندلسية . (ومن يتعامل بأية عملة عربية تصادر منه فى أول مرّة . . ثم يُسجن فى الثانية . . ويُعدم فى الثالثة) . . وكان ذلك ضربة قاضية ضد العرب والمسلمين فى الأندلس ، حيث ضاعت أموالهم إذ حلّ محلّها « الكروزادو » .

كذلك ، فإن الفعل اللاتينى « يُنَصَّر » أو « يَتَنَصَّر » (مبنى للمجهول أو للمعلوم) فعلٌ واحد (لا فرق فيه بين البناء للمجهول أو للمعلوم) لأن الأصل فى أى انسان أن يكون كاثوليكيا (من وجهة نظ كاثوليكية العصور الوسطى) . . بمعنى آخر ، يجب أن يكون كل إنسان كاثوليكيا ، يستوى فى هذا أن تتمّ الكثلكة بإرادته ، أو بإرادة تتسلط عليه .

لقد احتلّ الإرهاب العنصرى الأوربى المقدس (الحملات الصليبية) سوريا سنة ١٠٩٦م.. وقُتِل فى « المعرّة » وحدها مائة ألف عربى، وقُتل مئات الآلاف فى دمشق وحلب واللاذقية.. وبيع من نساء العرب وأطفالهم فى أسواق الرقيق الأوربيّة قرابة ربع مليون، ومات منهم أكثر من مائة ألف بسبب برودة الجو أثناء النقل إلى أوربا (والتقديرات العددية لمؤرخين أوربيين).

فى زمن « بلْدوين » الأول (١١٠٠ - ١١١٨) أحد بابوات روما أُحتلَّتْ فلسطين وصارت القدس عاصمة للملكة الصليبية المقدسة، وقُتِل معظم أهل القدس، حتى أن الحملة أمرت جنودها أن يقيموا خارج أسوار القدس خوفا من الأوبئة التى تتكاثر بعد تحلل الجثث.

من أكبر دعاة العنصرية والإرهاب الأوربى فى أيام فيليب الجميل (١٢٨٥ - ١٣١٤م) « بيير دى بُوَا »، الذى طلب من إدورد الأول ملك انجلترا أن يقوم بحملة صليبية ضد الشرق العربى الإسلامى، وضد المسيحية الأرثوزكسية بهدف الكثلكة، وأوصى « بيير » بإرسال جماعات من رعايا الدول الخاضعة لبابا روما لسكنى فلسطين، وتحويل المسلمين والمسيحيين إلى كاثوليك وكذلك دعا بيير الملكَ فيليب الجميل، أن يجعل ابنه (فيليب الثانى) ملكا على مصر وبابليون (أحد حصون القاهرة) وإلى أن يسعى إلى توحيد جمعيات الفرسان المختلفة (وهى جمعيات إرهابية مقدسة) تحت إمرة ملك قبرص.

☆☆☆☆☆

(ب)

الإرهاب الأوربي المقدس ضد مصر بالذات

الإرهابى القديس « غاليوم دي نُوجارتى » أثار حملة إعلامية على فرسان « الهوسبيتال » (المستشفى) وحملهم مسئولية فشل الحروب الصليبية المقدسة فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأنهم (لم يقتلوا ولم يدمّروا بالقدر اللازم لإضعاف مصر والشام وفلسطين) .

وكل دعاة الصليبية والكثلكة كان يهمهم إضعاف مصر . . فقد اقترح « دى بادو » عند سقوط عكا مقاطعة التجارة العربية و « حصر مصر تجاريا لتضعف ويسهل احتلالها بجيش يصل إلى مَصَبّ النيل، وجيش يحتلّ الإسكندرونة فى سوريا والإسكندرية فى مصر » .

ونقرأ نفس الأمر « إضعاف مصر » فى وثائق الفاتيكان، فى مشاريع شارل الثانى ملك نابولى (البندقية) (١٢٩١ - ١٢٩٢) وجاك مولى رئيس الهيكليين (١٣٠٧) ووليام آدم (١٣١٠)، وكذلك فى مذكرة أرسلها البابا كليمنت الخامس إلى هنرى الثانى ملك قبرص، يدعوه فيها إلى إعداد حملة مقدسة لغزو مصر، لأن مصر هى القوّة الضاربة باسم العرب والمسلمين .

كما ظهر إرهابى مقدس آخر هو « بيير دى توماس » فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر . . وبحسب وثائق المقر البابوى، اختاره البابا « إنوسنت » السادس (١٣٥٢-١٣٦٢) سفيرا له لدى الامبراطورية الرومانية المقدسة، ثم وسمه مطرانا لصقلّية، ثم بطريركا لاتينيا للقسطنطينية، وأخيراً

عُين قاصدا رسوليا فى الشرق والشام وفلسطين.. وحصر بيير دى تُوماس أهدافه (وفقا لوثائق الڤاتيكان) فى :

١- رد نصارى الشرق إلى الكثلكة.

٢- التبشير بالكاثوليكية بين المسلمين.

٣- الدعوة لحملة جديدة لاسترداد كل أرض فلسطين..

وكان بيير هذا اليدَ المحرّكة لحملة على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م، كما كان المحرّض المقدّس للدماء والعنف والقتل والحرق الذى تمّ فى الإسكندرية.. وبالرغم من الدماء والعنف والحرق فشلتْ الحملة وتوفى بيير سنة ١٣٦٦م.

وإرهابى مقدس آخر هو ويليام آدم (مواليد ١٢٧٥) تشير إليه الوثائق بأنّه : « وهب حياته لإثارة أوربا لإعداد حملة لاسترداد الشام والقضاء على قوّة مصر ».

أما مارينو سنودو فقد قدّم للبابا يوحنا الثانى والعشرين (١٣١٦ - ١٣٣٤) كتاباً بعنوان « أسرار حملة صليبية جديدة » وكتابه المحفوظ فى وثائق الڤاتيكان يتحدّث عن مرتكزات ثلاثة :

١- سبيل القضاء على الاقتصاد المصرى.

٢- احتلال مصر وكثلكة النصارى والمسلمين.

٣- الاحتفاظ بمصر والبلاد المقدسة فى الشام...

ومعظم معلومات مارينو عن الشرق مأخوذة عن المؤرخَيْن : ولْيَمْ الصورى، ويعقوب دى فِترى.

لم يكن يوجد فى الشام وفلسطين من اليهود إلا آحاد، وهو أمر يبرّر قولَنا « إن طرد الفلسطينيين من ديارهم، واستقدام يهود من شتّى بقاع الأرض، هو

آخر حملة عنصرية قادتها أوربّا وأمريكا ضد مصر والعرب».

ولا ننسى الداعية الأوربى الإرهابى المقدّس ببْلُوتِى (وهو من مواليد كريت ١٣٤٠م) والذى يقول: «يجب أن توجّه قوّة صليبية ضد مصر لا ضد الشام وفلسطين، ليتسنّى لهذه الحملة الجديدة التى أدعو الملوك والبابا إليها، احتلال الإسكندرية والقاهرة وبقية مصر.. ومن ثم القضاء على الرأس، ففى صراعك مع الأفعى عليك الاهتمام بالرأس».



(جـ)

إبادة العرب والمسلمين فى الأندلس

اعتبر الأسبان والبرتغال الحقبة الإسلامية من تاريخ غرناطة (جرانادا) عاراً قاموا بغسله بدماء العرب والمسلمين على أيدى أباطرة محاكم التفتيش.. إنّ ما حدث فى الأندلس لا يختلف عن إبادة الحشرات بعضَها لبعض.. أحيانا تقوم مملكة من ممالك النمل، بإبادة مملكة أخرى.. أُكْتُشِف ذات مرّة فى جنوب أسبانيا، حيث جرى حفر عميق لإنشاء مصنع، مقبرة جماعية تحوى بقايا آلاف الجثث التى دفنت محترقة فى قاع وادٍ ضيق، أهيل عليه التراب والحجارة لمواراة تلك المجزرة.. دخلت جيوش « قشتالة » مدينة غرناطة العربية الإسلامية فى أوائل عام ١٤٩٢م.. ولم يعد « أبو عبد الله » ملكا لغرناطه، بل صار الملك لفرديناند وإزابيل الكاثوليكين.. وشرع فى تغيير هوية المدينة: رفع صليب فضى ضخم أعلى برج قصر الحمرا .. بل تحولَتْ المدينة إلى « الهامبرا ».. ورُتِّلَتْ صلاة « الحمد الكاثوليكية » صباحا ومساءً فى المسجد الذى صار كنيسة.. وصار « المسجد الجامع » كنيسة « سان سلفادور » وحُظِرَ أذان المسلمين، وحُبِس المسلمون فى حيّهم المحاصر (كما يحدث للفلسطينيين الآن).. وأُحرِقَت الكتب والمخطوطات العربية فى ساحة « باب الرملة » ونُكِلّ بالعرب والمسلمين وأجبروا على الكثلكة: سعد ونصر ولدا السلطان أبى الحسن صارا: الدوق فرناندو دى جرانادا، والدوق خوان دى جرانادا.. والوزير « يوسُفُ بن كَمَاشَة » ذراع بنى الأحمر

والمتحدّث باسمهم والمفاوض باسم المسلمين تنصّر، بل زهد فى الدنيا ودخل سلك الرهبنة، وحظر استخدام اللغة العربية (حتى فى الأسواق) وألغيت الشعائر الإسلامية، ومن يضبط بممارستها فى بيته يُقتل باعتباره مرتدًا عن المسيحية، ومنع ختان الذكور (كرمز إسلامى ويهودى) [والختان فى الأصل رمز فرعونى] ومُنع بيع الحنّاء (كعلامة إسلامية) ولم يعد يُسمح بتسمية المواليد بأسماء عربية.. ولم تعد أرض الأندلس تسمح بوجود مسلمين فتنصّر من تنصّر، ورحل إلى الشاطئ الإفريقى من كانت له إمكانية الرحيل.. وتلاشت الأسماء العربية فى الجيل الثانى والثالث، كما تلاشت اللغة العربية. وهناك وثيقة فى « الإسكوربال » تذكر: « لم تعد تسمعُ أسماء جعفر. حسن. زينب. مريم. سليمة. حامد وعائشة.. وتُسمع الآن أسماء: ادوارد. روبرتو. فرناندو. كارلوس. جلوريا. مورينا. ماريا. اسبيرانزا. دييجُو. لويس وفرانشسكو.. ».

الإرهابى المقدس الكاردينال فرانشسكو دى سيسينيرو، كان فى معية الملكين فرديناند وإزابيللا، وكان إرهابيًا كاثوليكيا مقدّساً.. أعلن بسماحته المقدسة أنه سيفرج عن « المجاهد المسلم » حامد الثغرى (نسبة إلى الثغور أى الحدود والبلاد الساحلية الإسلامية) وذهب العرب والمسلمون إلى الكنيسة التى سيُفرج فيها عن الثغرى، فإذا بهم يرون رجلاً محطمًا مهلهلاً مع أنّه كان يقود المقاومة الإسلامية ضد الأسبان، وكان يُلَقَّب بنمر مالقه.. وتقدّم حامد الثغرى، وأعلن أنه رأى الله فى منامه؛ وأن الله طلب منه أن يتحوّل إلى الكاثوليكية.. وخرج الثغرى من ساحة الكنيسة إلى مرافقها الداخلية، وعاد بعد أن اغتسل وغُيِّرَتْ ملابسه وجَلَس عد أقدام الكاردينال، وقُدمَّتْ كأس

التعميد للكاردينال فرش قليلا من ماء العماد على وجه ورأس الثغرى، وأعلن الثغرى أنه اختار اسماً مسيحيّاً هو « جوانزا ليس فرناندو زغرى » .

قاد ذلك الكاردينال حَمَلات للقضاء على الذاكرة الثقافية للعرب المسلمين، واشترك فى حرق الكتب العربية، حتى ما كان منها فى الطب والرياضيات . . كما قاد حملات لتعقّب المسلمين فى الشاطئ الإفريقى خشية أن يتجمع المسلمون من جديد. فتكون لهم قوّة . . واستمرت سياسة هذا الكاردينال فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . . وعَبَر المسلمون إلى إفريقيا وانتشروا حتى الإسكندرية، وعادة كانوا يحملون لقب « سيدى » (سيدى بشر . سيدى المرسى أبو العباس . سيدى كُرير) وعُرِف ذلك الكاردينال بين المسيحيين المورسكيين (الذين كانوا مسلمين) بالإجرام والساديّة والرغبة الدموية العارمة . . وهو أول من ابتدع « البَهْدَلة » حيث كان يشرف على تعليق العرب المسلمين الذين يرفضون الكثلكة، من أرجلهم والرأس إلى أسفل عرايا نساءً ورجالاً، ثم يقوم بعملية « البهدلة » حيث يقطع أثداء النساء والرجال وهم مقلوبون فيشرقون بآلامهم ودمائهم، ثم تشعل النيران أسفلهم فيتم التخلّص من جثتهم . (أصل كلمة البهدلة العربية هو دائرة بروز الثدى من الصدر) .



(د)

جان دارك العربيّة
سليمة بنت جعفـر

سمع الناس جميعا عن القديسة الفرنسيّة الشهيدة جان دارك.. لكنْ يندر أن يسمع أحدٌ عن الشهيدة العربية الأندلسية سليمة بنت جعفر.. هى حفيدة أبى جعفر الورّاق الغرناطى، الذى كان مولعاً بالكتب ويهوى جمعها وبيعها (ومن هنا لُقِّبَ بالورّاق).

كانت سليمة طفلة حين استولى القشتاليون، ومعهم محاكم التفتيش، على غرناطة (جرانادا)، أحبت سليمة الكتب مثل جدّها أبى جعفر، الذى رباها بعد أن قتلت محاكم التفتيش أباها.. ورثتْ كثيرا من كتب جدّها.. وقد شهدت فى طفولتها ـ محرقة الكتب العربية الإسلامية فى ساحة باب الرملة فى غرناطة.. وكان جدّها قد أخفى أثمن الكتب عن محاكم التفتيش الكاثوليية... وكانت تحتفظ بأنفس الكتب الطبية العربية، التى ظل العالم يعتمد عليها حتى أواخر القرن الثامن عشر.. أمضت سليمة ليلها ونهارها فى استظهار الكتب الطبية خشية وصول أيادى رجال محاكم التفتيش إليها.. وجعلت من غرفة نومها معملاً للأدوية.. وصارت سليمة حكيمة غرناطة.

ومرّت سنوات وازدادت شهرتها كحكيمة (طبيبة) فانتبهت إليها محاكم التفتيش والإرهاب الكاثوليكى المقدس.. اُتِهّمَتْ سليمة بالسحر،

وسيقت إلى محكمة التفتيش، وكان يرأس المحكمة قاضٍ لاهوتى، واثنان من المحققين المؤمنين برأى الكاثوليكية فى تعذيب السحرة وإحراقهم.. وصدر عن المحكمة هذا القرار المحفوظ بمكتبة الأسكوربال: «إنّه فى عام سبعة وعشرين وخمسمائة وألف من ميلاد المسيح، وفى اليوم الخامس عشر من شهر مايو وبحضورنا نحن: أنطونيو أجابيدا القاضى بديوان التحقيق، وألفونسو ماديرا المحقق، وميجيل أجيلار المحقق فى الديوان العام، بدأ التحقيق فيما شاع ونما إلى علمنا من أن «جلوريا ألفاريز» واسمها القديم «سليمة بنت جعفر» تمارس السحر الأسود وتحوز فى بيتها ما يدعو إلى الشبهة من بذور ونباتات وتراكيب شيطانية تستخدمها فى إيذاء الناس.. ولقد ارتكبت بممارساتها ما يهدّد الكنيسة الكاثوليكية وأمن الدولة.. ونثبتُ نحن المحققين - بعد القسم على الأناجيل الأربعة - بأن سليمة بنت جعفر صارت مسيحيّة باسم جلوريا ألفاريز، وغُيرّ اسم أمها من أم حسن إلى ماريا بلانكا، وعُمِد زوجُها سعد المالقى باسم «كارلوس مانويل» .. أما ابنتها عائشة فصارت سبيرانزا».

ودُوهِمَ بيت سليمة (أو جلوريا) وتم الاستيلاء على كتبها ومعملها.. وسُئِلَتْ سليمة: هل تؤمنين بالشيطان؟، فردّتْ: «لا أعتقد أنّ للشيطان وجودا، وكل ما يحدثُ للناس مردّة إلى مرض الجسد أو العقل». وعلّق القاضى الكاثوليكى بقوله: «إن تهمة إنكار الشيطان - وحدَها - كافية لحرقها، بعد تعذيبها لشفاء روحها».. ثم عاد القاضى فسألها: «هل تسرى فى الليل عبر المسافات على ظهر دابة؟!» فكان جوابها: «أنا لم أسمع أن بشراً حدث له ذلك سوى محمد نبىّ المسلمين، الذى حملته دابة مجنّحة

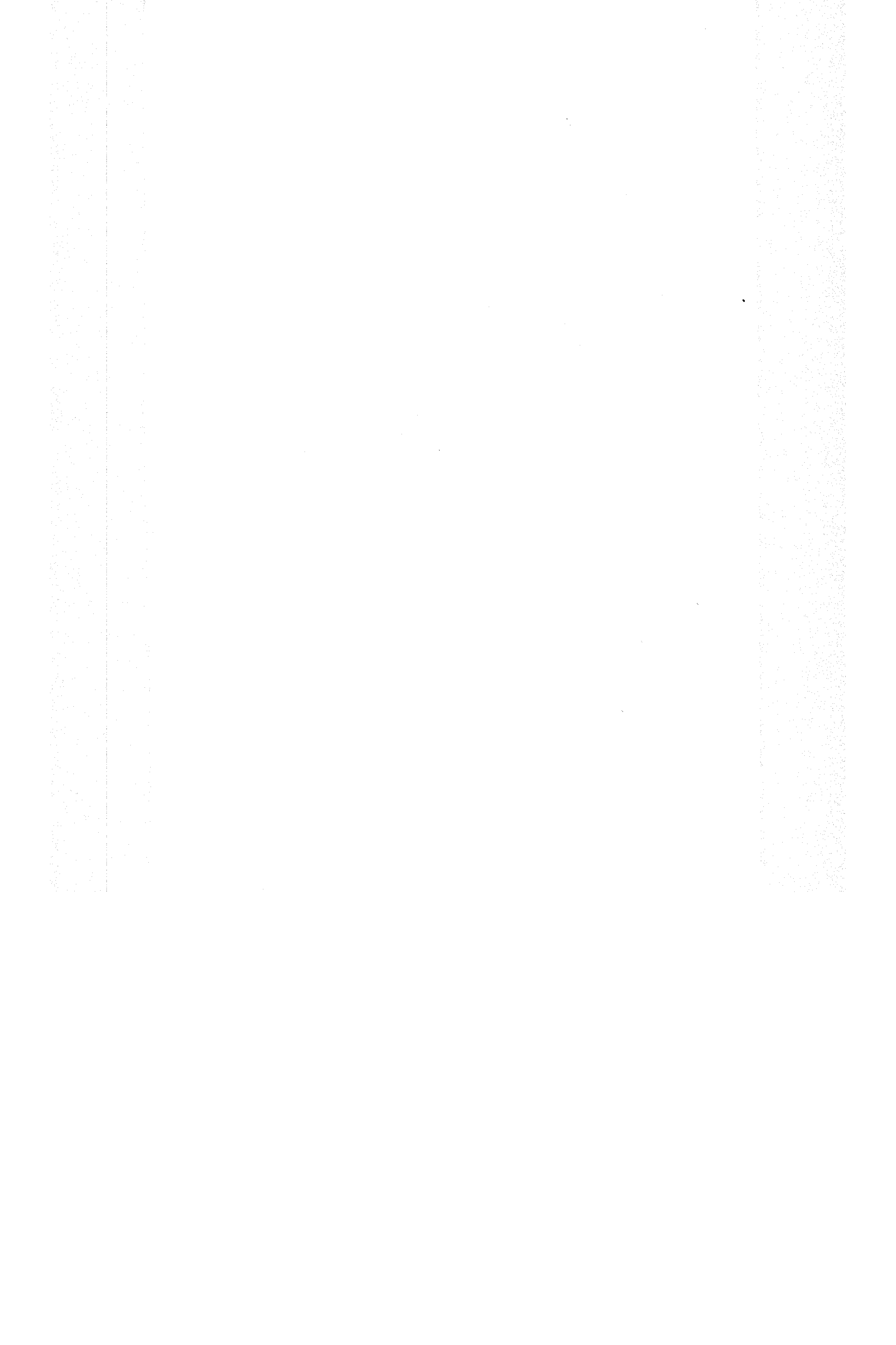
من مسجد مكة إلى مسجد فى القدس». فسألها القاضى: «هل حدث ذلك فعلا؟» فقالتْ: «لقد تعمّدْت وصرت نصرانية» فقال القاضى موجها الحديث للحضور: «لقد تعَمّدَتْ لكنها لم تتخلّ عن دينها المحمدى، وفى هذه الحالة يكون تعاملها مع الشيطان مقصوداً به الإضرار بالكنيسة الكاثوليكية والدولة».

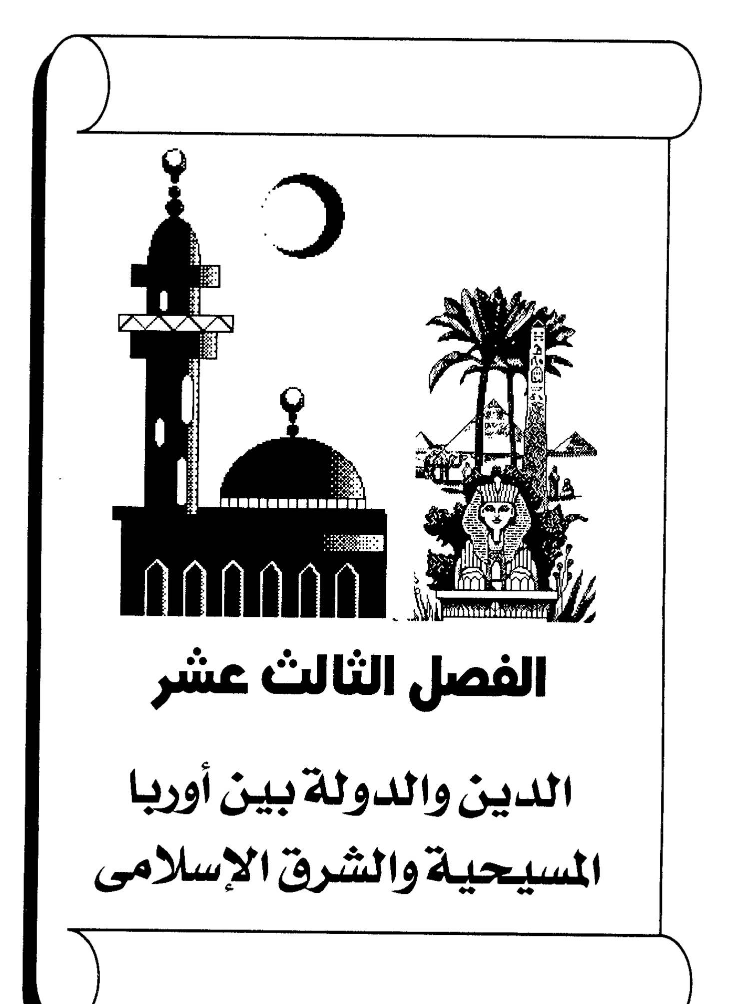
ثم نطق القاضى بالحكم: «اجتمع المجلس الموقّر من علماء اللاهوت، وبعد المناقشات والمداولات توصّلنا إلى أنّكِ المدعوّة جلوريا ألفاريز، وكان اسمك قبل التعميد «سليمة بنت جعفر» توصلناإلى أنّكِ كافرة، وقد كُنْتِ أداةَ الشيطان تحتفظين بالبذور والمركّبات الشيطانية لإيذاءَ الناس.. وأعلن أنا القاضى أنطونيو أجابيدا نيابة عن الكنيسة الكاثوليكية، وأمامى الأناجيل الأربعة، أعلن أنّكِ يا جلوريا ألفاريز كافرة، وحكمنا عليكِ بالتعذيب للتطهير ثم الحرق».

وعُرِّيَتْ رشيدة أو جلوريا.. وجرى بهدلة[1] ثدييها وبترهما، وهى معلقة من رجليها وسال دمها.. وأُشعِلَتْ الأخشاب تحت رأسها المعلق وتم حرقها....

☆☆☆☆☆

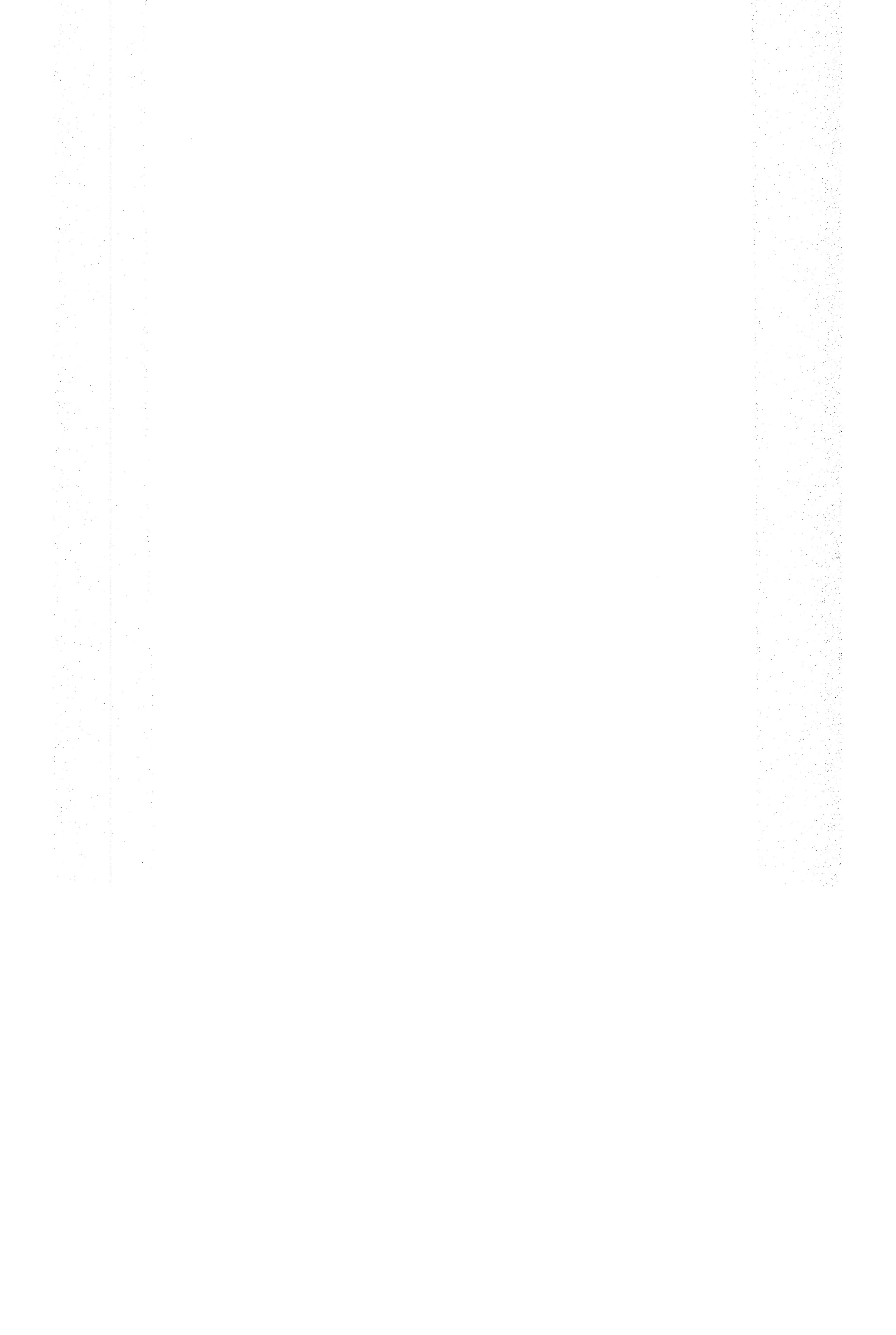
(١) «البهدلة» عندالعرب جذر الثدى عند الصدر (للذكر والأنثى).. ولكنّ الكلمة (بهدلة) صار لها معنى آخر فى الأندلس، حيث يُقصد بها بَتْرُ الثدى من الصدر والضحية معلّق من أقدامه فيسيل دمه على أنفه وفمه فيموت ألما ونزفاً واختناقا. والعامية المصرية تستخدم الكلمة بمعنى عام.





الفصل الثالث عشر

الدين والدولة بين أوربا المسيحية والشرق الإسلامى



الدين والدولة
بين أوربا المسيحية والشرق الإسلامى

إذا تأملنا خريطة حوض البحر المتوسط أواخرَ العصور الوسطى، وبعد زوال الوجود العربى الإسلامى فى الأندلس، فإننا نجد حوض البحر المتوسط عبارة عن مستطيل، ضلعه الجنوبى عربى إسلامى، وضلعه الشمالى أوروبى مسيحى، وضلعه الشرقى إسلامى عربى تركى، وضلعه الغربى (فى أسبانيا والبرتغال) أوروبى مسيحى.

كانت أوربا - فى ذلك الوقت - تعيش ظروفاً مشابهة لظروف العرب والمسلمين.. كان للعرب والمسلمين خليفة أو سلطان يمثل السلطة الزمنية والدينية، إلا أن سلطته كانت مجرّد سلطة رمزية طقسيّة (يُنادى باسمه على المنابر وتُسك الدراهم والدنانير باسمه) بينما كانت السلطة الحقيقية فى أيدى حكام محليين، هم - عادة - رؤساء مجموعات الجنود، أو العصابات القبائلية، أو المجموعات المملوكية ذات العرق الواحد، أو الميلشيات الدينية والمذهبية.

وعلى الجانب الشمالى من المتوسط، فى أوربا المسيحية، كانت للبابوات نفس السلطة الرمزية الطقسية (بعد أن تقلّصت سلطاتهم أواخر العصور الوسطى).. بينما كانت السلطة الفعلية فى أيدى قطاع الطرق والقراصنة والبارونات ورؤساء الأسر القوية (وبعد فترة صار هؤلاء ملوكَ أوربا).

لم تكن معالم الدولة الوطنية **State** قد اتّضَحَتْ بعد، سواء فى أوربا أو الشرق الإسلامى، إذ كانت الدول لا تزال فى مرحلة جنينيّة، حيث كان

النفوذ البابوى فى الشمال يمثل كياناً هشاً لتجمع مسيحى عام، وكان الخليفة أو السلطان لدى العرب والمسلمين يمثّل نفس الأمر.

فى تحليل تطور الجماعات يُعتمد على تقسيم الحضارة إلى بنية عليا **Su-pra - Structure** ، (وهى البناء الثقافى للجماعة من دين وقانون وشرائع وأدب وفنون) .. وبنية تحتية **Infra - St.** (وهى البناء الاقتصادى الإنتاجى للجماعة من زراعة ورعى وحِرف وصناعات ...) ... ومفهوم أنّ أيّة تطورات فى البنية الدنيا تؤدى إلى تأثيرات فى البنية العليا.

كانت الجماعات الأوربية فى ذلك الوقت تعمل فى الزراعة والرعى والحرف المتصلة بهما .. كذلك كانت المجتمعات العربية الإسلامية، لهذا فكلاً من المسيحيّة والإسلام جرى فهمهما وتفسيرهما بما يتّفق مع البُنَى التحتيّة لمجتمعات الرعى والزراعة.

والزراعة والرعى (وما يتصل بهما من حرف) أنماط إنتاج ذات صلة بطفولة الإنسان وسذاجته فى تفسير الظواهر .. فالراعى والفلاح يقفان عند حد « أن الله هو الذى يُسقط المطر » ويندر أن يفكرا فى البخر وتجمّع السحاب الذى يؤدى إلى سقوط المطر، كذلك فإن الراعى والفلاح ينظران إلى العشب وتوالد الحيوانات، وحتى توالد البشر، ينظران إلى كل ذلك ويُرجعونه إلى السلطة السماوية التى ترعى البشر، ويتوقفون عند ذلك، ولا يبحثون فى العلل التى خلف الظواهر .. ولا يسألون أنفسهم: « هل الله يفعل ذلك فى كل مرة أم وضع قانونا تسير عليه الكائنات؟ ».

وبدهى أن رجال الدين سيقولون لهم: « إن الله يفعل ذلك بيده فى كل مرة » حتى يُؤمنَ الرعاة والفلاحون ـ بسلطة الله التى تفعل كل شئ .. وكأنّ

الله يحرّك كل الكائنات بحبالٍ مشدودة من الله إلى الأشياء.. لماذا يصرّ رجال الكهنوت على هذه الصورة لله؟ ولماذا لا يريحون رءوس الناس ورءوسهم، بأن الله يحرّك كل شئ بقوانين قد وضعها منذ الأزل؟ الإجابة مفهومة: «الله يحرك الأشياء كأنه لاعب دُمَى وعرائس بالحبال، ونحن ـ رجال الكهنوت ـ جند الله المشتركون معه فى التحريك.. ولو بدعائنا المقبول عند الله».

أما الصناعة وما يرتبط بها من تقدم علمى، فإنها تؤدى إلى «عقلانية» الإنسان فى نظرته للظواهر. يقول فردريك هيجل[1]: «كما أن الطفل الصغير لا يستطيع أن يعلل اضطراب أوراق الشجر، بفعل الهواء،.. فإن الرجل البدائى والساذج لا يستطيع أن يجدَ علّةً للمرض والكوارث والحاكم المستبدّ غير الجان والسحر الأسود وآلهة الشرّ، أو أى تفسير آخر يقدمه له كاهن التوتم أو كاهن الدين».

ومن المفيد أن نذكر أن هيجل وجد توازيا بين الدولة الاستبدادية، والبعد عن العقلانية وشيوع الخرافة والتفسير التوتمى السحرى للدين.. «ففى ظل استبداد مملكة بروسيا[2] عاد راهب زار المنزل الذى وُلد فيه السيد المسيح فى بيت لحم، فأقام بيتا ريفيّا بجوار أبروشيته، ثم ادعى أن بيت «يسوع» طار إلى هنا وفضّل هذا المكان.. وجمع الراهب كثيرا من أموال وذهب وحُلىّ المرضى والفقراء والبسطاء، الذين تمسّحوا ببيت يسوع رجاء

(١) فريدريك هيجل فيلسوف ألمانى كبير، ومحلل تاريخى عظيم. عن مؤلفه العظيم «العقل فى التاريخ» صادر - بيروت.

(٢) بروسيا - مملكة ألمانية عريقة، كانت تتميز باستبداد حكامها من آل «هابسبرج» وبروسيا نشأ فيها فلاسفة كثيرون، والسياسى صانع الوحدة الألمانية بسْمارك.

الشفاء أو طلباً لرحمة السماء.. كذلك وجد « هيجل » توازيا بين التخلف والاستبداد وشيوع ثقافة عامة مناهضة لمركز المرأة.. «إذ كانت تتردد على الألسنة أسئلة مثل: هل للمرأة روح كروح الرجل؟ هل المرأة الصالحة تدخل الجنة؟ وفى مثل هذه الجماعات يصير الدين موجودا بصورة كثيفة فى شئون الناس: فى ميلادهم، فى أسمائهم، فى زواجهم، فى تعليمهم، وفى طعامهم وشرابهم (كان الأب مكلّفا بترديد دعاء مسيحى قبل الطعام) وكذلك فإن الدين، ورجال الدين، موجودون بكثافة فى ساعة الوفاة».

وتقدّمت الحضارة فى الشاطئ الأوربى المسيحى من المتوسط، وظهرت الدولة المدنية، وتحوّلت الورش الصغيرة إلى مصانع.. وبدأ التنوير **Ren-aissance** (= إعادة الحياة)، وبدأ العلم الحديث: ظهرت نظريات جديدة فى الفيزياء والفلك والكيمياء.. وهكذا حدث تحوّل فى البنية التحتيّة الإنتاجيّة، الأمر الذى كان له صداه فى البُنَى العليا (الدين. الثقافة. القانون. الأدب. الفنون).. وأهم هذه التحوّلات العقلية ـ عند «هيجل»: الدولة المدنية والفصل بين الدين والدولة، وعودة الكنيسة إلى حجمها الطبيعى (كمؤسسة وطنية) وتوقفها إلى حد كبير عن «التلويح بالآخرة» وهو أمر يميل إليه رجال الدين حيث يُبرز سلطانهم الخطير على مصائر البسطاء». واسترجع الفكر الجديد ما سبق أن قاله المسيح، حين عُرَضَتْ عليه صورة قيصر على أحد وَجْهَىْ العملة: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

وبدهى أن هناك أموراً «فكرّية» أخرى عجلت بالنهضة الفكرية الأوربية منها: المرتكز اليونانى الرومانى القائم على الحريّة والمنطقيّة، وقد عادت إليه أوربا من خلال العرب والمسلمين. ومنها أيضا أعلام التنوير المؤثرين فى أوربا

كابن رشد، والحسن بن الهيثم، والأب توماس أكويناس (أحد تلاميذ ابن رشد) ومن جاء بعد هؤلاء من أمثال روسّو. منتسكيو. وڤولتير.. ومنها ـ كذلك ـ الزلزال الفكرى الذى أحدثته الثورة الفرنسية.

انتشرت دولة العرب المسلمين فى جنوب المتوسط شرقا وغربا.. وقام بعبء الفتوح الإسلامية ـ منذ زمن طويل ـ العرب المؤمنون بالعصبيّة الإثنية[1]، وتقدّمت الدولة العربية منذ القديم واتسعت وظلت البنى التحتية الإنتاجية، كما هى (رعويّة زراعية) ووافقها البناء العلوى الإسلامى وتفسيراته.. واستعانت الدولة الإسلامية فى أجهزتها الإدارية بميراث وقيادات أمم أخرى كالأمة الفارسية، صاحبة الحضارة التى كان العرب يطمحون إليها، كما استعانت بالآداب السلطانية الفارسية ... بل وتماثلت « بوقات وطبول » ملوك الفرس « ببوقات وطبول » سلاطين العرب والمسلمين.. (ونستخدم هنا إشارة المتنبى حين مدَح سيف الدولة الحمدانى وذمّ غيره من « البوقات والطبول » :

إذا كان بعضُ الناسِ سيفاً لدولةٍ فبعضهُم بوقاتٌ لها وطبولُ

وردّدَتْ.. « البوقات » العربية والإسلامية من خدم السلاطين، تلك المحفوظات الشهيرة من مثل قول « أردشير » الملك الفارسى القديم: « .. اعلموا أن المُلْك والدين أخوان توْأمان، لا قوام لأحدهما دون الآخر، لأن الدين « اس المُلك، ثم صار المُلك ـ بعد ذلك ـ حارس الدين، فلابد للمُلْك من أساس، ولابد للدين من حارس، لأنّ من لا حارس له ضائع، وما لا أساس

(١) محمد عابد الجابرى: العصبية والدولة عند ابن خلدون.

له مهدوم . . واعلموا أنه لن يجتمع رئيس سرّى للدين، ورئيس مُعلَن للمُلْك في مملكة واحدة، إلا انْتَزَعَ الرئيس فى الدين ما فى يد الرئيس فى المُلك، لأن الدين «اس، والمُلْك عماد، وصاحب الأساس أولى من صاحب العماد».

وبدأ تفسير الإسلام ليناسب الظروف الواقعية البرجماتية (العملية) :

١- «الناس سواسية كأسنان المشط» . مبدأ إسلامى معلن . . لكنّ واقع العرب والمسلمين طبقى كغيرهم، لهذا رُتّب الناس كما كان شائعا : السلطان . الخاصة . العامة . ثم الأوباش أو الزُّعر (جمع أزعر وهو من لا خلاق له) .

٢- «الخمر محرم» بل و«يُحَدّ شارب الخمر» ومع ذهذا، فما من خليفة أو سلطان (بعد الراشدين) إلا وشرب الخمر . . وكان يزيد بن معاوية (وهو خليفة) لا يكاد يفيق منها . . كلك فما من شاعر مسلم إلا وقد بدأ قصيدته بالخمر، حتى كعب بن زهير صاحب البردة الأولى، بدأ قصيدته بالخمر حتى فى حضرة النبى «قصيدته المشهورة : «بانت سعادُ» . . كذلك فإن الثعالبى[1] يؤكد على أحقية الملوك والسلاطين فى التلذذ «بنعمة النبيذ» . وكذلك ينصح «نظام المُلك» كلّ السلاطين المسلمين بضرورة تخصيص وقت «للجلوس مع الندماء» ترويحاً عن النفس.

٣- الحاكم أو السلطان «واحد من خلق الله» . . إلا أن الأبواق المحيطة بالسلاطين تعتبر الحاكم «كائنا مفردا» فى شخصه (الاسم . اللباس . المأكل . المشرب) وفى ظهوره (مجالس اللهو والحكم وصور الظهور أمام الرعيّة) . . بل كثيراً ما حدث تشبيه الحاكم بالله، مدح أحدُ الشعراء

---

(١) الثعالبى : «آداب الملوك» .

العزيزَ بالله الفاطمى، فبدأ قصيدته التى ضرب بها المثل: «أول القصيدة كُفر» فقال للعزيز:

ما شئْتَ لا ما شاءتْ الأقدارُ فاحكمْ فأنت الواحدُ القهارُ

يقول الشيخ على عبد الرازق فى «الإسلام وأصول الحكم» عن جوقة السلاطين «إذا ذكروا واحداً من الملوك أو السلاطين رفعوه فوق صف البشر، ووضعوه غيرَ بعيد عن مقام العزّة الإلهية، لأن الله «هو الذى يختار الخليفة، ويسوق إليه الخلافة والسلطان هو ظل الله فى الأرض».

٤- والسلطان «مُلزم بالعدل وحسن توزيع الثروة بين المسلمين».. إلا أن الجاحظ[1] (وهو من أوائل من كتبوا فى الآداب السلطانية) يقول: «وأولَى الأمور بأخلاق المُلك هو التفرّد، فلو أمكن أن يتفرّد المَلك بالماء والهواء وألا يُشرك فيهما أحداً فليفعل (؟!!!) فإن البهاء والعزّة فى التفرّد».

هذا الاتجاه فى النظر إلى السلطان اتجاه «شرقى» وشرقى هنا تعنى طبيعة التوجهات المؤلهة للحاكم، والمعطلة لتقدّم الجماعة، أو هى كما يقول هيجل: «روح عامة معوقة لسموّ الجماعة وتقدمها ومؤسسة لروح الاستبداد.. وأينما وُجدَتْ هذه الروح فثمّة الشرق بصرف النظر عن الموقع الجغرافى».

ساند أبو حامد الغزالى، بالرغم من ادعائه للمثاليات، السلطان ودولته فى «التبر المسبوك».. والغريب أنّ صاحب «إحياء علوم الدين» لم يتطرق إلى الخلافة كمفهوم سياسى إسلامى.

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، والكلام هنا من كتابه «التاج فى أخلاق الملوك».

كذلك، نحى هذا المنحى - أيضا - ابن تيمية فى « السياسة الشرعية »، وكذلك فعل ابن قيمّ الجوزية (تلميذ ابن تيمية) فى « الطرق الحكمية »، بل إن معظم الفقهاء المسلمين قد مالوا إلى واقعية سياسية بعيدة عن مثاليات الدين.. وعزف الجميع للحاكم مقولات مريحة ومُبَرِرّة للاستبداد.. فلكل سلوك سياسى - أيا كان - سند شرعى، وإن تعذّر هذا السّند وجب خلقه (تلفيقه).. وهذه مهمة من مهام « الفقهاء المصاحبين للسلطان »... بل إنّ كثيرين من هؤلاء الفقهاء ضمّنوا مؤلفاتهم أبوابا بعنوان « الحيل الشرعية »؟!! ومن عجب أنهم غطّوْا على إهدارهم للمبادئ الإسلامية المعلنة، برفعهم من شأن المظاهر الشكلية للدين كاللحية والحجاب.. وهكذا ترسّخ على الشاطئ الجنوبى من المتوسط دولة السلطان.

تخلّصَتْ الجماعات البشرية المسيحية فى الشاطئ الشمالى من المتوسط. من أمير « مكياڤيلّلى » وتحولت إلى نظم مدنية دستورية وإلى مبادئ مثل « سلطان الدولة » و « العقد الاجتماعى ».

« ويظل المستبد الشرقى جاثماً على صدور الناس، مفوضاً وزيره الأكبر فى إخضاع الناس، بينما هو يستمتع كحاكم عام ».. وتعبير مونتسكيو[١] هذا يذكرنا بقول نزار قبانى عن الحكام العرب: « الأنبياء الكاذبون يقرفصون على الشعوب ولا رسالة ».

وسبق ابن خلدون « منتسكيو » فى مقدمته حيث قال: « لا تحتاج الدولة السلطانية فى بداية التأسيس إلى الكثير من الوظائف نظرا « للطابع البدوى »

---

(١) مونتسكيو: «روح القوانين».

الغالب على التأسيس، والذى يعتمد على العصبية والتعاضد.. وما أن تتلاشى جذوة العصبية الحاكمة، فإن الجماعة تدخل فى دور «عمران حضرى» يميل إلى الاستقرار ورقّة الحياة، ويبدأ السلطان فى «الانفراد بالمجد» وتنمو الحاشية السلطانية، وتظهر معها طائفة «الموالى والمُصْطَنعين».. ثم تدخل دولة السلطان فى مرحلة «الهرَم والاضمحلال» حيث تضيق أحوال الرعايا، ويتعذر استيفاء حقوق الحاشية فتتوجه إلى استلاب الرعايا.. ويظهر الخوارج وتبدأ تمردّات الأطراف».

وتظهر عبقرية ابن خلدون وهو يتحدث عن وظائف الحاشية السلطانية فيقول: «تكون لوظائف السيف أهمية قصوى فى بداية التأسيس.. ثم تسود وظائف القلم ... ثم تستعيد وظائف السيف مكانتها حيث يعتمد عليها السلطان فى محاولته الدفاع عن نفسه ومواجهة الخارجين عليه».

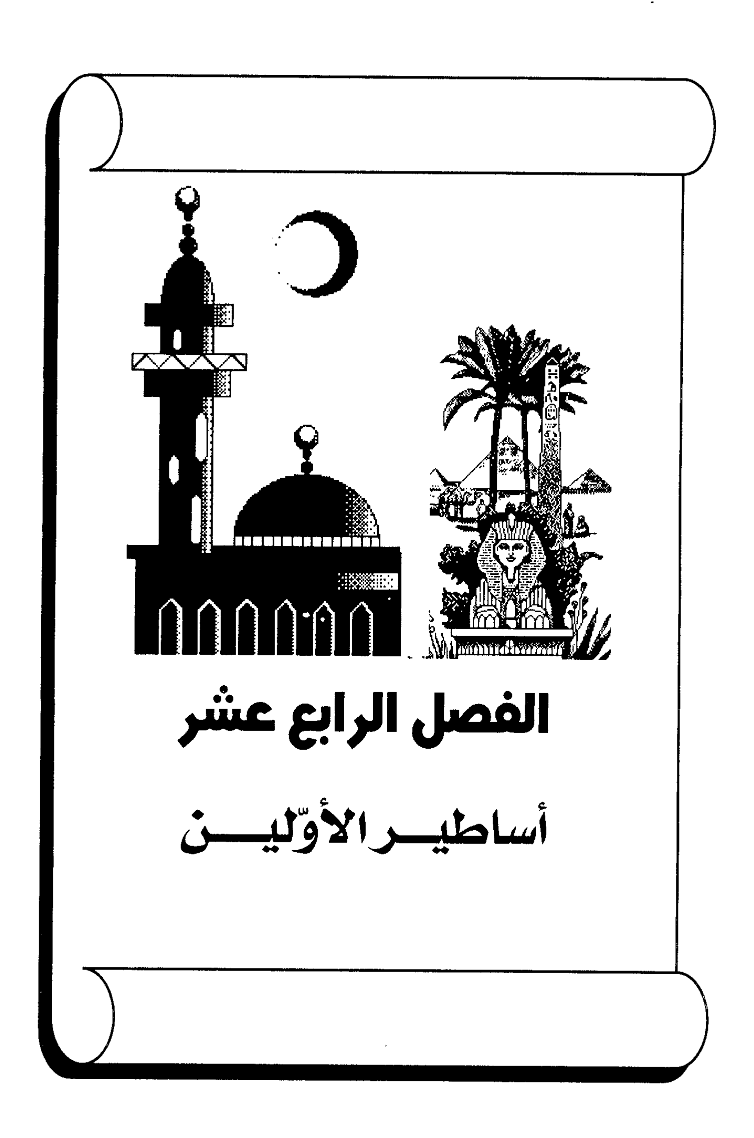
تجاوزَ الشاطئُ الشمالى من المتوسط «أمير» مكيافللى» ورسَّخَ مبدأ سلطان الدولة.. ووقفنا نحن ـ فى الشاطئ الجنوبى من المتوسط ـ مع ابن خلدون عاجزين أمام: «دولة السلطان» التى تمثل مرحلة «الهرَم والاضمحلال»...

ويحق لنا أن نسأل ـ بعد هذا العرض ـ إلى متى تعيش الجماعات العربية والإسلامية فى ظل «دولة السلطان» ومتى تتحوّل إلى «سلطان الدولة».. لم يحدث أنّ «تكوّن رأى عام موثر» فى أى بلد من البلاد العربية والإسلامية.. لماذا؟ لأنّ البشر فى هذه المناطق غير قادرين على «تكوين رأى عام» يخشاه الحاكم أو الدولة.. لأنّ البشر عبيد الدولة والسلطة القاهرة.. ولو استولت عليهم جماعات دينية (كما حدث فى إيران أو السودان) فإن هذه

الجماعات ترهب البشر بالسلطان السماوى (وهم يمثلونه) كما ترهبهم بالنار وتمنّيهم بالجنة .

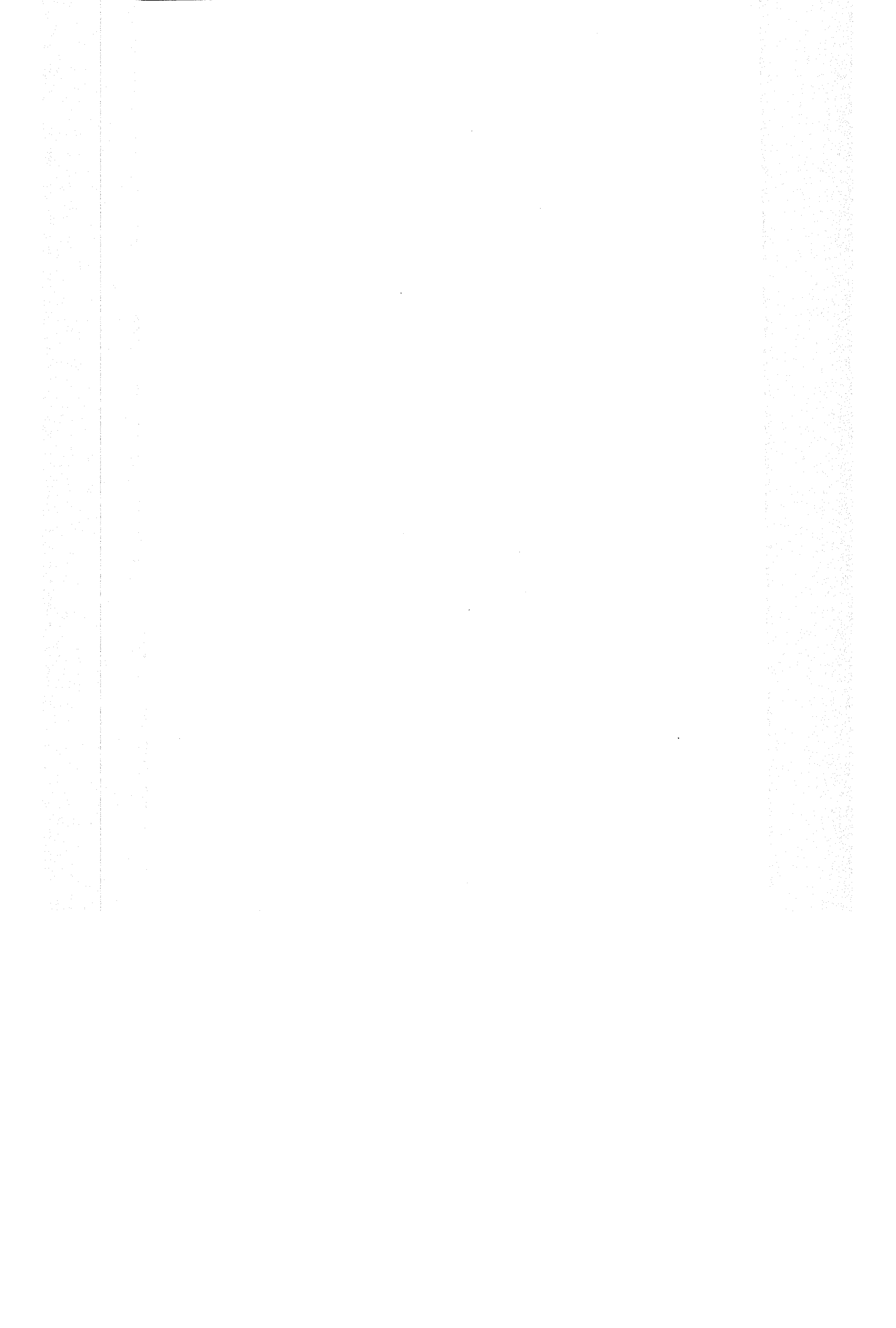
كان البشر فى العصور الوسطى فى حال كحال البشر العرب والمسلمين الآن، إلا أنهم أسقطوا الدول المستبدّة، كما أسقطوا الإرهاب الدينى الذى كانت الكنيسة تمثله، وذلك كلّه حدث بتكوين « رأى عام » أعاد رجال الدين إلى كنائسهم، وصاغ العقيدة البروتستانتية الاحتجاجية الجديدة، وأدى إلى قيام الثورة الفرنسية، التى رفضت القديم (بما فيه النظام الملكى) وآمنت بالحرية والإخاء والمساواة بين البشر.

☆☆☆☆☆



الفصل الرابع عشر

أساطير الأوّلين



الفصل الرابع عشر

أساطير الأوّلين

(أ)

مفهوم الأساطير وقِدَمُها

سَطَر الكتابَ: كتبه، ومثلها سطَرَه، وفى القرآن الكريم: ﴿**إنْ هَـذَا إلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾ [الأنفال: ٣١]، وواحد الأساطير «إسطار وإسطارة» و«إسطير واسطيرة» و «أسطور وأسطورة»، والكلمة منقولة إلى الساميات من اللغة المصرية القديمة (كما يرى الدكتور لويس عوض[١]) حيث كان كهنة النواويس[٢] ينتشرون فى كافة القرى والأقاليم المصرية، ويأسرون ألباب الناس بسحر الحديث عن «الساتيرات» أى الأساطير، وللكلمة صلة «بالسورتا» المصرية القديمة والتى تعنى المتن المستخدم فى القداس، والتى انتقلت للساميات فى: «سورة من سور القرآن» وفى «سِفر» العربية، وفى «سيفر» العبرانية بمعنى كتاب، وفى «سوارا» و «صوارا» الآرامية والسريانية بنفس المعنى.. وبدهىٌّ أنّ الساميّين (عرب وعبرانيين) كانوا بدواً لا يعرفون الكتاب والكتابة، أما المصريون فمنذ أوزيريس[٣] كما تقول «الجبتانا»

(١) لويس عوض «مقدمة فى فقه اللغة العربية».

(٢) الناووس (الجمع نواويس) أديرة الكهنة الدجالين فى الزمن القديم، قد تكون كهفا فى جبل أو خُصّا.

(٣) «الجبتانا» أسفار التكوين المصرية، تنسب لأوزيريس استخدام البردى للكتابة، ومعرفة الحروف والكتابة.

يعرفون الورق (البابَيْروس) وكل اللغات نقَلت الكلمة المصرية Paper .

ولهذا فإن الساميين (عرب وعبرانيين) كانوا يحفظون متون أنبيائهم . . وليس حفظ متون الأنبياء تقليدا فى أديان جنوب شرق آسيا (الهند . الصين . اليابان) لأنها أمم عَرَفَتْ « الورق المطبوخ » ربما بعد المصريين بألفى عام، كذلك فإن أنبياء تلك المنطقة ظهروا ما بين الألْف الأولى قبل الميلاد، وأوائل القرون الميلادية . . ولا يزال « حفظ القرآن الكريم » شاهدا على التقليد القديم المرتبط بظهور الإسلام بين البدو، الذين ليست لهم أدوات الكتابة، وليس شائعا بينهم القراءة والكتابة، فاحتفظوا بالمتن المقدّس فى صدورهم، كذلك تكاد اللغة العربية تكون اللغة الوحيدة التى لم تأخذ « البابيروس » أو الـــ Paper المصرية، وأحلّت محلها الورقة والورَق باعتبار ورقة الشجرة مسطحة وتشبه الأشياء التى كان العرب يكتبون عليها : لحاء النخل، لحاء الشجر، الحجارة المسطوحة، أكتاف عظام الحيوانات . . .

كثرت الأساطير لدى المصريين واليونانيين والرومان، لأن البيئة الزّراعيّة ذات الغابات (فى ذلك الزمان) كانت تستثير مخاوف الإنسان وأوهامه، فاستغل ذلك الكهنة ورجال الدين، وكان كهنة النواويس المصريون ومساعدوهم، هم مراكز الأخبار فى ذلك العالم القديم المظلم، والذى جاءته القتامة والعمى من الإله آمون، وكلمة آمون القديمة تحمل معنى التخفى والظلمة والعمى . . . ويعتقد الكثيرون من قارئى اللغة المصرية أن العين كانت تُستبدل بالهمزة لدى المصريين (العين أسهل فى إخراجها من الهمزة) (والاسم القديم لإخطاب الحاليّة (فى الدقهلية) كان « أتريب » وكانت تُنطق فى العصر العثمانى « عتريب » وبعض أهل الدقهلية ـ حتى اليوم ـ يقولون عن

أسرة « الإتربى » الأتاربة أو العتاربة) . . وهناك شك فى أن « العمى والتخفّى » فى اللغات السامية نُقلَتْ عن « عامون أو آمون » المصرية والتى سمعها إبراهيم وموسى وداود وسليمان وبقية أنبياء السامية الذين تردّدوا على مصر، والذين لم يترددوا عليها .

وكان كهنة النواويس المصريون ـ كمعظم رجال الدين ـ يتكسّبون بالدين، فيروون ـ هم ومساعدوهم ـ الأخبار للناس (كما سبق أن ذكرنا) كما يروون « الساتيرات » أو الأساطير التى تتصل بعالم الآلهة، وطريقة خلقهم للعالم، وكيف جعلوا الحيوانات والبشر ذكورا وإناثا، حتى يستمروا فى الوجود بالرغم من الموت الذى كتبه الآلهة على الناس، وحيث استمتعوا هم بالخلود، والصراعات والمشاكسات بينهم كآلهة، يريد كلٌّ واحد منهم أن يكون لديه أكبر عدد منَ الزوجات أو الرّبات، فيُولَد له أعدادٌ كبيرة من الآلهة والربات يساعدونه فى صراع الآلهة .

الإنسان فى العصور القديمة مختلف عن إنسان اليوم . . فالإنجازات العلمية الكثيرة أقنعت إنسان اليوم بأن العلّيّة (السبب والنتيجة) هى أساس القوانين التى تحكم الكون؛ كذلك أقنعته أنه إذا رأى ظاهرةً ولم يفهم العلاقات داخل مكوناتها، فعليه بالبحث والتجريب حتى يصل لأسرار تلك الظاهرة . . أمّا فى عَصْرَىْ الأسطورة والدين، فكان الإنسان يلجأ إلى الكهنة، ليس فقط لمعرفة أسرار عالم الآلهة، بل أيضا لمعرفة أسرار ظواهر الطبيعة التى كان عاجزاً عن فهمها . . كذلك كان الإنسان فى حاجة إلى من يساعده ضد السحر والتمائم والأحجبة، التى يصنعها أعداؤه عند كهنة النواويس . . ولذا كان مضطرا للذهاب إلى كاهن نواويس آخر، حتى يفكّ السحر عنه أو يبطل

عمل التمائم والأحجبة.

لقد ظل هذا الظلام فى أوربا حتى أواخر العصور الوسطى؛ ثم تحررت العقول من الأوهام والخرافات والأساطير.. أما عندنا - فى العالم العربى والإسلامى - فلم يبدأ النور يبدّد الظلمة إلا منذ منتصف القرن العشرين، حيث إن المستفيدين من الكهانة باسم الدين، يحاولون التصدى للزحف العلمى وممثليه، ويرفعون «وصمة الكفر» فى وجه كل من يحاول التنوير.. وهؤلاء المستفيدون بالدين يمثّلون صناعة رائجة فى أيامنا.

☆☆☆☆☆

(ب)

صناعة الدين فى المنطقة العربية والإسلامية

اهتمت منظمة اليونسكو فى شتاء ١٩٩٥ بدراسة عن الأديان، سواءً فى ذلك الأديان التى يؤمن بها مليارات الناس (كالمسيحية والإسلام والبوذية والكنفوشيوسية) والأديان ذات العدد المحدود من المنتمين إليها .. وأرفقَتْ بالدراسة نماذج من الشرائع العامة للأديان الكبرى، ونماذج من الشرائع الغريبة لبعض الأقليات .. ففى جبال منغوليا، لا تزال توجد أعداد قليلة لدين ذى شريعة خاصة تسمح بتعدد الأزواج لزوجة واحدة، فضلاً عن أسطورة محفوظة عن خَلْق العالم .. كذلك كانت للمنظمة دراسة قيّمة عن « اللادينيين » (خاصة فى منطقة أعالى النيل) واعتقاداتهم أو فلسفاتهم وما يدور فى أذهانهم عن خلق العالم والآلهة التى تحركه، وطرق زواجهم وطلاقهم ودفنهم، وما هم عليه من أخلاق .. ومما لاحظه الأنثروبولوجيون الذين قاموا بتلك الدراسات، أن هؤلاءالناس (فى أعالى النيل) لا يكذبون ولا يسرقون (حتى أن البعثة أعدّت عُلَبا معدنية جميلة وتركتها متعمّدة قريبا من عيون الأطفال وأيديهم، إلا أن الأطفال لم يمدّوا أيديهم إليها بالرغم من شغفهم بها) ولا يعتدون على زوجات الآخرين، ولا توجد فى مجتمعهم حالة واحدة من حالات الشذوذ الجنسى.

واهتمت هذه الدراسة بأعداد المشتغلين بالدين فى كل ملة، وتبَيّن أن عدد رجال الدين المسلمين فى العالم، يكاد يصل إلى عشرة أمثال المشتغلين

بالدين فى بقية أجزاء العالم.. حتى أن المنظمة عبّرَتْ عن ذلك بتسمية غريبة «صناعة الدين فى المنطقة العربية والإسلامية»، وذكرت الدراسة أعدادَ أماكنِ العبادة فى كل ملّة، وظهر من الدراسة كثرة المساجد بعدّة أضعاف عن كنائس المسيحيين ومعابد البوذيين والكنفوشيوسيين وغيرهم.

أصبح الآن للأزهر فى كل عاصمة من عواصم المحافظات جامعة كاملة.. وفى كل جامعة كلية لأصول الدين، وأخرى للشريعة والقانون، وثالثة للدراسات الإسلامية. وما يقال عن مصر، يُقال مثله عن كثرة الكليات التى تدرّس الدين، فى كل البلدان العربية والإسلامية.

و«صناعة الدين» فى البلاد العربية والإسلامية صناعة كثيفة، فهذه الأعداد من الخرِّيجين، يشتغلون فى الخطابة الدينية والوعظ وحلْقات التوجيه الدينى فى الجوامع، كما أنهم مسئولون عن إقامة الشعائر الدينية فى الصلوات الخمس وصلاة الجمعة، فضلا عن أجهزتهم الإدارية والقياديّة.. وهذا هو حال العرب والمسلمين منذ انتشار الإسلام.

إن العقل العربى والإسلامى تأثر بأفكار هؤلاء الدعاة منذ الدولة الأموية، وقد رفض أسلاف هؤلاء أى فكر جديد، أو تفسير جديد للدين.. إنّ كلَّ المثقفين المهتمين بمستقبل العرب والمسلمين يعلمون أن هؤلاء هم أتباع الاتجاه السلفى السنّى، الذى سبق أن قضى على المعتزلة (وهم أقوى مفكرى الإسلام) وعلى ما أطلقوا عليه الخوارج[1] وبخاصة «الإباضية» الذين يفسرون الإسلام تفسيرا عقليّا عميقا.

---

(١) الخوارج - عند السلفيين - من خرجوا على اجماع الأمة. أما الخوارج فينسبوا أنفسهم للآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وكلنا يذكر موقفهم من الشيخ على عبد الرازق، فى «الإسلام وأصول الحكم» ومن الدكتور طه حسين وكتابه «فى الشعر الجاهلى».

إن دراسات علم اللغة، وعلم اللغة المقارن تؤكد أنّ: «أية مجموعات بشرية تتحدّث لغة ما، فإنها ـ بعد بضعة قرون ـ تحوّل كل جماعة منها لهجتها الخاصة إلى لغة» حدث هذا للمجموعة الإندو أوربية (فتولّد عنها اللغة الهندية واللغة الأورديّة (باكستان) واللغة اللاتينية).. كذلك فإن اللغة اللاتينية ظلّت مسيطرة على الأوربيين حتى أوائل القرن السابع عشر، ثم تحوّلت كل لهجة من لهجاتها إلى لغة مكتوبة (الفرنسية. الانجليزية. الألمانية..).

وتؤكد هذه الدراسات أن اللغة العربية (وهى أقدم من اللاتينية فى انفصالها عن الآرامية أو السريانية) ظلّت على ما كانت عليه زمن ظهور الإسلام، فلم تخرج منها لهجة فتتحوّل إلى لغة مستقلة، ويُرجِع الدارسون ذلك إلى وجود القرآن الكريم والدراسات الإسلامية المختلفة.. إن القرآن ـ حتى الآن ـ يُقرأ بنصّه العربى بين الهنود المسلمين والباكستانيين والإندونيسيين والماليزيين والبنغاليين.. بل إن الجميع يعرفون القاعدة الأصولية: «لا يجوز التعبّد بالقرآن إلا بنصه العربى».. إن الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد» قد ترجم إلى كافة اللغات، حيث يجرى التعبد بهذه الترجمات.

إن استمرار اللغة العربية الفصحى بين العرب، أمر يوحّد العرب جميعا، أى أنه أمرٌ طيب.. لكنّ الخوف الذى يُسْتَثار، والذى يردّدُه عنا كثيرون من المؤرخين ودارسى الحضارات الإنسانية، أن بقاء اللغة العربية على ما كانت عليه، يوحى «بتصلّب العقل العربى والإسلامى» ومعاداته للتطوّر والتجديد.

(جـ)

أساطير خلق العالم وانبثاق الآلهة

■ **أولاً : عند المصريين :**

« فى البدء لم يكن إلا ماءً وضباب[1] . . ولم تكن حياة . . ولم تكن نباتات ولا دبابات . . طبقتان من المياه، بينهما فاصل فضّىّ من النور، الجزء الأسفل من المياه هو « نون » المحيط الأزلىّ . . مياه وضبابٌ وظلمة، فالشمس لم تكن قد خُلِقتْ بعد . . على سطح المحيط الأزلىّ « نون » طَفَتْ بيضة ذهبية، فى حجم ألف بيضة من بين النعام، ثم حدث انفجار هزّ الكون كلّه، وانفجرت معه تلك البيضة . . وانبثق « أتوم » أول الآلهة، ودفع الطبقة العليا فارتفعت وكانت السماء، وانفتقتْ عن الطبقة السفلى التى هى البحار .

كانت الظلمة لا تزال مسيطرة، فَعَطسَ « أتوم » قائلا : « تشُو » فظهر الرب « تشُو » رب الفضاء، وتفل (بصق) « أتوم » قائلا : تفْ »، فكانت « تفْنوت » ربة الندى . . إذن كان « أتوم » هو الكلمة، وكان هو الخالق، خلق « تشُو » ربَّ الفضاء ، وخلق « تفنوت » ربّة الندى .

ظل « أتوم » فى الظلمة يراقب « تشُو » و« تفنوت »، ثم بدا لأتوم القادر على الخلق بالكلمة أن يزوج الربّة « تفنوت » للربّ « تشو »، فقال : ليكن زواج بين الاثنين، فتزوجا، وحملت تفنوت ألف عام، ثم أنجبت ابنتها

---

(١) عن «الجبتانا» أسفار التكوين المصرية . جمعها مانيتون السمنودى . والرواية للأب أبيب النقادى . الجمع والتحقيق والمراجعة التاريخية والصياغة العربية : على الألفى .

« نوت » سيدة السماء، وابنها « جب » الذى هو جسد الأرض.

وأمر أتوم « نوت » سيدة السماء أن ترفع السماء بعيداً أكثر عن سطح « نون »، ولما رأى « أتوم » زرقة السماء وقتامتها، حيث لم يكن ليل ولا نهار، قال لنوت: « عليك - أيتها الرّبة - أن تزينى السماء، فتجعلى فيها مصابيح بالليل ونورا فى النهار » فاستجابْت « نوت » وكان صباح وكان مساء.

ولكى يكون صباح صنعت « نوت » قرصا كبيرا من ذهب لينير النهار، وقرصاً أصْغَرَ من الفضة، تعاونه مصابيح صغيرة لإنارة الليل.. وفجأة تحرّك قرص النهار الذهبى وصارت له الكلمة فقال: « أنا.. رع.. رب الأرباب، صارت لى الكلمة، ولم تعد الكلمة لأتوم » وفى الليل اهتز القرص الفضى، ونطق بالكلمة قائلاً: « لم أعد مجرد مصباح بل أنا « خِنْصُو » إله القمر الشجاع المقامر ».

ولماتأمل « رع » كلَّ ذلك وجده حسنا: أرضٌ تحوى جبالاً ومرتفعاتٍ، وبحاراً ووديانا. وسماءٌ تزيّنها شمس بالنهار، وقمر ونجوم بالليل. وفكر « رع » قائلا: « وماذا بعد؟ إننى محتاج إلى الحكمة« ولما كانت كلمات رع كلمات خالقة، انبثق « تُحوت » إله الحكمة.

قال رع لتحوت: « إن منظر السماء صار جميلا بالنهار والليل، وإن البحر جميل بحركته واضطراب أمواجه.. لكن منظر الأرض الجدباء المقَفرة لا يسرّنى، أين حكمتك يا تحوت ». فقال تحوت: « أى رع، ربَّ الأرباب، بما أنّك فوضتنى بالكلمة.. وبما أن الأرباب تخلُق بالكلمة.. فلتكنْ « حتحور » ربّة للأنوثة، وليكن « أبيس » ربا للذكورة.. وليكنْ ذكر وأنثى فى كل شئ.. نباتات تَنْبُتُ من جسد الأرض ذكر وأنثى، وأسماك فى البحر، ذكر وأنثى،

ودبابات على الأرض ذكر وأنثى، وطيور فى السماء ذكر وأنثى».

قرر «رع» أن يجعل الآلهة ذكورا وإناثا يتوالدون وفق مشيئته هو[1]، وعرض رع إرادته على تاسوع الآلهة.. ولكن الآلهة رفضوا، خوفا من تحوّل الآلهة لكائنات تلد وتموت.. استاء «رع» من رفض إرادته، وقال فى نفسه: «كيف أكون رع رب الأرباب وتُرفض إرادتى» وأطلق «رع» كلمة الخلْق فظهرت «قمّة الغرب» عروسا سماويّة جميلة تعشقها عيون الآلهة وقلوبهم.. عَشق «أتوم» قمة الغرب، وتقدم يعرض حبه على «قمة الغرب» فطلبَتْ من «أتوم» أن يعطيها بائنة أو مهرا، فأمر «أتوم» «جب» إله الأرض، فأطلق جب من جوفه كل زهور الأرضين من نرجس ولوتس وآس ورياحين، انتعشت «قمة الغرب» ورضيت أن يضاجعها أتوم وحملت وأنجبت «خنُم» و «بتاح».. وتقدم «أتوم» مرة ثانية «لقمّة الغرب» فطلبت منه بائنة أو مهرا، فأمر «أتوم» «جب» رب الأرض فأخرج من جوفه كلّ فواكه الأرضين من رمان وعنب وبلح وجمّيز وتفاح.. فأكلَتْ منه «قمة الغرب» وضاجعها أتوم، فحملت منه ثم ولدتْ التوأم «آمون» و «آتون».

☆☆☆☆☆

(1) يبدو أن مانيتون جمع أسفار التكوين المصرية من أماكن ومعابد مختلفة، الأمر الذى تسبب فى بعض الاضطراب فى الجزئيات، ولكن الخط العام لأسفار الجبتانا مترابط أكثر من العهد القديم.

■ **ثانيا : عند اللادينيين فى أعالى النيل :**

فى صيف ١٩٧٣ (سبتمبر)، وفى رحلة سفارى بدأت من الحديدة (فى اليمن الشمالى فى ذلك الوقت) ثم إلى عدن فى اليمن الجنوبى، ثم عبرنا البحر الأحمر إلى الصومال الفرنسى (جيبوتى الآن) . . ثم تجوَّلنا فى الغابات غربا، فطُفْنا بالطَّرف الشمالى من بحيرة فكتوريا، ثم أعالى النيل، ربما فى جنوب السودان أو تنزانيا الحالية . . وقابلنا شبابا فى تلك المناطق التى لا تعرف الأديان . . بعض هؤلاء الشباب كانوا يتعلمون فى الاتحاد السوڤيتى (القديم) وبعضهم فى الخرطوم، وبعضهم فى القاهرة . . وكانت الإنجليزية وسيلة التفاهم مع هؤلاء الشباب .

قالوا لنا : إن بعض القبائل هنا تتكلّم السّواحيلى[١] وبعضها قادر على التفاهم بالنجليزية ضعيفة، وصلت إليهم عن طريق الجيش المصرى بقياداته الانجليزية فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . . بل إن أسماء القيادات الانجليزية للجيش المصرى محفوظة لدى الأجيال القديمة، وتظهر فى أسماء الرجال مثل : « كِتْشير » و « غوردون » .

عـرفنا من هؤلاء الطلاب أن الناس هنا لا صلة لهم بالأديان، لا هُمْ ولا آباؤُهم وأجدادُهم، حيث إن المركز التبشيرى للمسيحية بعيد عنهم وعن سيطرة قبائلهم . كذلك فإن الآباء والأجداد (كما ترجموا لنا قول أحد كبار السن يتكلم بلغة الزولو كما قالوا) حاولوا الاستعانة بربّ المسيحيين وبرب المسلمين، ولكنّ الربَّيْن ـ كما تبيّن لهم ـ لا جدوى من الاستعانة بهما إذ لا

(١) «السواحيلى» لغة على شواطئ البحر الأحمر، وقد تتعمق فى داخل إفريقيا . . وهى تركيبة من العربية والإنجليزية والإيطالية مع لمسات إفريقية .

تزال الأمراض تأكل الناس، وبخاصة: الحُمّى الصفراء والملاريا والبلهارسيا والدوسنتاريا.. وتلك الدودة الرهيبة التى تقفز فتخترق الجلد، فيصاب من تخترق لحم ساقه بالعمى ثم الموت فى عدة ساعات.... ولا علاج، كما فهمنا، إلا بالإسراع بحرق المكان الذى دخلته الدودة.. ورأينا سيقانا (لرجال وشباب) محترقة فى أماكن مختلفة.

وقال لنا هؤلاء الطلاب: إن الأميّة كاسحة، وهم لا يعرفون أسماء الأمراض.. كذلك لا يعرفون اسماً واحداً لله، فلدى قبائل الزولو كلمة تعنى ذلك الذى يسكن فى الشمس، وقبائل تراه يسكن القمر.. والاعتقاد العام لديهم أن الله لا يهتم بالبشر لأنّه لم يخلقهم، لأن المسئول عن خلقهم هم التنانين الأربعة التى تقذف الماءَ من أفواهها والتى يعتبر المعالجون الشعبيون ممثلين لها.

وقال حكيم طاعن فى السن (بترجمة الطلاب): «الآلهة تعيش فى الأعالى، بعد السحاب، والآلهة كقرود الشجر، لا تهتم بما تحت الأشجار، بل تهتم بما على الأشجار والنخيل من ثمار، وهم عادةً لا يشربون من تحت الأشجار، بل يشربون ماء المطر، ويحطمون ثمار جوز الهند ويشربون ما فيها من ماء.. وكذلك الآلهة: لا يهتمون إلا بطعامهم وشرابهم ونسائهم، وكذلك لا يهتمون بمن على الأرض، إلا لو أعجبتهم فتاة فقد يختطفونها».

سألناهم عن الزواج وعن الموت والدفن، فقالوا: بعض شيوخ القبائل يعقد مراسم سريعة للزواج، ربما يكتفى بوضع يديه علي العريس والعروس ويجعلهما زوجين، والأحسن حالا قد يستقدمون راهبا أو شيخاً من أماكن بعيدة، ليعقد لهم المراسم.. أما مراسم الموت فتنتهى بحمل الميت بحمّالة

خشبية ودفنه فى منطقة بعيدة عن القرية، وغالبا ما تنهشُ الحيواناتُ الجثث.. وسمعنا عن قبائل تفضّل حرق موتاها.. ولكننا لم نَرَ ذلك.

سألناهم عن تعليل الأجداد والقدامى لمياه النيل، فقالوا: كما سبق أن أشرنا، فإن كثيرين يعتقدون بأسطورة التنانين الأربعة التى تتناوب على الوقوف بأعَالى القنوات والأنهار وتصب المياه التى لا تنقطع من أفواهها... ونظرا لاختلاف ألوان تلك التنانين تتعدّد ألوان المياه.. ويروى آخرون أسطورة عن عدد ضخم من الفيلة النائمة[١] فى أماكن فى أعالى القنوات والأنهار، وخراطيمها لا تتوقف عن ضخ المياه فى تلك القنوات والأنهار.

سألناهم عن الطب والعلاج، فقالوا: على بعد مسافات بعيدة، تستغرق وقتا طويلا، فى عبورها، حيث لا طرق، ولا أمان فى السير، توجد مستشفى مصرية أقامها جمال عبد الناصر، وفيها أطباء مصريون، وتقوم بعلاج من فى الأجوار.

كما توجد، على مسافة أخرى مستشفى «القديس السويسرى» [٢] وتتبع لبعض الإرساليات الألمانية والسويسرية، وهى تقدّم خدمة طبية لمن فى أجوارها، ولمن يستطيع الوصول إليها.

وقال أحد الطلاب: نظرا لاكتظاظ مستشفى جمال عبد الناصر،

(١) الطلاب يشيون إلى ما يعرف علميا بمقبرة الأفيال، إذ حين يشعر الفيل بالضعف والإعياء، يذهب إلى ذلك المان الذى تحرسه فيلة قوية.. ويعتقد الطلاب أن هذا هو سرّ أسطورة الأفيال التى تقذف بالمياه من أفواهها.

(٢) «القديس السويسرى» يقصدون ألبرْت شويتزر St. Albert Switzer كان راهبا فى تلك المناطق، ترك الرهبنة، وعاد إلى سويسرا فدرس طب المناطق الحارّة. وعاد إلى نفس المنطقة يعالج الناس.. ومُنح جائزة نوبل.

ومستشفى القديس السويسرى بالمرضى، ولبعدهما عن هذه المنطقة، فإن الناس هنا يُقبلون على الطبّ الشعبى، ودعنا نسميه «اللاطبّ الشعبى»، فهؤلاء الأدعياء الذين يسرقون أموال المرضى والمتألمين والموتى، يُعالج بعضهم بالكىّ، وبعضهم بالتشريط والتجريح «لفصد الدم الفاسد»، ومنهم من يُعالج بالأعشاب المفيدة وغير المفيدة، وبعضهم يعالج بحقن شرجية، أحيانا تكون مميتة.

وقال أحد الطلاب: هنا ـ أيضا ـ مجموعة من الأطباء السحرة، لهم أخصاص أو أعشاش، ويوهمون البسطاء بأساطير عن عالم الجن، والعفاريت، وأن معهم «العَهْد» مع هؤلاء غير المرئيين.. ويستطيعون أن يوقفوا سحرهم، فالسيدة التى لا تحمل، من الممكن أن تحمل، عندما تبيت ليلة واحدة، أو ليلتين، فى عُش ملحق بعُشّ ذلك الدجّال.

وقال آخر: ناهيك عن وَفَيَات الأطفال هنا، لا يَزال الجُدرى يأكل وجوه بعض الأطفال، ولا تزال الدفتريا تخنق الكثيرين منهم.. وأمراض أخرى وأعراض أخرى.. وَفَيات الأطفال هنا تزيد عن نصف عدد الأطفال.. وأعداد كبيرة من الأطفال يفقدون نظرهم.. وآخرون يعيشون حياةً خير منها الموت.

وقال أحدهم: لعلكم تتسامحون مع هؤلاء البسطاء حينما تسمعون عن أساطيرهم وزعمهم بأن الله لا يهتم بمرضاهم وظروفهم، وبأن الله فى بعض أساطيرهم كقرود الشجر، لا يُهمهم من يعيش تحت الشجر، وكذلك «الله» لا يهمه من يعيش على الأرض.

☆☆☆☆☆

■ ثالثا: عند العبرانيين واليهود فى العهد القديم أساطير سفر التكوين[1]

«فى البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرفّ على وجه المياه، وقال الله «ليكن نور» فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهارا، والظلمة دعاها ليلا. وكان مساء وكان صباحُ يوما واحدا. وقال الله «ليكن جَلَدٌ فى وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياهٍ ومياهٍ» فعمل الله الجَلَدَ، وفصل بين المياه التى تحت الجلد، والمياه التى فوق الجلد. فكان كذلك. ودعا الله الجَلَدَ سماءً، وكان مساء وكان صباحُ يوما ثانيا. وقال الله «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة» وكان كذلك.

ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً، ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: «ولتنبت الأرض عشبا وبقلاً يُبْزِرُ بَزْرًا، وشجراً ذا ثمر، يعمل ثمرا كجنه بزره فيه على الأرض». وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزراً كجنه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا.

وقال الله: «ليكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآياتٍ وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنواراً فى جلد السماء لتنير على

(١) بدهى أن أ«أساطير خلق العالم المصرية، وانبثاق الآلهة، سابقة بألفى عام عن العهد القديم، وواضح أن معظم الأساطير العبرانية منقولة عن «الجبتانا» المصرية، والجبتانا أكثر منطقية فالعالم قديم كهيولى صماء، ويحدث انفجار فتكون الأرض والسماء، وينبثق الإله الأول «أتوم».

الأرض » وكان كذلك فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوما رابعا.

وقال الله: « ولتفض المياه زحافات ذات نفس حيّة، ولْيَطِرْ طير فوق الأرض على وجه جَلَد السماء » . فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحيّة الدّبابة التى فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائر ذى جناح كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن وباركَها الله قائلا: « أثمرى وأكثرى واملأى المياه فى البحار. وليكثر الطير على الأرض » وكان مساءً وكان صباح يوماً خامساً.

وقال الله: « لتخرج الأرضُ ذوات أنفس حية كجنسها: بهائم ودبّابات ووحوش أرض كأجناسها » وكان كذلك.. وقال الله: « نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض.. فخلق الله الإنسان على صورته، ذكراً وأنثى خلقهم.. رأى الله كلَّ ما عمله فإذا هو حسن جدا، وكان مساء وكان صباح يوما سادسا.

فأكْملَت الأرض والسموات وكل جندها، وفَرَغَ الله فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع.. وبارك الله اليوم السابع وقدّسه..

وجبل الربّ الإله آدم ترابا من الأرض، ونفخ فى أنْفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حيّة. وغرس الربّ الإله جنّة فى عدن شرقا، ووضع هناك آدم الذى جَبَلَهُ، وأنْبَتَ الربّ الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل،

وشجرة الحياة فى وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشرّ، وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رءوس.. «فيشون» المحيط بجميع أرض الحَوِيلَة.. واسم النهر الثانى «جيحون» وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث «حِدّاقِلْ» وهو الجارى شرقى آشور، والنهر الرابع الفرات.

وأخذَ الربُّ الإله آدمَ ووضعه فى جنة عَدْنٍ، ليعملها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلا: «من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت». وقال الرب الإله: «ليس جيدا أن يكون آدمُ وحَده، فأصنعُ له مُعينا نظيره» وجعل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدمُ ذات نفسٍ حية فهو اسمها[1].. فأوقع الربّ الإله سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحما، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأةً، وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: «هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى. هذه تُدْعى امرأةً لأنها من امرئ أُخذَتْ» لذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً، وكان كلاهما عريانينْ آدمُ وامرأته، وهما لا يخجلان.

وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرّيّة التى عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: «أحقّا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟» فقالت المرأة للحية:

---

(١) ﴿وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، وفى شرحها عند المفسرين «اسم كل شئ كالبعير والشاه...» وهو نفس المقصود فى سفر التكوين.

« من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة، فقال الله لا تأكلا منه ولا تَمَسّاهُ لئلا تموتا » فقالت الحية للمرأة: « لن تموتا! بل الله عالمٌ أنّه يوم تأكلان منه، تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفَيْن الخيرَ والشرّ » . فرأت المرأة أن الشجرةَ جيدةٌ للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهيّة للنظر. فأخذتْ من ثمرها وأكَلَتْ وأعطتْ رجلها أيضا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآذر. وسمعا صوتَ الربّ الإله ماشيا[1] فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الربّ الإله فى وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم وقال له: « أين أنت؟ » فقال: « سمعت صوتك فى الجنة، فخشيت، لأنّى عريان فاختبأتُ » فقال الرب الإله: « من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلْتَ من الشجرة التى أوصيتُك أن لا تأكل منها؟ » فقال آدم: « المرأة التى جعلتها منى هى أعطتنى من الشجرة فأكلْتُ » فقال الربّ الإله للمرأة: « ما هذا الذى فَعَلْت؟ » فقالت المرأة: « الحية غرّتنى فأكلت » فقال الرب الإله للحية: « لأنّكِ فعلْتِ هذا، ملعونةً أنتِ من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرّية على بطنكِ تسعين[2] وترابا تأكلين كلّ أيام حياتكِ وأضع عداوة بينك وبين

---

(١) صورة « الرب الإله » الماشى فى الجنة عند هبوب الرياح صورة بدويّة أو عبرانية غير صورة « أتُمْ. آتون. رع. آمون.. » الآلهة المصريين، إذ هى صورة رمزية غير تشخيصية للرب الإله. بعكس ماقالته الآية الثانية من الإصحاح الأول تكوين « روح الله يرف على وجه المياه » فالتصوير فيها مصرى.

(٢) تكثر فى متون الأديان النزعة التبريرية، فالحية والزواحف لها طريقتها ــ التى ورثتها ــ فى السير على عضلات مستطيلة فى جسدها، كما أنها لا تأكل التراب؛ والعداء بين الأفعى والإنسان كالعداء بين الإنسان وكل أعدائه الطبيعيين.

المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عَقِبَهُ» وقال للمرأة: «تكثيرا أكثّر أتعاب حبلك، بالوجع[1] تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقُكِ وهو يسود عليكِ».

ودعا آدم اسم امرأته «حوّاء» لأنها أم كلّ حيّ.. وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت «قايين» وقالتْ: اقتنيتُ رجلاً من عندالربّ» ثم عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعيا للغنم، وكان قايين عاملا فى الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدّم قربانا للرب من أثمار الأرض، وقدّم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها، فنظر الربّ إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر، فاغتاظ قايين جدا.. وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله...[2]

☆☆☆☆☆

---

(١) تكرار للنزعة التبريرية فى متون الأديان جميعا.. فالمرأة تتألّم ساعة الميلاد لأن الدفع (ما يسميه الأطباء بالطلق) يتم بتحرّك عنيف لعضلات الرحم حتى يتخلّص الرحم من الجنين. والمرأة تشتاق الرجل كما أن الرجل يشتاق المرأة، وسيطرة الرجل على المرأة وضع اجتماعى يتغيّر بتغيّر الظروف.. وهناك رجال كثيرون ترهبهم زوجاتهم.

(٢) آيات مختارة من سفر التكوين من الإصحاح الأول حتى الرابع.. وما ذكر فى القرآن لا يختلف عما ذكر فى العهد القديم.

■ **رابعا : عند الإغريق كما صاغها أوڤيد(١)**

قبل أن تكون أرض وتكون بحاروا وتكون سماء، كان ثمة عماء يغشى العالم كلّه، وكان الكون كتلة مضطربة لا شكل لها، جمادا لا حياة فيها، وكان الكون كله جملة من بذور مختلفة لعناصر الأشياء، ليس ثمة بينها صلة ولا رابطة، ولم يكن ثمة شمس « تيتان »، كما لم يكن ثمة قمر « فيبى » يتكامل فى دورته، فهو كلَّ يوم يواجهنا بوجه جديد . ولم تكن الأرض بعدُ قد ضمها فضاء تتهادى فيه بثقلها، كما لم تكن المياه « أمفْترِيتى » قد بسطت زراعيها على شطآن البرّ؛ فلقد كانت الأرض والبحر والفضاء كلها ممتزجة لا انفصام بينها . وكانت الأرض تُعْوزُها الصلابة، والبحر تعوذه السيولة، كما كان الفضاء فى عوَزٍ إلى الأضواء . لم يكن ثمة شئ له شكل مميّز؛ وكانت هذه العناصر ـ رغم اختلافها ـ لا تنافُر بينها، ومع أنها كتلة واحدة، كان ثمة صراع بين الحرارة والبرودة، وبين الوَمَد(٢) والجفاف، وبين الليونة واليُبس، وبين الخفّة والثقّل . وكان لابد لهذا الصراع من حاسم، فتجلّى الإله كىْ يفصل بين الشئ ونقيضه : ففصل بين السماء والأرض، وما بين الأرض والماء، وخلّص الهواء الكثيف من الأثير الشفيف .

وما أن تم للإله فصل هذا كلّه، وتخليصه من فوضى الكتلة حتى غرس الوئام والسلام فخصّ كلاّ بمكانه المميّز، فإذا اللهب المتأجج معدوم الوزن

(٢) وُلد «أوڤيد» سنة ٤٣ ق.م، وعرض الأساطير الإغريقية القديمة هو وزميله ڤرچيل صاحب «الإنيادة». وما أعرضه هنا عن أوڤيد، بالترجمة الأدبية الرائعة للدكتور ثروت عكاشة .

(٣) الوَمَد : الحرارة مع البخار أو ما يعبّر عنه بارتفاع نسبة الرطوبة .

يحتل قبة السماء، ويتلألأ فى ذروة بناء العالم، وإذا الهواء الذى يضارع اللهب المتأجج خفةً، يحتلّ مكاناً إلى جواره، وإذا الأرض، وهى أكثف منهما معاً تشتد وتشدّ إليها العناصر المتماسكة فتتراكم بعضها فوق بعض، وإذا الماءالذى كان يحيط بكل شئ يحتلّ كلّ خلاءٍ فى الوجود.

وما أن فرغ الإله من هذا التقسيم والتنسيق لتلك الكتلة المتراكمة التى لم تكن على شكل ما، حتى أخذ يجمع بين هذه الأجزاء المختلفة فى تماسك كى يجنب الأرض أن يختلّ أى قطر منها، من أجل ذلك سوّاها كرويّة[١] ضخمة. وكان أن امتدّت مياه البحر بفعل أنفاس الرياح الهوجاء، فإذا هى تمنطق الأرض. ولكى يبلغ الأمر مداه فجر الإله الينابيع وأفاض المستنقعات التى لا حصر لها، وشق البحيرات، وحبَسَ الأنهار بين ضفافها، كما وزّعها على سطح الأرض. فمنها ما يُفضى إلى البحر فتختلط مياهها بمياهه، ومنها ما لا ينتهى إلى بحر فتبتلعه الأرض فى جوفها.. كما بسط السهول، وخدّد الوديان، وجعل الغابات تونع بأوراق الأشجار الوارفة، ورفع قُنَنَ الجبال الصخرية. وإذ كان قد قسم السماء مناطق: اثنتين إل اليمين واثنتين إلى اليسار، وبين هاتيْن وهاتيْن خامسة أشدّ حرارة، كذلك قسم الأرض التى تظلها السماء مناطق بأمره تتناسب مع مناطق السماء عدّا، فالوسطى لا حياة

(١) فكرة كروية الأرض، أشار إليها فيثاغورس، إذ بعد أن عرف من المصريين طريقتهم فى ضبط الزّوايا القائمة فى البناء، صاغ ما تعلّمه منهم فيما يسمى بنظرية فيثاغورس (المربع المنشأ على الضلع المقابل للزواية القائمة يساوى مجموع المربعين الآخرين).. كذلك عرَف منهم فكرة «لا نهائية الخطوط المقسّمة للكرة».. ولهذا آمن فيثاغورس ـ كالمصريين ـ بكروية الأرض والكون، وهى فكرة سبقت بها مصر كافّة الحضارات الأخرى.

فيها لشدّة قيظها، وغطّت الثلوج منطقتين[1] من هذه المناطق، وبقيتْ الوسطيان بين هذين الطرفين تستمتعان بمناخٍ بين البرودة والحرارة.

وفوق هذا حلّق الهواء بخفته.. وأقرّ الإله الضباب والسّحابَ مقرهما فى الهواء، كما جعل للرعد مقرا، هذا الرعد الذى يثير خوف البشر.. وكذلك جعل للرياح مقرّا، تلك الرياح التى تتحد مع الصواعق فينفذ من خلالهما البرق.

ثم إن هذا الإله، لم يترك الرياح على أعنّتها تجرى حيث تشاء، فهى إلى اليوم تبدو عسيرة على أن تخضع لنظام.. فالرّيح «إيروس» قد اتخذت مهابّا من مناطق ربّة الفجر ومملكة النبط فى بلاد فارس ومن سلاسل الجبال التى تكلّل أشعة الفجر قممها. أما ريح النسيم «زفيروس» فمهبّها حيث نجمة الليل والشطآن التى تشع عليها الشمس فى غروبها فتخلّفها دافئة.. وأما الريح الدافئة «بُورْياس» والتى تتحوّل عادة إلى ريح لافحة فتسود فى هبوبها بلاد «السكوذيين» وشتى نواحى الشمال. أمّا ريح «أُوستير» فَتُضادّ هذه المهاب كلّها وتسوق إلى الأرض سحبا مستمرة الأمطار غزيرتها.. ثم انبثقت الكواكب تتألق فى رقعة السماء، بعد احتجابها طويلا فى ثنايا السديم الذى كان يلُفّهُا.

وكان ثمة عصر ذهبى فى بدء الخلق، أظلّ خلْقا على إيمان عميق ومبادئ سامية، لم يُشرّع لهم مبادئ أو قانون يلتزمون به أو يخافون عقابه، وعاشوا ليس لهم وازع إلا الضمير، فلا قضاة ولا حكام، إذ لم يكن ثمة نزاع

(١) لعل الإغريق رأوا المنطقة القطبية الشمالية، فتصوروا وجود المنطقة القطبية الجنوبية..

أو عدوان، وكان الناس حيث هم، فلا هجرات ولا نزوحَ عن أرضهم.. كما أحالت سنابل القمح الذهبية الأرض فبدت كحقل من الذهب وساد الربيع، فلا برد ولا مطر، وفاضت الأنهار لَبَنًا ونكتاراً (شراب الآلهة)، وسالت الأشجار شهداً ذهبيّ اللون ».

ووقع « ساتورْن » أسيرا فى يد چوبيتر، فألقى به فى ظلام « تارتاروس » وانفرد هو بحكم العالم.. ثم تغيّر الناس فعاشوا على السلب والنهب.. وعمّ الأرضَ البلاء وسالت الدماء، فهجرتْ « استرايا » العذراء الأرضَ، وكانت هى آخر من هجر الأرض من أرباب وربات السماء.

وتطلّع العمالقة للأثير، لا يريدون أن يكون آمناً، كما لم تُعدْ الأرض أَمْناً، ولكى يغزو العمالقة السماء، جعلوا الجبال جبلا فوق جبل، حتى يرقَوْا إلى حيث النجوم، وعندها أرسل عليهم سيد الكون صواعقه، فتداعى جبل « أوليمبوس »، وتزحزح جبل « بيليون » من فوق جبل « أوسا »، وإذا تحت هذا الركام الهائل جثث العمالقة هامدة وإذا الأرضُ قد غُطِّيَتْ صفحتها بدماء أبنائها العمالقة.. ولكىْ تبقى الحياة مستمرّة، نفثت الأرض من روحها فى هذا الدم الدافئ، فوُجِدَتْ مخلوقات ذات سمات بشرية عَمّرتْ الأرض، لكن سرعان ما خالف هؤلاء أوامر الآلهة، وثارت فيهم ثائرة ذلك الدم المسفوح الذى خلقتهم الأرض منه، فَغَلُظَتْ قلوبهم، وعدا بعضهم على بعض.

☆☆☆☆☆

■ **خامسا : خلْقُ الكون والإنسان والملائكة وإبليس فى القرآن الكريم :**

تحدّث القرآن الكريم عن خلق الكون والإنسان والملائكة وإبليس . . كما تحدّث عن نوح وقصة الطوفان ومن هلك ومن نجا . . كذلك تحدّث عن تاريخ العبرانيين (بنى إسرائيل) : هود . صالح . إبراهيم . لوط . تبشير إبراهيم باسحق ويعقوب، شعيب، موسى وهارون وفرعون . . وواضح أن القرآن الكريم كان مع موسى ضد فرعون .

ونفس ما ذكره القرآن الكريم مذكور فى العهد القديم وفى « الماجنا والجيمارا »، وهى كتابات يهودية تفسيرية على هوامش العهد القديم . . وهذه آيات من سور فى القرآن الكريم :

من سورة البقرة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ

يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

ومن سورة المائدة: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾.

أول سورة الأنعام: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً

وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾.

أوائل سورة الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

أوائل سورة يونس : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)** ﴾.

أوائل سورة هود : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .... وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا

كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

أوائل سورة الرعد: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. [يوم فتح مكة، قال الرسول لكفّار قريش «اذهبوا فأنتم الطلقاء». إلا أنه أمر بقتل النّضر بن الحارث بن كلده.. كان ـ إذا قرأ الرسول القرآن ـ يقول: ما يأتيكم به محمد أساطير الأوّلين، ويقوم هو فيحدّث الناس بأساطير الأولين].

☆☆☆☆☆

(د)

أسطورة أطلس السكندرية

منذ أزمنة غابرة، وُجِد أول كائن « خاؤس » وهو الهيولى أو اللاتشكّل، ثم مضت فترة أنجب بعدها خاؤس ابنته « نُوكس » أى « الليل الحالك » ثم أنجب « أريبوسَ » الظلامَ الدامس، حيث يسكن الموت، أنجب خاؤس نوكس وأريبوس بطريقة غامضة يعزّ على البشر الفانين فهمها.

ثم بعد عصور مضت ارتمت الأنثى نوكس فى أحضان الذكر أريبوس، وتعددت اللقاءات بينهما، وكانت نتيجة هذه اللقاءات بيضة وضعتها الأنثى.. واستمرّت البيضة عصوراً وعصورا، ثم انفجرتْ وخرج منها مخلوق لطيف ذو جناحين بلون الذهب، ولم يكن ذلك المخلوق اللطيف سوى إيروس[1] إله الحب.. وهكذا وُلِد الحب نتيجة لقاء بين نوكس وأريبوس أى بين الظلام الدامس حيث يَسْكن الموت، وبين الليل الحالك.

هكذا وُجِد الليل والنهار، كما وُجِدتْ الظلمة والنور.. وهكذا يكون الحُبُّ وراء كل وجود.. ثم كانت « جايا » « أى الأرض، و« أورانوس » السماء.. ثم التقت الأرض بالسماء كالتقاء كل أنثى بذكر.. ولما التقيا أنجبا

---

(١) إيروس إله الحُبّ، أو هو إله التناسل والتكاثر، ويروى بعض المؤرخين القريبين من أواخر ما قبل الميلاد وأوائل التاريخ الميلادى، أن السكندريين فى الفترة البطلمية صنعوا تمثالا للعضو الذكرى الإنسانى فى الإسكندرية. ولا يزال لفظ إيروس أصلاً للكلمات المعبرة عن العضو الذكرى فى لغات كثيرة، حتى فى اللغة العربية «إير».

جماعة من « المسوخ » و « الكوكلوبيس » و « التياتن » « جايا » هى الأرض وهى الأمومة الحانية تفتح صدرها لكل أبنائها وبناتها، أما « أورانوس » الأب ففيه قسوة الأبوّة وتعالى السماء، لذا فإنه لا يعدل بين ذريته، ألقى ببعض أبنائه من المسوخ فى أعماق الأرض فلا يَرَوْن الضوء، ولا يذوقون طعم الحريّة، ولكنه ترك أبناءً وبناتٍ آخرين أحرارا، وهؤلاء هم « التّياتن » و « الكوكلوبيس » .. وظلت الأم « جايا » تحرّض ابنها « كرونوس » أى الزمان، حتى يتحدّى أباه « السماء » .. صمم كرونوس على الانتقام من أبيه السماء (أورانوس) أخذ يراقب حركات والده، ويحصى عليه غدواته وروحاته .. وذات يوم كان أورانوس يسير متبختراً مزهوا بسلطانه .. خرج كرونوس فجأة من مكمنه وفاجأ أورانوس بطعنة قاتلة أعقبتها طعنات .. فاضت دماء أورانوس مثل جدول منحدر المجرى، سالت دماء أورانوس على وجه جايا، امتصت جايا دماء أورانوس فحملت منه وأنجبَتْ الجيلَ الرابعَ من ذريتها ألا وهم جماعة المردة.

لم يكن « كرونوس » أفضل من « أورانوس »، سمع من عرّاف أن واحداً من أبنائه سوف يقضى عليه .. فأصدر « كرونوس » إلى زوجته .. « ريّا » أن تسلّمه كل مولود تلده فيبتلعه ... اختفى كل مواليد « ريا » فى جوف أبيهم « كرونوس » « الزمان » .. ثم جاء المولود السادس، وكان كرونوس ينتظره ليبتلعه .. ونظرت ريا إلى المولود السادس فرأته جميلا رقيقا فأشفقت عليه، وصممت على انقاذه، فأتتْ بحجر مستطيل فألبسته أردية كانت قد أعدّتها للمولود، جعلت الحجر يبدو كما لو كان مولودا، بعثت به إلى « كرونوس » الذى ابتلعه، شاعراً بالاطمئنان أن أحداً من أبنائه لن يقوم بعزله، فأبناؤه فى جوفه.

أسرعَتْ « ريا » فسلمت ابنها إلى حوريات الجبل المهجور، حيث تعهدنه بالرعاية، نما الطفل، صار شابًا يافعا.. زار والدته وطلب منها مساعدته حتى ينتقم من والده، رحّبَتْ ريا به.. وقدّمته إلى « كرونوس » أبيه ساقياً.. صبّ لأبيه الشراب يحتوى شيئا من الملح الخاص ونبات الخردل، وحلّى له الشراب بعسل النحل، شرب « كرونوس » دون أن يكتشف أمرَ الشراب ولا حقيقة ساقيه، أحس بدوارٍ شديد.. تقيأ كلَّ ما فى بطنه حتى أبناءه الخمسة، بما فيهم الحجر المغّطى بالأردية.

اندفع أبناء كرونوس إلى الهواء الطلق، لم يكن قد مسّهم ضُرٌّ وهم فى جوف أبيهم، جعلوا أخاهم الأصغر قائداً لهم.. وتجمعتْ التياتن لتدافع عن « كرونوس » ومعهم المردة، ماعدا « بروميثوس » وشقيقه « إبيمثيوس » فكانا مع أخيهم الأصغر « زيوس » وانتهت المعركة بهزيمة كرونوس وأنصاره يقودهم التيتن « أطلس »، وانتصر « زيوس » وأصبح حاكم السماء والأرض وقضى على كل أعدائه ماعدا « أطلس »، الذى بقى اسمه خالداً، وعاقبه كرونوس العقاب الذى يليق به وبجبروته، حكم عليه أن يحمل قبة السماء فوق كتفيه فمُنِحَ اسمُه الخلودَ والبقاء.

« أطلس » أنجبه التيتَن « يابيتوس » من حورية الماء « كلومينى » هو الشقيق الأكبر لكلٍّ من « هيسبيوس » و « إبيمثيوس » و « بروميثيوس » و « مينوميتوس ».. كان أطلس يعرف كل أسرار البحر.. حكم « أطلس » - قبل أن يسخّره « كرونوس » - مملكة ضخمة جدا هى « أطلانتيس »، كانت تقع فيما وراء المنطقة المعروفة باسم أعمدة « هيراكليس » تفصلها عن أوربا سلسلة من الجزر مليئة بأشجار الفاكهة.. حكم أطلس شعبا متحضراً، عَرَف

الزراعة وشقّ القنوات، فضلا عن بناء المساكن والقصور.

أطلس هو ابن بوسيدون، كما قال المصريون، أى أنه ابن سيد البحار والمحيطات، وله خمسة أزواج من التوائم الذكور أقسموا جميعا على الولاء لبعضهم ولأخيهم أطلس.. ظل الإخوة على عهدهم.. إلا أن بريق الذهب كان أقوى من القسم والدم.. تفرّق الإخوة .. صاروا ضِعافا.. هزمهم شعب أثينا هزيمة منكرة.. انهارت أحوال أتلانتيس، واختفت القارّة العملاقة.. ابتلعها البحر.. وصارت قارّة مفقودة.. نجا من طوفان أتلانتيس أطلس وشقيقه «مينويْتُوس».

لكنّ أطلس ارتبط اسمه أيضا بالبطل «هيراكليس» الذى حصل على التفاحات الذهبية التى تملكها «هيرا» ... وبناسبة زواج «هيرا» من رب الأرباب «زيوس» قدمت الأم «جايا» «الأرض» شجرة تفاح إلى هيرا، شجرة تفاح تثمر تفاحات ذهبية فرحتْ بها «هيرا» وزرعتها بعناية خاصة فى حديقتها فى جبال «أطلس»، حيث يلتقى الليل بالنهار، وحيث ترعى مواشى وأغنام أطلس دون أن يشاركها أحد.

أحبت هيرا شجرة التفاح، كان لأطلس ثلاث بنات هنّ «الهسبيريديات» اعتقدت هيرا أن بنات أطلس يسرقْنَ تفاحها الذهبى.. أمرت هيرا التنين العملاق «لادون» أن يحرس شجرة التفاح.. وكان «لادون» تنينا عملاقا ثعبانا مروّعا له مائة رأس... قتل هيراكليس لادون، بعضهم قال: قتله بسهامه التى لا تخيب، وبعضهم قال: أرسله فى سُباتٍ مميت بعقار من عقاقيره.

طلب هيراكليس من أطلس أن يحضر له التفاحات الذهبية، سعد بذلك

أطلس، لأن هيراكليس سيحمل السماء بدلا منه.. ذهب أطلس ـ بعد أن تحرّر من حمله إلى الشجرة، وجاء بالتفاحات الذهبية، وحاول أن يخدع هيراكليس ويتركه يحمل السماء، إلا أن هيراكليس طلب من أطلس وسادة يضعها على كتفه لتخفف الحِمل عنه، وأثناء وضع الوسادة تخلص هيراكيس من حملِه، وخدع أطلس وأعاد إليه حمله.. ثم ودّعَ أطلسَ وتهكم عليه تاركا إياه يرزح تحت ذلك العبء الهائل.

ارتبط اسم أطلس ـ أيضا ـ بالبطل «بِرسْيُوس»، كان الجميع يعرفون أن برسيوس سوف يقتل «ميدوسا» ويفصل رأسها عن جسدها، ولقد كان له ذلك، وكان أطلس يعرف ذلك كما يعرف أن الربّة «أثينا» قد حوّلت ميدوسا من فتاة جميلة إلى مسخ مجنّح مخيف ذى أسنان ضخمة ولسان بارز قبيح ومخالب برونزية، وخصلات من الحيات بدلا من الشعر، كما جعلت من ينظر إلى وجه ميدوسا يتحوّل إلى حجر.. كان أطلس يعرف ذلك، لكنه كان يضيق بحمل السماء على كاهله، وكان ينتهز الفرصة للتخلّص منه ... عندما لاحظ أطلس مرور برسيوس ومعه رأس ميدوسا، طلب منه أن يكشف له عن وجهها؛ نظر أطلس إليها وتحوّل إلى حجر.. تحوّل إلى جبال عُرِفت بجبال أطلس وهى تمتدّ فى شمال إفريقيا. إن جبال أطلس منحنية خشنة مجعّدة مثل كتفىْ أطلس، تعلو قمَمَها الثلوجُ البيضاء، تماما كما تعلو الشعيراتُ البيضاء رأس أطلس، وتنطح قممها الشاهقة السحاب فتبدو كأنها تحمل قبة السماء وتمنعها من السقوط. تماما كما كان يفعل أطلس.

☆☆☆☆☆

● **الشعراء السّكندريّون والأساطير.**

تنسب أسطورة أطلس إلى «موسخوس» وهو شاعر سكندرى مرموق، حتى من شعراء الإغريق، وما وَصَلَنا عنه قليل، بعكس ما يُروى عنه من أساطير، والباقى - حتى الآن - من أساطيره يؤكدّ قدرته الفائقة على القصّ الخيالى الأسطورى.

ففى ملحمة «يوروبى **Europe**» يروى كيف أحب زيوس (ربّ الأرباب) يوروبى جميلة الجميلات، وكيف صمم على اغتصابها.. حوّل نفسه إلى حصان جميل أو إلى ثور جميل وظل يقترب[1] منها حتى أحبته، وركبت فوق ظهره فانطلق بها إلى كريت حيث اغتصبها.

وفى ملحمة أخرى يصوّر حوارا بين «ميجارا» زوجة هيراكليس و«ألكمينى» والدته، ويصف من خلال الحوار، آلام كل من «ميجارا» و «ألكمينى» و «هيراكليس» وقلق المرأتين على مستقبل «هيراكليس» وشقيقه «إيفكليس».

ومن الشعراء السكندريين الكبار الذين كتبوا أساطير، «بِيون» و«كاليماخوس» و«لوكوفرون» و «أراتوس».

☆☆☆☆☆

(١) يوجد بجوار مكتبة الإسكندرية العالمية، وعلى البحر فى مواجهتها، ذلك التمثال الذى ينسب لمثال سكندرى بطلمى، حيث ترقد يوروبى تحت الحصان أو الثور وتحتضنه.

• دلالات الأساطير.

يردد علماء الاجتماع الديني والأنثروبولوجي (علم الإنسان) أن «إله كل أمّة صورة من حاكمها» بمعنى أن البشر يعكسون صورة الحكام على آلهتهم.. حتى أن أحد الفلاسفة السكندريين يقول: «لو كان للثيران أو الأسود أو الخيول أيادٍ يرسمون بها، لرسموا آلهتهم في صورة تشبه صورهم».

ويرى «ثياچينيس» أن الأسطورة قصة رمزيّة مجازيّة، وليست رواية أدبية، فالمعارك التي دارت بين آلهة الإغريق، وتلك التي دارت بين إبونيمات الساميين وأعدائهم، وبين آلهة المصريين وإلَهاتهم، دارت كلها من أجل اكتمال خلْق العالم.. لدى اليونان: هناك آلهة النار، و«هيرا أو إيرا» تمثل الهواء، وبوسيدون (إله البحر) يمثل الماء، وأرتميس تمثل القمر.

كذلك يرى «فريكوديس» السوري أن عناصر الماء والهواء والنار نشأت عن «كرونوس» وهو الزمن، ثم نشأت الآلهة فيما بعد من تلك العناصر الثلاثة.

ويرى «بريديكوس» أن القوى العظيمة ذات النفع للجنس البشري (كالنيل في مصر) ظهرت أولا، ثم ظهر بعد ذلك الأشخاص المقدسون، الذين يمثل كلٍ واحدٍ منهم «إبونايم **Eponime**»[1] يقود جماعته أو يخدم الجنس البشري، ثم حوّل البشر هؤلاء الأبونايمز إلى آلهة.

---

(١) الإبونايم Eponime قائد مجموعة قبلية، ويكون عادة إداريا وعسكريا، فإن كثر الخاضعون له ـ خصوصا إذا كان ساحر البيان ـ تحوّل إلى نبيّ.. وقد يحوّلونه إلى إله.

ويرى « بلوتارخ » ـ كذلك ـ أن الآلهة فى الأصل كانوا بشرا عاديين، أو ملوكا نافعين فحوّلهم من جاءوا بعدهم إلى آلهة، كتحوير لعبادة روح الأسلاف، أو للأبونايم إلى نبى، والنبى إلى إله كما حدث مع المسيح.

وفى العصور الوسطى المسيحية، قام آباء المسيحية بتحويل آلهة الأساطير إلى شياطين، وحطّموا كثيرا من التماثيل الإغريقية والرومانية باعتبارها أوثانا، أورموزاً للآلهة الوثنيين القدامى..

وفى عصر النهضة الأوربية بدأ تفسير الأساطير تفسيرا نفسيّا وأخلاقيا، كما فعل فرانسس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) حيث فسّر « نيركاسس » بالنرجسية أو « عشق الذات » كما جعل « ديونيسوس » رمزاً للمعاناة، وأبا الهول رمزاً للعلم.

كذلك اقترب « دى بروس » (١٧٠٩-١٧٧٧) من الواقع العلمى لتفسير الأساطير، فأشار إلى أن عبادة الحيوانات (أو تأليهها) عند الفراعنة هى بقايا عادات وعبادات قديمة، كتلك التى تمارسها الشعوب البدائية حتى الآن.

كذلك رأى القديس « بانيه **Banier** » (باريس ١٧٣٨) أن الأساطير استمدت جذورها من أساطير تاريخية قديمة ومن الكتب المقدسة للأديان الكبرى.

ويرى « كروزر **Crouzer** » الألمانى أن الأساطير جذور لإبونيمات أو نبوّات قديمة حاولت أن ترقى بشعوبها وأن تقلّل العنف بينهم.

ثم ظهر « ماكس مولر **Max Muller** » الذى كان يعتبر اللغة شرطاً أساسيا للتفكير، وبهذا رأى اللغة مفتاح الأساطير والقصّ الدينى.. ويرى « تايلور » المهتم بالتفسير الأنثروبولوجى للأساطير، أن وجود عناصر الشراسة

والقسوة فى الأساطير، كما فى بعض أساطير العهد القديم، يقطع بنشأة الأسطورة بين شعب بدائى شرس.

ويرى هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣)[١] وهو من أتباع المدرسة الأنثروبولوجية أن أساطير الطبيعة هى نوع من عبادة الأسلاف وتحويلهم إلى آلهة.

ويرى « وليام روبرتسون سميث » (١٨٤٦-١٨٩٤) أن الأسطورة مرتبطة بالتعاليم والطقوس الدينية القديمة، ولكنها غير ذات وازعٍ مقدس يُلْزم به العقل الجمعى للجماعة، والأسطورة، بهذه الصورة، ليست جزءا أساسيًا من الديانة، فالعابد ملزم بالشعائر والطقوس، وغير ملزم بتصديق ما جاء فى الأسطورة.

وللأساطير قوّة جذب إذا كانت تعطى للبشر الأمل، حتى أن الذين لا يكادون يؤمنون بالدين، يلتزمون بما جاء فى بعض الأساطير، إذا كان يفتح الباب أمام تحقيق أمنياتهم.. ففى ولاية « بيهار الهندية » وولايات أخرى هندوسية؛ وفى يوم من أيام يوليو - كل عام - تقوم البنات اللاتى فى سن الزواج بحرث قطعة أرض فى الحقل وهنّ عاريات، ويردّدْن ترانيم لإله الزواج « هيمان » عسى أن يرزقهن بالزوج المناسب. (حرث الأرض فى الأساطير الهندية رمز للخصوبة والإنجاب والزواج).

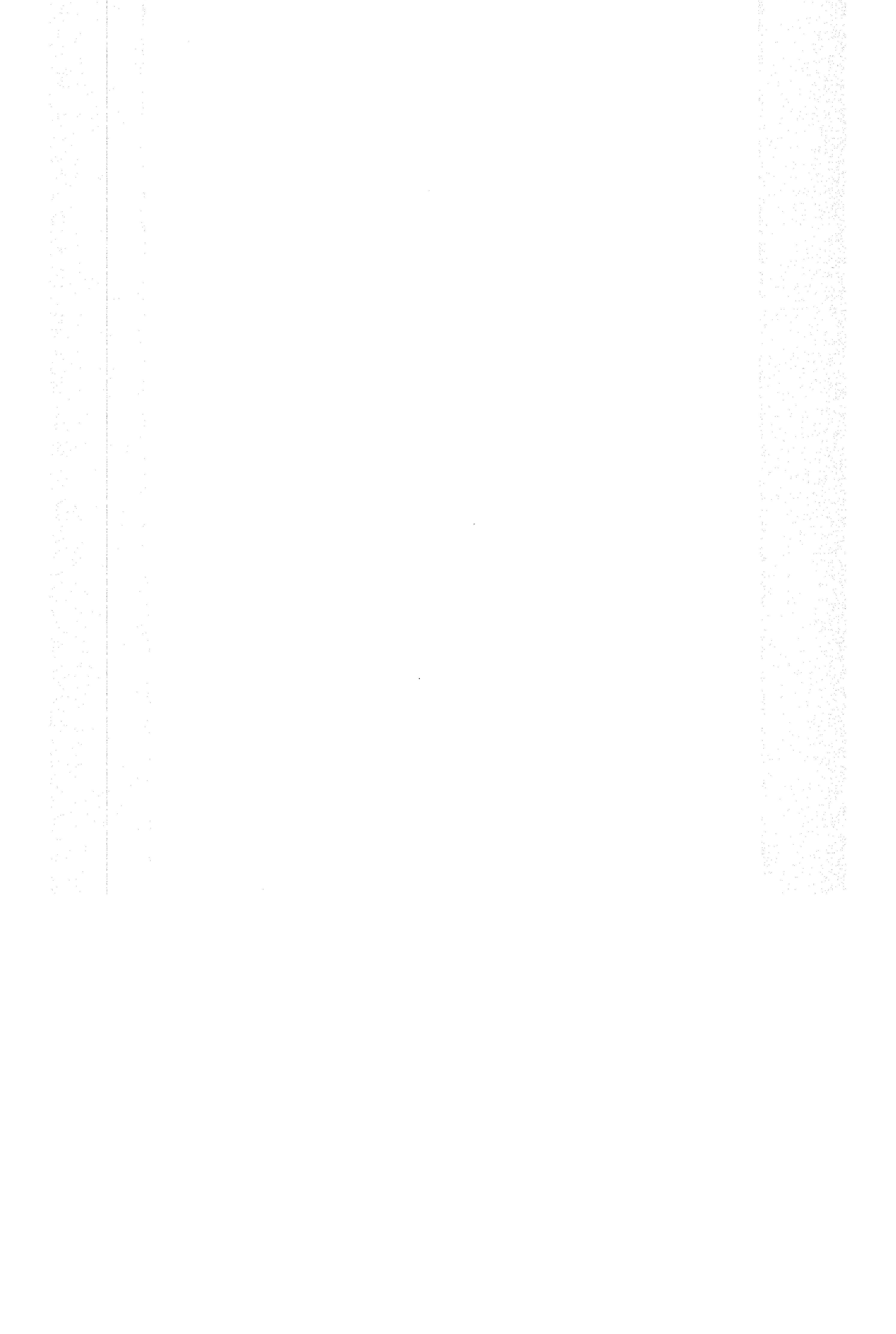
كذلك، فإنّ لبعض الشرائع الدينية القديمة، والتى لا تتفق مع روح العصر، جاذبية خاصة، باعتبارها شيئا متصلا « بالماضى الأصيل » ذلك الماضى

---

(١) هربرت سبنسر أحد أعمدة المدرسة الأنثروبولوجية. نشر كتابه الهام Principles of sociology فى لندن ١٨٩٨ - واعتمدت - إلى حد كبير - فى هذه الدراسة التعقيبية على الأساطير، على كتابات الدكتور عبد المعطى الشعراوى فى «أساطير إغريقية».

الذى كان يسمح بالخشونة والقسوة فى التعامل بين النساء والرجال، ففى بعض جبال منغوليا، لا تزال توجد بقية محدودة لجماعة إنسانية ذات شريعة خاصة تسمح بتعدد الأزواج للزوجة الواحدة... والعجيب أن بعض النساء عندهم لايزلن يعددن فى الأزواج (كأنه نوع من التوحش القديم الذى كانت تمارسه الملكات أو النساء فى المجتمعات الأمومية)... ولونظرنا فى تعدد الأزواج فى الإسلام، نجد أنه من الممكن إيجاد ذريعة شرعية لمنعه، وقد فعلوا ذلك فى تونس، اعتماداً على آيتىّ سورة النساء (رقم ٣ ورقم ١٢٩): فالآية الثالثة ورد فيها: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ﴾ والآية ١٢٩ ورد فيها: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ .. ﴾ ولكنْ هناك من رجال الدين من يميلون إلى قداسة المتبع قديما، ولا يرغبون فى أى تجديد، كذلك قد ترتبط مصالح ذاتية بالوضع القديم الذى مضى عليه أكثر من ١٤٠٠ عام، ناهيك عن التوحش القديم الذى كان يرى لذّة فى التعَدّد.

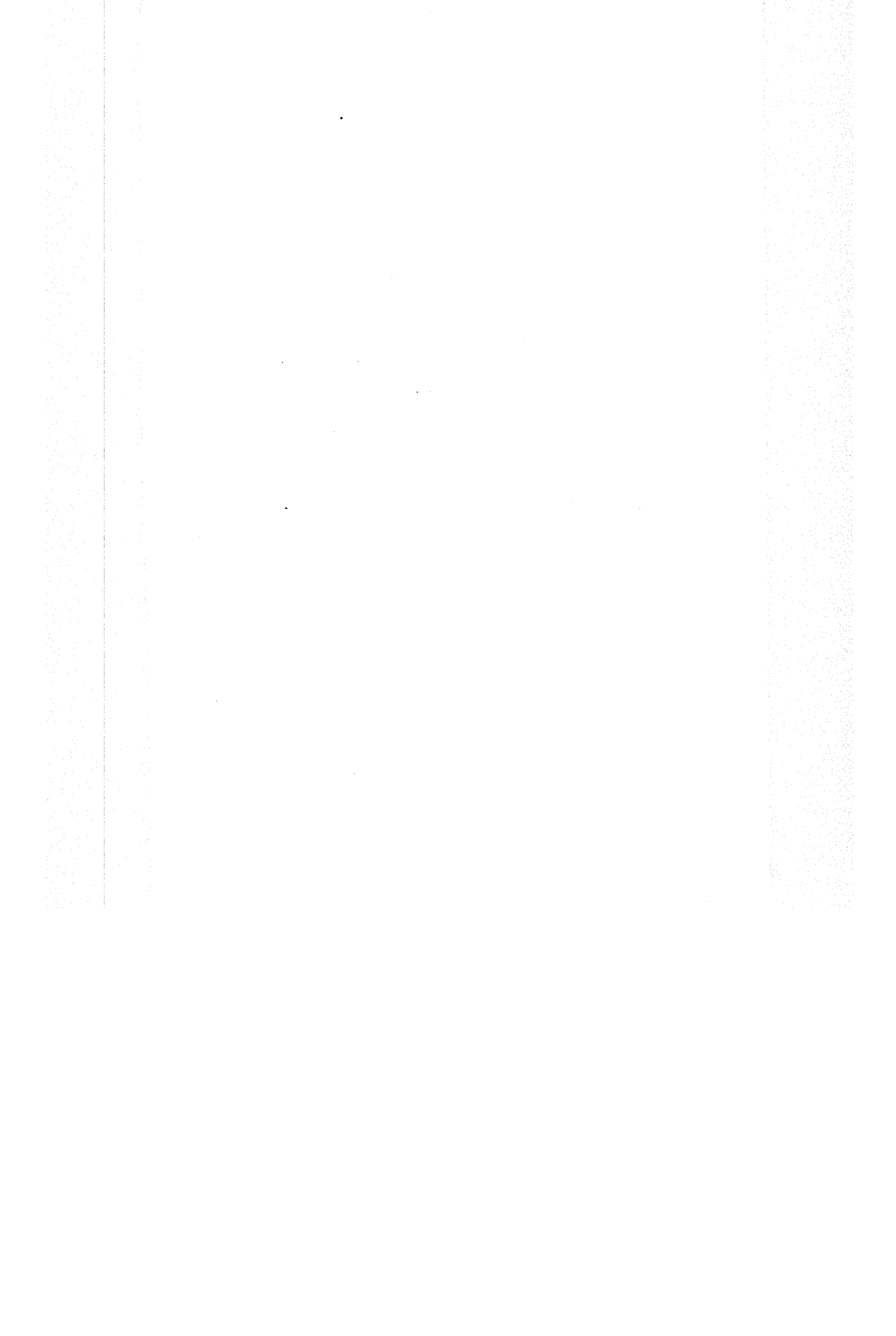






الفصل الخامس عشر

الجذور المصريّة لصلوات البشر وعباداتهم



الجذور المصريّة لصلوات البشر وعباداتهم

(أ)

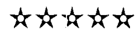
الجذور الحفرية للإنسان

سبق أن أشرنا إلى ثلاثة الأنماط البشرية التى ظهرت منذ بضعة ملايين من السنين، وقلنا إنها ظهرت ـ أولَ ما ظهرت ـ فى مناطق « الساڤانّا » التى كانت مفضلةً لدى الأنماط البشرية الثلاثة :

الأول وهو الواقف على قدميه ونموذجه الحفرى « إنسان بكين » الذى كان يسلك كما يسلك الحيوان .

والثانى هو إنسان نياندرتال، ونموذجه الحفرى هو « إنسان نِيانْدرْتالْ » وعثر على أول هيكل عظمى له، فى وادى نياندرتال فى شمال ألمانيا . . وهذا الإنسان اكتمل بناء رأسُه ومَخُّه من خلال قوانين التطور، وكان قادراً على استخدام فمه وحنجرته وصدره فى « إصدر الأصوات » إلا أنه لم يكن يعرف اللغة والكلام، واللغة وسيلة عمل المخ فى التفكير (ترتيب الأمور) وفى الحوار الداخلى بين الإنسان ونفسه، فضلا عن أن اللغة نظام إشارى تسجيلى، يعتمد عليه المخ فى تسجيل الصور والذكريات والتجارب التى يمرّ بها . . حتى أن ماكس مولر (وهو من أقوى من كتبوا فى الأنثروبولوجى) يقول : « لو استطاعت الحيوانات تحويل الصوت عندها إلى لغة، يعمل بها المخّ، لتحوّلْت الحيوانات إلى كائنات عاقلة، بصرف النظر عن شكلها .

والثالث هو الإنسان الحديث Homo-Sapiens الذى لا يختلف فى جهازه العصبى المركزى عن إنسان نياندرتال، ولكنه يختلف عنه فى القدرة على استخدام اللغة للاتصال بالآخرين، فضلا عن استخدامها كطريقة رمزية شفريّة (جبريّة) لعمل المخ والاحتفاظ والتخزين للمعلومات، وبدهى أن الإنسان الحديث، زادت مقدرته فى استخدام مخّه (الجهاز العصبى المركزى) مما منحه ذكاءً استطاع به أن يقضى على نمط نياندرتال.



(ب)

تحوّل الأسر البشرية لجماعات بتأثير عقدتى أوديب وإلكترا

كانت الأسر الإنسانية الأولى (فى مناطق السافانّا) لا تختلف عن مثيلاتها من الأسر الحيوانية.. إلا أن التصحّر دفع بالأسر الإنسانية إلى الاتجاه لوديان الأنهار أومناطق الغابات الكثيفة... حيث إن الماء كثير والخير وفير.. ونَمَتْ الأسر الإنسانية البدائية، وأنجبت أعداداً أكثر.. وكبر الصغار المعتمدون على الأسرة، وأصبحوا مراهقين، فنظر الولد الكبير إلى أمه باعتبارها أنثى بالغة، وتحرّش بأمّه جنسيّا، فطرده أبوه (جذر عقدة أوديب).. ونظرت البنت البالغة إلى أبيها كذكر كبير، وتحرّشتْ به جنسيا، فما كان من الأم، مالكة هذا الرجل، إلا أن طردتْ البنت.جذر عقدة « إلِكْترا ».

وعاش الجيل الثانى، قريبا من الأسرة الأولى وكأنّه يحتمى بها، « وعرف الذكور والإناث من الجيل الثانى بعضهم »، وهذا التعبير مصرى أصيل نُقِل إلى العهد القديم، وهو كناية عن اللقاء الجنسى وتكوين أسرجديدة، وتعاقبتْ الأجيال.. وبدأت مشاكل تحتاج إلى تعاون الأجيال (كصد عادية وحش شرس، أو التجمع من أجل صيد كبير، أو ردّ هجوم عشائرى آخر..) وبدأت الجماعات أو العشائر الإنسانية الأولى تدرك حاجتها إلى قيادة للعشيرة.. وعادةً يفرض الأقوى سلطانه على الجميع، فإن كان الأب الأعلى

هو الأقوى، فهو الذى يفرض سلطانه.. وإن كان أحد الأبناء هو الأقوى فهو الذى يفرض سلطانه ويخضع له الجميع.. ولم يكن البشر فى تلك العصور السحيقة يحتاجون إلا للطعام والجنس، فإن البشر ما هم إلا آلة من آلات الطبيعة تحافظ على النوع وتساعد على تطوره.

ولّما لم تكن للأفراد أسماء، فقد جرى تشريط الوجوه[1] للتعرف على أفراد الجماعة وتمييزهم عن الجماعات الأخرى.

☆☆☆☆☆

(١) تشريط الوجوه بعلامات مميزة لكل عشيرة أمر شائع لدى الشعوب الموغلة فى القدم، وكان التشريط يتم باستخدام مخالب الطيور الجارحة لإحداث أثر عميق فى الجلد، بطريقة تمييز بعض نساء الريف دجاجاتهن عن دجاجات الآخرين بوضع بقع من الحبر.

(جـ)

استبداد «الأبونايم[٢]»
رئيس الجماعة وإرهاصات العبادات

رؤساء الجماعات الإنسانية الأولى، لم يصلوا إلى الزعامة فى عشائرهم إلا بالقوّة والقسوة والجبروت والاستبداد، فكلّ واحد منهم ملك أو إله صغير، شرّط وجوه الجماعة، أو لم يشرّطها، فالجماعة ملك خاصّ له، ولابد وأن يحتفظ بقسوته أو جبروته، إذ بمجرّد شعور أحد شباب الجماعة بقوته، فإنّه ينحىّ الأول وقد يقتله، ويستولى على إناث الجماعة وخيراتها.

فى تلك الجماعات الأولى القائمة على الصيد والالتقاط لم يكن العمل كثيفاً.. ويلهو الزعيم أوالأبونايم ـ فى فراغه ـ بأفراد جماعته: فهذا الولد الذى يتراخى فى الصيد يوقفه الزعيم فى الشمس الحارقة، ويداه إلى جانبه (ممنوعاً من طرد الحشرات عن وجهه)، وهذه البنت التى أكلت من الثمار قبل أن يأكل الأبونايم، يجعلها تركع أو تسجد أمامه وقتا يرهقها ويؤدّبها.. وأحيانا يأمر الغلمان والشبّان الشرسين بالركوع والسجود له، أو الوقوف فى الشمس الحارقة واليدان إلى جانبه، حتى لا يهش عن وجهه حشرات الغابة.. وقد يسلّى نفسه بإجبار الإناث على الانحناء إلى أمام، أو على السجود،

(٢) أبونايم Eponym كلمة لاتينية (يُشَكّ بأنها من جذر مصرى) تطلق على زعيم العشيرة فى الجماعات البدائية صغيرة العدد، ولو اتّحدت العشائر يقودها نبُو المصرية وهى جذر نبى.

ليمتع نفسه بالنظر[1] إلى أجسادهن وقد يفرض الإبونايم، كما فى بعض رسوم الكهوف التخطيطية، على أفراد عشيرته أن يقوموا له إذا خرج لهم أو مرّ عليهم.. وإذا كان معجبا بالإبونايم السابق عليه والذى قتله وحش، فإنه قد يجبر أفراد القبيلة ليجمعوا أحجارا لتوضع على قبر الإبونايم السابق (كأنّه يتحسّب للمستقبل) وتلك الأحجار تمنع الضباع النابشة من أكل « الزعيم الراحل »، وقد يرتّب حراسة لقبر الزعيم الراحل، بل قد يصل به الأمر إلى حد تكليف الجميع بزيارة يومية لقبر ذلك الزعيم، أو الحج إلى قبره وتقديسه كل بضعة أيام.

وُجِدتْ رسوم تخطيطية فى كهوف مطمورة، يظهر فيها أفراد بحجم صغير، بجوار شجيرات فى الغابة، وقد وُضِعَتْ عى أفواههم حبال خشنة (كأنها من ليف النخيل) ومع هؤلاء الأفراد من يقودهم (وهو بحجم أكبر)، وفسّر الأنثروبولوجيون ذلك بأن الإبونايم كان يفرض على أفراد الجماعة الالتقاط وجمع الثمار والإتيان بها إليه دون أن يأكلوا منها شيئا، وكان يوكلّ بعض أتباعه بمتابعة ذلك (والأتباع المعاونون للإبونايم ظهروا فى الرسوم التخطيطية على جدران الكهوف بحجم أكبر من أفراد الجماعة تعبيرا عن صلتهم بالإبونايم ـ كما يرى الأنثروبولوجيون).. كذلك ظهر فى بعض الرسوم التخطيطية أن أعوان الإبونايم كانوا يربطون أفواه الأفراد بحبال من

---

(١) كُشف منذ منتصف خمسينات القرن العشرين عن أعداد كبيرة من الكهوف التى كانت مقرًا لأسر موغلة فى القدَم (فى العصر الحجرى القديم والحديث وقبل بدايات الحضارات الزراعية فى مصر وبابل وآشور وفارس...) ووُجدَتْ رسوم تخطيطية بدائية على الجدران، أظهرت للأنثروبولوجيين معلومات كثيرة عن بشر تلك العصور وإبونايماتهم، وصُور التعامل مع الأفراد....

الليف أو الفصون اللينة، حتى لا يأكلوا شيئا مما التقطوا، قبل أن يأكل «الزعيم العظيم» كذلك، فإن الإبونايمات، لما كانوا يجمعون أفراد العشيرة لأمر هام، أو لأمرهم بأوامر معينة، كانوا يلزمونهم بالتطهر بالماء قبل التجمّع؛ دفعا للحشرات التى كانت تنهال على الجميع فى الغابة، وربما أَنَفَةً من روائح البشر الكريهة فى ذلك الماضى السحيق.



(د)

ظهور أنبياء مصر وجذور الصلاة والعبادات المختلفة

توحّدت العشائر المصرية، وصارت قبائل وبطوناً، وظهرت الأعراف والقيم والمبادئ ـ بتطوّر البنية الدنيا ـ وارتقتْ الأخلاق، وظهرت سلطة العقل الجمعى والضمير، وظهر «النّبُو»[1] المصريون (الأنبياء) الذين أشاعوا أن آلهة السماء تسعة، أوأن الرموز للآلهة تسعة (توت – آمون – آتون – رع – أتم...) وأن هؤلاء «يقيمون فى الأعالى» باعتبارهم رعاة الكون، كما أنهم قادرون على المنح والمنع وعلى الخير والشر.. ومن هنا أوصى هؤلاء الأنبياء بضرورة تقديم الصلاة للآلهة «الذين يقيمون فى الأعالى»... وما كانت العبادات المصرية إلابعثا لما كان يفعله الإبونايم فى أفراد عشيرته.. وما كان الوضوء والتطهّر بالماء إلا بعثا للأوامر القديمة للإبونايم التى تلزم بضرورة التّطهر بالماء قبل حضور التجمع...

وكان لابد لهؤلاء الأنبياء المصريين أن يعيشوا على «فائض إنتاج الآخرين» وكلما فاض من هؤلاء الأفراد خير، فإنه يكون للأنبياء ورجال الدين (ولله أيضا).

ولهذا فرض الأنبياء ما كان يفرضه الإبونايمات المصريون من صيام على أفراد جماعاتهم.

---

(١) «نبُو» كلمة مصرية قديمة تعنى «النبى» أو كاهن الإقليم..

(هـ)

الساميّون ينقلون العبادات عن مصر

جاء الساميون إلى مصر، وتتلمذوا فى المعابد المصرية، ونقلوا إلى قبائلهم فى شبه الجزيرة العربية (سواء كانوا عربا أو عبرانيين) ما رأوْه فى مصر من صلاة ووضوء وصيام وحج للقبَور . . . ثم ظهر أنبياء السامية ـ وهم كثيرون ـ وظهرت صلواتهم ووضوؤهم وصيامهم وحجّهم . . وفى الحقيقة فإنهم نقلوا التراث المصرى فى العبادات إلى متونهم وعباداتهم، فمصر هى المعبد الكبير الذى تعلّم فيه الساميون كافة العبادات وكافة الأساطير (الساتيرات عند المصريين) وكافة الشرائع والقوانين (كما يقول توماس كارلايل) كذلك تعلم فى مصر اليونان ثم الرومان، وكذلك تعلّم فيها ونقل عنها الفلسطينيون والفينيقيون والبابليون والأشوريين وكل أمم البحر المتوسط .وظهرت دعوة المسيح، ثم الدعوة الإسلامية، وبانتشار الدعوتين فى العالم، تعلّم البشر فى العالم أشكال العبادات ذات الجذور المصرية، دون أ"ن يدركوا ذلك .

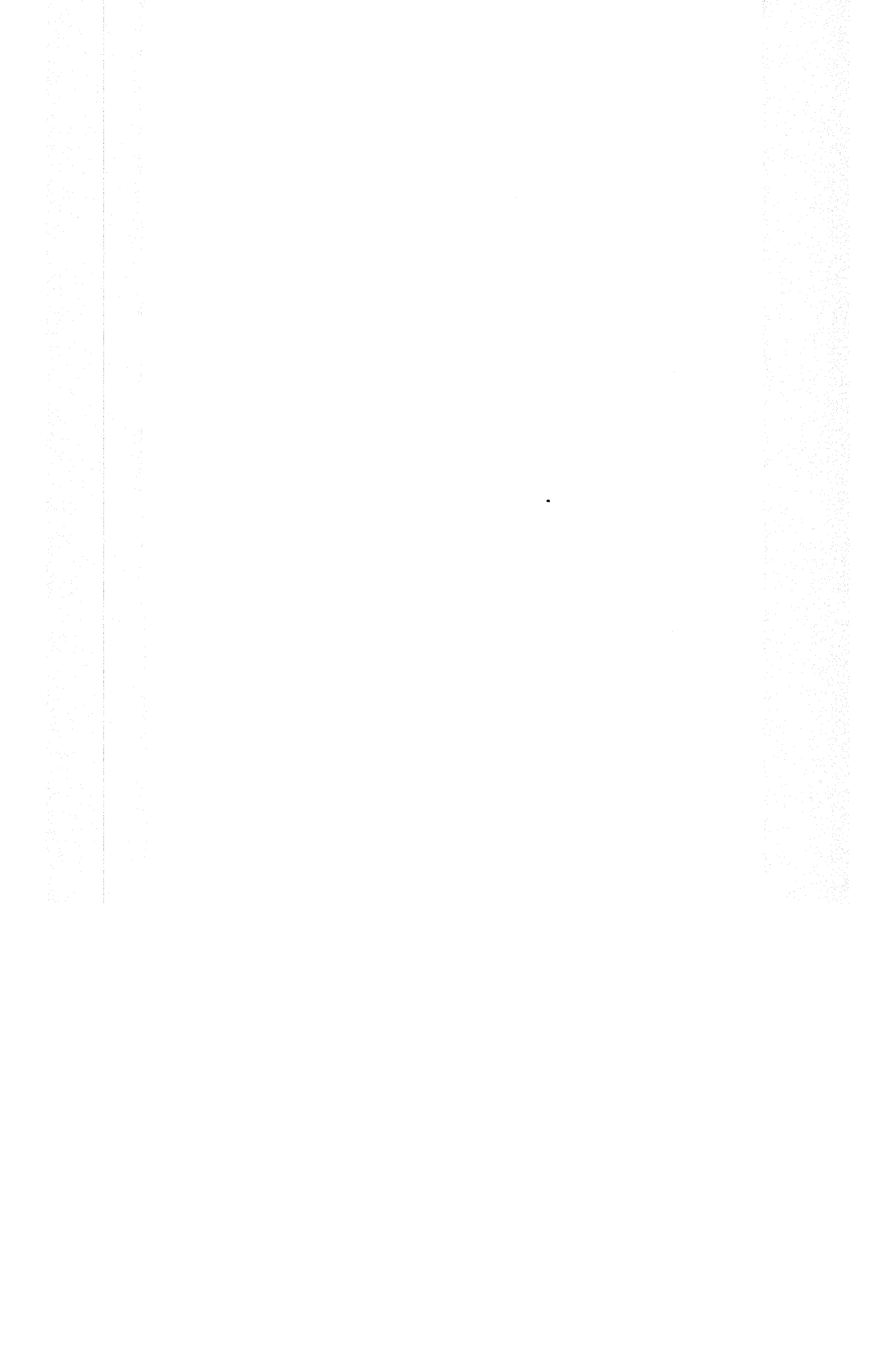
وتأكيدا لانتشار العبادات المصرية من المعبد المصرى إلى معابد العالم، يوازن الأنثروبولوجيون بين عبادات مصر والساميين (عبادات العالم القديم) والعبادات التى عثر عليها لدى الشعوب المعزولة خلف الأوقيانوس العظيم فى استراليا والجزر القريبة منها، وتلك التى عزلها بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) فى الأمريكتين . . ويؤمن الجغرافيون بنظرية تقول : إن الأمريكتين

كانتا قريبتين من غرب أوربا وغرب إفريقيا فى عصور جيولوجية قديمة، لكنْ حدثت زلازل عارمة وعمليات انزياح للقارّة الأمريكية، حيث بعدت أمريكا وتكوّن المحيط الأطلنطى.. وفى عصور أحدث كان الاتصال قائما بين أمريكا والعالم القديم عند ممرّ « بهْرنْج » حيث عبرتْ حيوانات وعبر بشر أو أشباه بشر، ثم اتسع ممرّ بهرنج، وبعدت أمريكا بناسها وحيوانها.. ونما الناس فى الأمريكتين وتطورت الجماعات الإنسانية فى خطوط موازية لتطوّر البشر فى العالم القديم.. وظهرت عشائر فى أميركا وتحكّم فيها إبونايمات أو زعامات، ويبدو أن تلك الشعوب ـ فى بدائيتها ـ كانت من أكلة البشر، كما يبدو من الأحافير.. ولما درس الأنثروبولوجيون تلك الشعوب فى أوائل الكشوف الجغرافية، وجدوا شعائر التضحية بالبشر كثيرة، وهذا عكس ما كان شائعا فى العالم القديم (فى مصر والشرق الأدنى) بسبب نمو البنية العليا فى الأخلاق والقيم والشرائع والقوانين، فالكبش حلّ محلّ إسماعيل أو اسحق إرضاءً لله... كماحلّتْ الظبية محل الفتاة الموكينية (ابنة أجاممنن) فى الأسطورة التى نقلها إلينا أوڤيد فى « مسخ الكائنات » وذلك إرضاء للربة ديانا.

ولاحظ الأنثروبولوجيون توقّف العبادات فى الأمريكتين واستراليا عند حدّ التضرّع والخشوع فيما يشبه طريقة السلام عند شعوب شرق آسيا.. تضرّعٌ وخشوع تصوّفى للرجل السماوى العظيم (الله).. ويعلل الأنثروبولوجيون ذلك، بأن أتباع الإبونايم فى أمريكا كانوا يتذللون ويخشعون أملاً فى النجاة بحياتهم.. ولما كبرت تلك الجماعات وصار لها ما يشبه الأنبياء نقلوا التضرع والخشوع الصوفى ليكون وسيلة التعبّد للرجل السماوى الكبير.

بقى أن نشير إلى أن الإنسان ابن الحضارات، قد نما فكره، ليس بمعنى أن المخ أنتج الفكر والقدرة العقلية فقط، بل بمعنى آخر، انتبه إليه « سيجموند فرويد » حيث يرى أن تطورا عقليا جديدا خص الإنسان وحدَه، وذلك بحكم تعقّد جهازه العصبى المركزى.. لقد صار الإنسان كائناً حساسا، تؤثر فيه المواقف والظروف، وبمعنى آخر صار « كائنا سيكلوجيا » تؤثر فيه الاعتبارات النفسية.. فالإنسان هو الكائن الوحيد « الذى يبكى » إذا تعرّض لموقف مؤلم أو لمحنة أو كارثة أوألم مُمِضّ، بل إن حزنه على شئ ما قد يربك بعض أعضائه المؤثرة (كالقلب. والمعدة) كذلك، فإنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذى تنفرج أساريره إذا ارتاح لشئٍ ما، وقد « يضحك » معبّرا عن سعادته ورضاه وتفهمه لموقف يراه.. وحين يستنجد « الإنسان البسيط » بالله قائلا: ياربُ أعنّى.. ياربُ نجنى. يارب ألهمنى الصواب فإنّه يشعر بذلك المدد الصادر عن اليقين والإيمان بقوى روحيّة قد تبادر إلى مساعدته، وقد تكشف عنه الضُّرّ.. ولا يتوقف « الإنسان البسيط » أمام الأدّلة التى تثبت وجود هذه القوى.. يكفيه الاطمئنان والإيمان الذى زرع فى ضميره عن أن هذه القوى تساعده كلّما ألحّ عليها وصلّى لها.

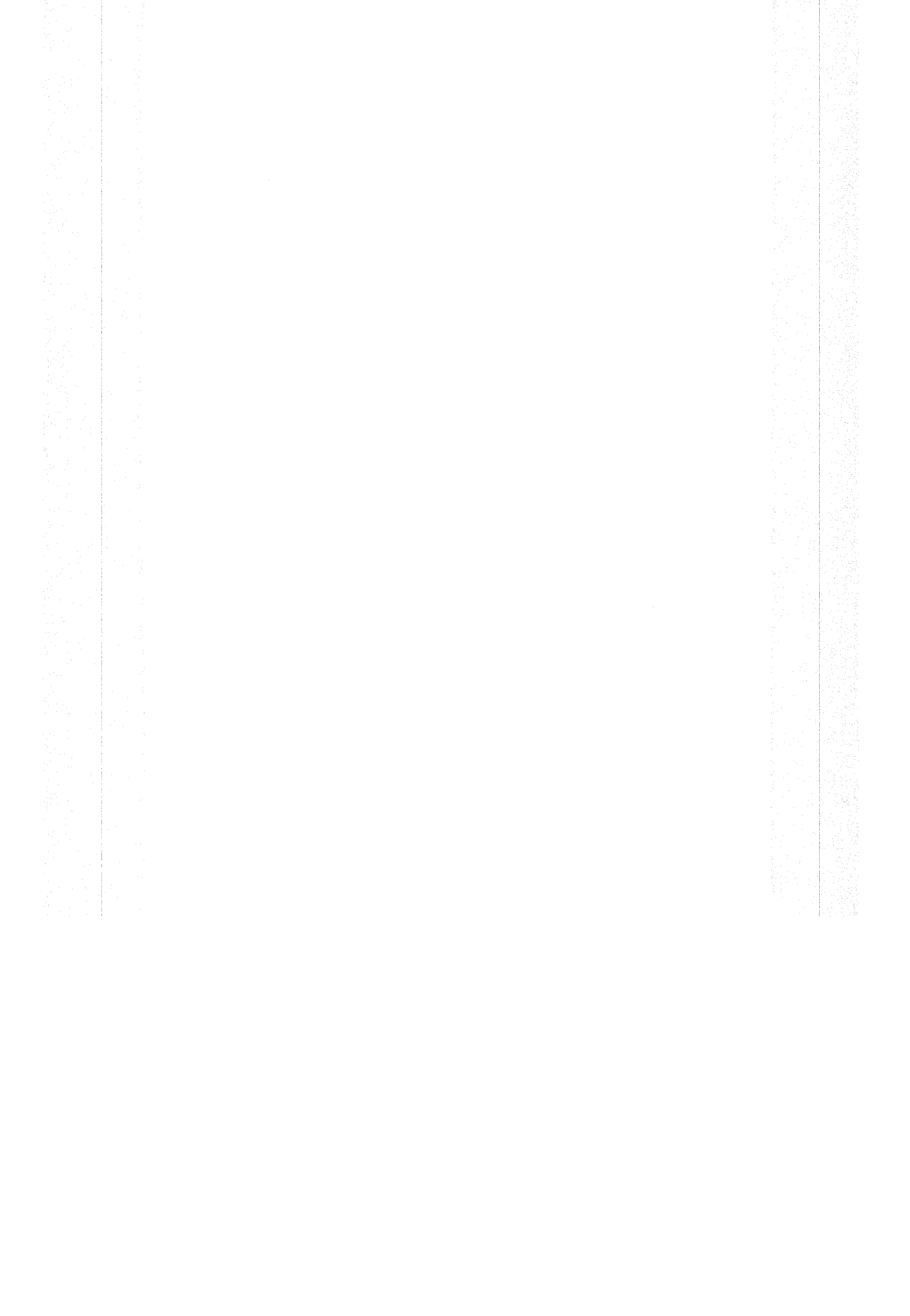






الفصل السادس عشر

أهم ثمار التطوّر الإنسانى فى الأديان



أهم ثمار التطوّر الإنسانى فى الأديان

■ **أولا : حيث لا حضارة تكون رسالات السماء .**

عاش الكائن البشرى عدّة ملايين من السنين « يقف على قدميه كل الوقت » وتُمثّل هذا الإنسان حفرية بكّين، أو ما يُسَمّى « إنسان بكين » الذى لم يكن يختلف ـ إلا اختلافا محدوداً ـ عن الشمبانزى، الذى كان يشاركه العيش فى مناطق السافانا (الحشائش والأعشاب والشجيرات الصغيرة) . . وووقوفه فى السافانا على قدميه أتاح له استكشاف فرائسه واستكشاف أعدائه . . وكذلك كان الشامبانزى قادرا على « الوقوف على قدميه بعض الوقت » . . وبتفتيش الكهف الذى طُمِر فيه « إنسان بكين » تبيّن أنّه كان قادرا على إشعال النار، كما كان قادرا على صنع أسلحة خشنة من الحجر والخشب وأسنان الحيوان . . والفرق التطورى بين « إنسان بكين » و« إنسان نياندرتال » فرق كبير . . ففى مئات آلا فالسنين التى فصلت بن الاثنين تطور المخ لدى « إنسان نياندرتال » بحيث زاد عن ٥٠٪ من حجم مخ « إنسان بكين » . فى حين أن الإنسان الحديث **H.Sapiens** لا يختلف وزن مخه عن وزن مخ نَمَط نياندرتال . . والذى وسّع العمليات العقلية عند الإنسان الحديث **Homo Sapiens** هو تعرّف الإنسان الحديث على صوته وبداية استغلاله للصوت فى النداء والإشارة من بعيد .

ساعد التصحّر فى مناطق السافانا على نمو عقل الإنسان الحديث . . ذلك أن التصحّر ألجأ البشر إلى وديان الأنهار، إن كان هناك أنهار، وحيث تكون الأنهار تكون الغابات، وينادى البشر بعضهم بعضا فتطورت الأصوات إلى

لغات، وفكّر الإنسان باستخدام اللغة كوسيط للعقل؛ واحتاج الإنسان إلى وقت من الليل، فأشعل النار وتجمع البشر فكانت الحضارات حول الأنهار فى مصر وبابل وآشور والهند والصين...

وارتقى الإنسان وآمن بالأخلاق والضمير والصدق والعدل (الإلهة ماعتْ عند المصريين) قَبْل اليونان والرومان وأصوات سقراط وأفلاطون وأرسطو.. بل قبَل إبراهيم وموسى وأشعياء وداود وسليمان ويسوع ومحمد ببضعة آلاف من السنين، كان أنبياء مصر وحكماؤها يبشّرون ـ بعد عصر التوحّش ـ بعصر إنسانية الإنسان وفجر الضمير.

إن الارتقاء الأخلاقى الذى قامت به الحضارات القديمة (فى مصر وبابل وآشور وفينيقيا وفارس والهند والصين...) لم يصل إلى ثماره بعْدُ.. إنه يصل إلى ثماره حين يتحكم البشر فى أعدادهم المتزايدة، وحين تقلّ أعداد البشر، تكفى خيرات الأرض كلَّ البشر فتنتهى الصراعات والحروب.

على أرض فلسطين تقوم آخر حروب الإبادة، حيث يقوم الأوربيون والأمريكيون وغيرهم بإخراج الفلسطينيين من أرضهم (بعد ارهابهم بالقتل والسجن) وإحلال يهود العالم محلهم.. باجتراء وقح على القيم والأعراف والمبادئ والقوانين.

إن الارتقاء الإنسانى الاجتماعى والأخلاقى يمثّل نوعاً من التطوّر الجديد للجنس البشرى.. وإن الصراعات البشرية، والسياسات غير الأخلاقية لبعض القوى المتحكمة فى مصير العالم ـ كالولايات المتحدة ـ هى التى تسمح ـ من حين لآخر ـ بحدوث جرائم دولية كجريمة طرد الفلسطينيين من أرضهم وإحلال آخرين مكانهم.. بل كثير ما قامتْ هذه القوى المتحكمة بحروب

وإغارات على مناطق كثيرة (كالعراق وأفغانستان) دون ما سند من حقّ أو قانون .

دول الحضارات القديمة (مصر . بابل . آشور . فينيقيا . فارس . الهند . الصين) قام أنبياؤها بجهد كبير فى نمو الحضارة الإنسانية . . أما البدو الساميون من عبرانيين وغير عبرانيين، فلم يسهموا فى الحضارة الإنسانية . . إن حضارات شرق آسيا فى فارس والهند والصين واليابان، ساهم أنبياؤهم (بوذا . ذرادشت . مانى . كونفشيوس . . .) فى رقى الإنسان . . أما العبرانيون فإنهم قدّموا للبشرية قيادات عسكرية وسياسية تهدف إلى توحّدهم لغزو دول الحضارات . . كانت مصر القديمة فى حاجة إلى نبوات ترقّى الأخلاق فظهر أنبياؤها . . وكانت فارس فى حاجة إلى نبوات فظهر أنبياؤها . . وكانت الهند فى حاجة إلى أنبياء يحرّكون ضمائر البشر فكان أنبياؤها . . وكذلك فعلتْ الصين .

أما العبرانيون والساميون، فلم تكن لديهم حضارة، هم مجرد بدو ضاربين فى الصحراء، بلا حضارة ترقّق المشاعر وتهذّب السلوك . . وحيثما لا تكون حضارة تكون رسالات السماء .

☆☆☆☆☆

■ **ثانيا : ثمار كشف آثار الحضارات ولغاتها .**

يقول جيمس هنرى برسْتدْ(١) : « يرفض دارسو الحضارات الإنسانية الآن ادعاءات أنبياء الساميّة، بأن رسالاتهم قد هَبَطَتْ لهم من السماء، بالرغم من أن أنبياء الحضارات لم يدّعوا صلة بالسماء (أنبياء مصر وفارس وفينيقيا، وبالبل وآشور والهند والصين واليابان) والذى جعل أنبياء السامية يدّعون ذلك التميّز، أنهم سلبوا أنبياء الحضارات نبواتهم . . ثم زالت الحضارات القديمة، وطُمِرَتْ آثارها وضاعت لغاتها ومتونُها المقدسة . وتمّت ـ منذ منتصف القرن التاسع عشر ـ كشوف كثيرة للحضارات الغابرة، كما استطاع علماء أوربيون فك طلاسم اللغات القديمة (الكتابة المصرية – شامبليون – حجر رشيد) ووازنوا بين متون أنبياء السامية، وأنبياء الحضارات القديمة، واكتشفوا أن الأنبياء العبرانيين الساميين، نقلوا معظم متون الحضارات القديمة . . ولعل أهم وأجل خدمة قدّمتها لنا الحفائر الأثرية هى كشفها عن التقدّم الاجتماعى والخلقى الذى أحرزته حضارة عظيمة كالحضارة المصرية بأنبيائها الأخلاقيين، قبل العبرانيين بأكثر من ألفيْ عام . . حيث قام العبرانيون منذ وقت كبير بالتلمذة على أيدى أنبياء مصر » .

إن أنبياء مصر وصلوا منذ آلاف السنين إلى قيمة الطقوس الدينية كوسيلة تعويد للبشر على الخضوع وتنفيذ أوامر رع (لا = الله) أو آمون أو آتون . . بل كانت لدى المصريين صلوات جماعية يؤمها الكاهن . . وانتقلت صُوَرُ العبادات المصرية للعبرانيين، بل ولليونان والرومان والكنائس المسيحية . . « كُشِفَ عن تأثير مصرى لطقوس عبادات وصلوات على نهر الفرات، حيث عُثِر على قلعة شاسعة يعرفها الأهالى باسم قلعة « الصالحية »،

وكُشِف عن أحد عشر شخصا مصورين على الجدار بحجم طبيعي وهم يؤدون صلاة ويؤمهم كاهن بملابس مصرية.. ثم كُشِفَ بعد ذلك عن تصوير لطائفة من الجنود الرومان فى أوائل الميلاد يقودهم شخص اسمه يوليوس ترنيتوس ويؤمّهم فى صلاة جماعية»[٢].

كذلك رأى جيمس هنرى[٣] فى مناطق مختلفة من سيناء صورا لفراعنة على بعض بقايا الجدران.. وكانت مصرُ هناك فى سيناء تصدّ عن حدودها جائحة القبائل العبرانية الجائعة.

كان وجود اليهود «وجودا حفريّا نادرا» فى العالم قبل الميلاد.. كان آحادً منهم يعملون فى مكتبة الإسكندرية الكبرى التى كانت جامعة كبرى لكل شعوب الشرق الأدنى والبحر المتسوط.. ويرى معظم دارسى الأديان أن المسيحية هى التى أظهرت فكر اليهودية والعهد القديم.. فاليونان والرومان من بعدهم تجاهلوا وجود اليهودية كدين.. وحين بدأت المسيحية تنتشر (أولاً من مصر).. فكأن «العهد القديم» انشقّ وخرج منه اليهود.. مع شعور الدارسين ـ فى ذلك الوقت ـ أن العهد القديم ما هو إلا فكر المصريين، وقد حَذَفَ منه العبرانيون الآخرة وعالم الثواب والعقاب.. وأحيانايؤمن بعض أنبياء العبرانيين المتأخرين مثل دانيال ويسوع المسيح بالآخرة والقيامة (وإن كان مع الشكّ فيها كما ينقله إلينا التعبير المسيحى «رقد على رجاء القيامة») ولعل الأنبياء العبرانيّين الذين زاروا مصر ودخلوا معابدها، كانوا ـ

(١)،(٢)،(٣) جيمس هنرى برستد مؤرخ وآثارى عظيم متقن للغة المصرية، وصاحب «فجر الضمير» الذى يرى أن مصر علَمتْ أنبياء السامية - تُرْجَمَ الكتاب إلى العربية الآثارى المصرى العظيم سليم حسن - طبعة جديدة ١٩٩٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كالمصريين ـ مؤمنين بالآخرة.

الفلاسفة والعلماء السكندريون عدد ضخم.. وغلب على جامعة الإسكندرية ـ قبل الميلاد وبعده بقليل ـ الإيمان بـ «الصدفة» كقانون أبدىّ، أما الآلهة فقد جرّدوها من ثوبها الأسطورى الذى يجذب البشر.. وتحوّل مبدأ «الصدفة» إلى البحث فى العِلَل المؤدية للظواهر وقوانين الطبيعة.. وكانت المرحلة السكندرية من المراحل البشرية العلمية التى أثمرت فى مصر، وكانت جامعة الإسكندرية تضم أعلاما بارزين أسهموا وأثمروا فى التقدم الإنسانى:

- إقليدس السكندرى متخصص فى الرياضيات والهندسة.
- أرشميدس فى الرياضيات والفيزيقا.
- أرِسْتَرْخوس فى الفَلَك والرياضيات.
- أراتو سيثينيث فى الجغرافيا وتقاويم البلدان.
- هيروفيلوس فى الطب.

إن السكندريين كان من ثمارهم الإيمان بالقانون العلمى حيث يبحثون عنه.. وبعض الدارسين الأوربيين يعتبر السكندريين وديكارت وابن رشد من أكبر الدعاة إلى منهج الشك الذى أدى بالإنسان إلى اكتشاف القوانين العلمية.. إن عصور «اليقين» الدينى الأسطورى، ليس لها ثمار إلا التخريب للعقل والحضارة.. إن رجال الدين يحاولون التقليل من شأن العلم، ويَصِمُون العلم بالتفاهة، بل إنّ أحدهم، وكان يملأ شاشات التلفزيون ـ رحمه الله ـ يقول: «إنّ من اخترع ورقة الكلينيكس أو عود الكبريت، قد أفاد البشرية أكثر مما أفادها من اخترع الصاروخ الذى سافر إلى القمر».

☆☆☆☆☆

■ **ثالثا: البابا والبطريك والخليفة.**

بابا **papa**، بطريك **patriarchate** ، خليفة.. اللقبان الأول والثانى لهما صلة بالأبوة وارتفاع المكانة. و«الخليفة» تسكت عنه المجامع العربية ولا تقول لنا: من الذى يخلفه الخليفة؟ هل يخلف الله؟ هل يخلف الرسول؟ كلّ ما ذكرتْهُ كتبُ التاريخ الإسلامى: أن عمر بن الخطاب، بعد وفاة أبى بكر، وكان لقب أبى بكر «خليفة رسول الله» فلم يرض عمر بأن يُقال عنه: «خليفة خليفة رسول الله»، وقال للناس: أنتم المؤمنون، وأنا أميركم، فأنا أمير المؤمنين.

أعلام الدراسات الدستورية والسياسية فى العالم، وعلى رأسهم آباء الديموقراطية «والعقد الاجتماعى» يروْن من استقراء التاريخ الماضى والمعاصر ـ أن «قيام دولة على أساس دينى معناه العودة بالمجتمع إلى ظلمات العصور القديمة، «حيث يتحوّل النظام السياسى (الذى يُفترض أنه مبنيّ على العقد الاجتماعى) إلى نظام يشبه «النظام العسكرى» المعتمد على قائد يصدر أوامر، وجنودٍ يمتثلون وينفذون تلك الأوامر، ومن يعترض ليس له إلا الموت، لأنه خائن»[١].

خضعت العصور الوسطى المسيحية لهذا النظام العسكرى الدينى الرهيب، وحكم على كثيرين بالكفر وأُعدِمُوا .. حتى نهض الأوربيون وتخلصوا من سطوة البابا والبطريرك.. ونفّذوا قول المسيح «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» وظهرت العلمانية بمعناها الصحيح **Secularism**، وهو

(١) جان جاك روسو - العقد الاجتماعى.

الفصل بين الدين والدولة وارتقت أوربا بالدساتير والقوانين المدنية.

أما العرب والمسلمون، فقد قهرهم الخليفة، وأمير المؤمنين، والسلطان، والزعيم المؤمن وآية الله.. وهؤلاء جميعا يزعمون « أنهم ينفذون شرع الله » ليجتذبوا إليهم السُّذّج من عباد الله الذين تغريهم الأسطورة ويعجزون عن فهم العلم والحقوق:

١- كان معاوية بن أبى سفيان، بعد مصرع الإمام علىّ، أميراً للمؤمنين، ومعاوية أحدُ كتّاب الوحى، أمر بلعن علىّ على جميع منابر المسلمين.. ولما عوتب فى ذلك قال: سيستمرّ اللعن، حتى يَشُبّ عليه الصغير ويشيب عليه الكبير، وظل لعن الإمام علّى سُنّة عند بنى أمية، حتى وصل إلى الخلافة عمر بن عبد العزيز فأبطل اللعن.

٢- أبو عبد الله السفاح شقيق أبى جعفر المنصور وأحد مؤسسى الخلافة العباسية العاملة بالكتاب والسنة، كان وراء قتل أبى مسلم الخراسانى دون سند من الشرع، بل جمع الأمويين وذبحهم، وبَسَطً على جثثهم البُسُط وتناول عشاءَه، بينما كانت أجساد بنى أمية لا تزال تَرْعَش.. وأبو عبد الله السفاح كان ـ قطعاً ـ يعمل بشرع الله بحسب ادعائه!!!

٣- والرشيد ـ أمير المؤمنين ـ وخليفة الله أو خليفة النبىّ، جمع البرامكة (الذين أداروا له الدولة) وذبحهم جميعا، دون ما سند من شرع.

٤- والجماعات الإسلامية المعاصرة، التى ترفع شعار « تطبيق الشريعة » إن وصلت إلى الحكم لن تكون أقلّ انتهاكا للحريات وحرمة الدماء من السابقين.. إن هذه الجماعات قتلت السادات، توهّما أن قتله سيجعلهم حكاما.. وكذلك قتلوا فرج فودة.. وحاولوا قتل نجيب محفوظ..

وحاولوا قتل نصر حامد أبو زيد، ولما لم يستطيعوا استصدروا حكما للتطليق بين الدكتور نصر وزوجته (لا أدرى كيف استطاعوا ذلك) وهرب نصر مع زوجته خارج البلاد.

٥- ووصل «آيات الله» إلى الحكم فى إيران.. صحيح أن النظام الملكى الإيرانى كان مستبدا وكان يستعبد الشعب.. وصف الأستاذ محمد حسنين هيكل المخيّمّ الملكى الذى أقيم فوق هضبة بعيدة عن طهران، فقال: طهروا الهضبة وضربوها بالنابالم، وأقامت لهم شركة فرنسية مخيمّا كقطعة من الجنة، وكان المرحوم حسين الشافعى حاضراً ممثلاً للحكومة المصرية، ويذكر الأستاذ هيكل أن بعض أدوات السفرة كانت من الذهب، ونظرا لأن الاحتفال كان بمرور مئات السنين على عرش الطاووس، فكانوا يستوردون الطواويس من الهند مع كل صباح لتكون جاهزة مع وجبة العصر.. كل هذا صحيح.. وكان الشاه يستحق أن يثور شعبُه عليه.

لكنْ: ما النتيجة؟! كلّ العالم كان يتوقع حكومةً رشيدةً مؤسسةً على الديموقراطية.. ولكنْ تحولتْ حكومة آيات الله إلى حكومة دينية ذات طابع عسكرى.. وضاعت حريّات الناس.. وضاعت أرواحٌ كثيرة.

☆☆☆☆☆

■ رابعاً: الثمرة الأخيرة:

«تطوّر القوانين ونسخُها فى الإسلام»

النسبة الغالبة من المفسرين يرون فى «النسخ» تغييرا فى الأحكام أو إسقاطاً لبعض الأحكام. فالآية ١٨٠ من سورة البقرة تقول: ﴿ **كُتبَ عَلَيْكُمْ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ للْوَالدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوف حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ ويعلق صاحبا تفسير الجلالين على نسخ الحكم فى الآية فيقولان «وهذا كله منسوخ بآيات الميراث، وبحديث الرسول: «لا وصية لوارث» الذى رواه الترمذى. ويؤكدان ما يقولان فى تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة التى تقول: ﴿ **مَا نَنْسَخْ منْ آيَةٍ أَوْ نُنسهَا نَأْت بخَيْرٍ مّنْهَا أَوْ مثْلهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ** ﴾ ويفسران فيقولان ﴿ **نَنْسَخْ منْ آيَة** ﴾ أى نُزلْ حكمها، إما مع لفظها أوْ لا. ﴿ **نَأْت بخَيْرٍ مّنْهَا** ﴾ أنفع للعباد. ﴿ **أَوْ مثْلهَا** ﴾ فى التكليف والثواب.

كذلك من الثابت تاريخيا أن رسول الله سمح بزواج المتعة (المعلّق على زمن) فى بضعة الأيام التى قضاها المسلمون فى مكة بعد فتحها.. ثم نُسخ هذا الحكم بعد خروج المسلمين من مكة إلى المدينة (وإن كان الشيعة يرون أن السماح بزواج المتعة له أدلة، أما نسخ الحكم فلا دليل عليه).

ومحصلة كل هذا أن الرسول غَيّر أحكاماً بنسخها فى حياته هو، وحياته لم تزد عن بضعة وستين عاما. .والزمن بين وفاته، وبين زمننا أربعة عشر قرنا.. إذن فإعادة تفسير الأحكام، أو حتى تغييرها أمر مقبول بل مطلوب لصالح المجتمعات الإسلامية.

واليهود والمسيحيون يتغاضوْن عن أحكام سابقة، يروْن أنّها لا تتفق مع الظروف الآنية، ولهذا وضعوا قوانين جديدة، وغضّوا الطرف عن أحكام العهد القديم والعهد الجديد.. وبدهيّ أن الكنائس الشرقية تحافظ على القديم، بعكس الكنائس الغربية والبروتستانت (تلتزم الكنيسة المصرية بأن لا طلاق إلا لعلة الزنا) كما تلتزم بأن « ما جمعه الله لا يفرقه إنسان »).

أما الجماعات الإسلامية فهى جماعات مندفعة أو مدّعية، كل ما يهمها هو الوصول إلى الحكم برفع شعار تطبيق الشريعة الذى يجتذب البسطاء من الناس.

وكلنا يعرف مأساة على بن أبى طالب، حين رفع عمرو ومعاوية المصاحف على أسنّة الرماح مطالبين بأن يكون « الحكم لله ».. ونادى الإمام علىّ جنوده، وقال لهم عن خدعة عمرو ومعاوية إنها « كلمة حق يُراد بها باطل » لكنْ؛ لم يستجب أحد للإمام علىّ.. إن عَمْراً ومعاوية لم يكونا صادقين فى قولهما « إن الحكم لله »؛ وفى الحقيقة كانا يطلبان الحكم لبنى أمية.

إن من يرفضون الناسخ والمنسوخ فى القرآن، وفى أحكام أخرى وردت فى السُّنّة، يرفضون النّسخ لأنهم تعوّدوا على وضع قائم لا يقبلون غيره، كما أنهم يرفضون « إعادة قراءة أو تفسير النصوص وفقا للمصالح المرسلة » لعباد الله.. مع علمهم بأن « المصالح المرسلة » باب كبير من أبواب الاجتهاد فى الإسلام. وحين قرأ هؤلاء أن المجْمَع الفقهى التونسى فى سبيله لإلغاء تعدّد الزوجات، وفقا للمصالح المرسلة، واستدلالا ببعض آى القرآن ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ من الآية ٣ من سورة النساء، كمقدمة كبرى، ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ من الآية ١٢٩ من سورة النساء، كمقدمة صغرى أو مقدمة تعليلية كما يقول

أرسطو فى قواعده المنطقية، والنتيجة منْع التعدد] حين قرأ هؤلاء ما يعتزمه المجْمَع الفقهى التونسى ثاروا وهاجموا التونسيين.

إن هؤلاء الذين يرفعون شعار « لا حكم إلا لله » وشعار « تطبيق الشريعة الإسلامية » لا يهمهم الإسلام ولا يهمهم المسلمون، إن الإسلام عندهم « مجال حيوى » أو « بيزنس » يحققون فيه مصالحهم الشخصية، فضلا عن أنهم يعرفون « ترف الحكام العرب والمسلمين » فيسعون إلى الحكم برفع الشعارات (ولا مانع لديهم من رفع المصاحف على أسنّة الرماح كما فعل عمرو ومعاوية سعيا إلى الحكم).

ونذكر - بالتقدير - الخليفة الثانى عمرَ بن الخطاب، فبعد أن طعنه أبو لؤلؤة، عَيّن الستّة الذين يُختارُ منهم الخليفة الثالث، وعَرَض المحيطون به أن يجعلهم سبعة بإضافة اسم ابنه الحافظ الفقيه « عبد الله بن عمر »، فرفض عمر وقال: « يكفى أبناء الخَطّاب أن يتحمّل واحدٌ منهم عبء الحكم » .. فالحكم - عند عمر - عبء.

☆☆☆☆☆

خاتمة

اللاهوت بين الشرق والغرب

« الله » في اللاهوت الغربى المعاصر قريب من الفلسفة العقلية، فالله الواحد القائم على الأقانيم الثلاثة هو ضابط حركة الكون، وهو القانون الذى يقف خلف كل قوانين الطبيعة، لا تزال الشمس تشرق من مكانها، وتغرب فى مكانها، ولا زالت وجوه القمر تتعاقب، وحركات المدّ والجزْر، وقوانين نيوتن، وقواعد الهندسة.. وبدهيّ أن الله كعقل كونى جبار يقف خلف كل هذا.. كذلك فإن « الله » يضبط سلوك الإنسان بفكرة الثواب والعقاب، أو الفردوس والجحيم، التى ظهرت ـ أول ما ظهرت ـ فى مصر ـ بارادوس المصرية **paradose** بارا = بيت، دوس = نعمة « بيت النعمة » باراعون = فرعون. بارا = بيت، أون أوعون = العالى أى البيت العالى رمزا لفرعون، جِى = رب أو وادى. هانوم: العذاب = جهنم].

« الله » مسئول عن قيامة الموتى لدى المصريين واللاهوت الغربى [مع الرجاء، الذى يحمل الشكّ، وهو موجود فى العبارة المسيحية المشهورة: « رقد على رجاء القيامة »] وهو المسئول عن البعث واليوم الآخر عند المسلمين، كما أنه المسئول عن « النرڤانا » أى الحلول فى الله، فى الأديان المتأثرة بفكر « بوذا » فى البوذية الهندية، والذرادشتية الفارسية، والكنفشيوسية الصينية، والطاويّة اليابانية.

الفلسفات اللاهوتية المتأثرة بالبوذية فى الشرق الأقصى، تكاد تكون

فلسفات تأمليّة عقلية بعيدة عن المغيبات والأساطير التى تكثر فى أديان السامية فى الشرق الأدنى، كما يغلب على أديان الشرق الأقصى الروح المهرجانية الاحتفالية الانبساطية، وهذه الروح متحققة فى عباداتهم، ولهذا قلنا (فى الفصل الحادى عشر) الذى بعنوان « التراث الدينى وتطوّر الجماعات » : إن أديان الشرق الأقصى، لم تكن فى يوم ما وسيلة تحول دون تطوّر الجماعات الإنسانية.

لا يزال « الله » فى اللاهوت والفلسفة الإسلامية، أقرب إلى التصوّر المادى الشخصانى، وهى نفسها صورة « الله » فى العهد القديم. حتى أن « روح الله ترفّ على وجه المياه » فى سفر التكوين، بل ينسب سفر التكوين إلى الله صفات بشرية : « استراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل. وبارك اليوم السابع وقدّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا » (تكوين – آخر الإصحاح الثانى).

بل إن آدم وحواء : « سمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنّة » بل يُجرى سفر التكوين حوارا بين آدم وحواء والرب الإله فى الجنة،حيث نادى الرب الإله آدم وقال له : « أين أنت؟ » فقال : « سمِعْتُ صوتَك فى الجنة فخشيتُ لأنىّ عريان فاختبأت » فقال : « من أعلمك أنّكَ عريان؟ هل أكَلْتَ من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها؟ » فقال آدم : « المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلْتُ » فقال الربّ الإله للمرأة : « ما هذا الذى فَعلْتِ؟ » فقالت المرأة : « الحيّة غرّتنى فأكلْتُ » (من سفر التكوين – الإصحاح الثالث).

وبالرغم مما جاء فى العهد القديم، فإن العقل الغربى الحديث (يهودى

ومسيحى) تجاوَزَهُ. أما اللاهوتَ الإسلامى، فتغلُبهُ الروح التجسيمية، ويقل فيه الجانب المنطقى، كذلك فإن اللاهوت الإسلامى المعاصر، لا يختلف فى فهمه للنصوص والمتون عن قُدامى المسلمين.

يقول الباقلانى : « إن الله قادرٌ على التحريك (تحريك الأشياء والبشر) فى حين أن الإنسان قادر على التحرّك فقط (؟!) وهذه القدرة الإلهية، التى تحرّك كل شئ، تعنى أن الأجسامَ والأجرام التى تتحرك مفتقرَةٌ إلى الله » .. ثم ينتقل الباقلانى - بعد ذلك إلى الحديث عن الإنسان فيقول : « إن أقصى ما نستطيع أن نضيفه إلى قدرة الإنسان فيما يتعلق بظاهر الحركة، خاص باللحظة الثانية من لحظات الجسم، أما اللحظة الأولى، وهى فعل الإيجاد، فهى وقفٌ على الله - سبحانه - وابتداءً من اللحظة الثانية فقط نستطيع أن نتحدّث عن قدرة الانسان »؛ بل إن الباقلانى يرى أنه « حتى فى هذه اللحظة الثانية، فإن الإنسان ليس هو المحرّك الحقيقى، بل الفاعل هو « الله » أيضا (؟!) ومعنى ذلك أن أى جسم - فى جميع لحظاته - وكذا الإنسان مفتقِر فى وجوده إلى الله »[1]

قدّم ابن حزم أدلّة لاهوتية لإثبات وجود العالم، وكلها يشترك فى الاعتماد على فكرة « التناهى » لكنّ التناهى عند ابن حزم، ليس قائما على فكرة الجواهر والأعراض، بل إنه يقوم على أن الكون يَنْحَلُّ إلى ذرات متناهية .. وهى فكرة « تَدِقُ عن الفهم » كما يقول ابن حزم نفسه، أو هى فكرة تحكمية كما يقول معارضوه.

---

(١) الباقلانى (أبو بكر محمد) (توفى ٤٠٣ هجرية ١٠١٣ ميلادية، قاض ومتكلم أشعرى من كبار علماء الكلام. والنص هنا من كتابه «إعجاز القرآن».

ويرى الأشاعرة أن الله خَلَق المادّة، وأن المادّة لها صفات عارضة، ولابد أن يكون الله هو الذى خلق تلك الصفات.. وقال الأشاعرة بذلك يعارضون رأى المعتزلة (عقلاء الإسلام) الذين يمكن تلخيص آرائهم فى :

١- قولهم حيناً بأنه لا وجود لصفات المادة، وما نطلق عليه « صفات المادة » ليس إلا مظاهر للمادة نفسها (وهذا ما ذهب إليه « الأصمّ » و« النظام » من المعتزلة).

٢- وقول غالبية المعتزلة : « إن الصفات موجودة، ولكنها ليست من خلق الله، بل من خلق المادة نفسها، أى أنها نتاج الفاعلية الذاتية للمادة، وهذا ما أطلقوا عليه اسم « التّوالد الذاتى » حيث تصوّروا الصفات على أنها من فعل المادة (كما يقول واصل والزمخشرى).

وهذا الموقف الذى وقفه المعتزلة من المادة، ورغبتهم فى منحها قليلا من الحرية، يتفق مع موقفهم العام الذى وقفوه بالنسبة لعلاقة الله بالإنسان، ورغبتهم فى منح الإنسان المزيد من الحرية والإرادة، اعتمادا على ما ذهبوا إليه من أن الله « عادل » ولا يُنْسَبُ إليه الشرّ، فإنْ كان شرٌّ فهو من الإنسان، وجعلوا الإنسان « مسئولا عن أفعاله » لأن « إرادته حُرّة ».

وربما يعترض معترض على المعتزلة فيقول : « إن المعتزلة نسبوا إرادة الفعل إلى الإنسان، ومعنى هذا أنهم انتقصوا من إرادة الله » ويردّ المعتزلة بأن : « نسبة الإرادة للإنسان تحقق مفهوم « العدل » حيث إنّ الإنسان مسئولٌ عن أفعاله ويُحاسَب عليها ».. ويصوّب المعارضون رأى المعتزلة، ولكنهم يعترضون على فكرة أخرى فيقولون : « ما معنى نسبة القضاء والقدر إلى الله؟ » فيرد المعتزلة بأنّ : « نسبة القضاء والقدر إلى الله، لا تعنى مسئوليته -

سبحانه ـ عن القضاء والقدر، فالمسئول هو الفاعل أى الإنسان أما الله ـ سبحانه ـ وهو سابقٌ على الزمان، فمسئوليته عن القضاء والقدر تتوقف عند مجرّد «سابق علمه با يقع» ولهذا وصف المعتزلة الله بالعدل والتوحيد، يقول الباجورى فى «جوهرة التوحيد»:

إرادةُ اللهِّ مع التَّعَلُّقِ   فى أزلٍ قضاؤهُ فَحَقِّقِ
والقَدَرُ الإيجادُ للأمورِ   على وفاق عِلْمِهِ المْذكُورِ

كذلك، فإن المعتزلة قالوا «بواحدية» الله، حيث إن صفاته هى ذاته، ويتهم المعتزلة الأشاعرة بإثباتهم صفات متعددة خارجة عن الذات، وهذا يؤدى إلى شبهة التعدد.

☆☆☆☆☆

اللاهوت الإسلامى والمحْدَث

يرى الباقلانى أن المحدث هو الموجود من عدم، ومعنى ذلك أن الشئ المحدث لم يكنْ، ثم كان، وبعبارة أخرى فإن الشئ المحدث مسبوقٌ بالعدم. وهذا التعريف الذى يقدمه الباقلانى للمحدث يُقصدُ به نقد المعتزلة الذين يعارضون «الإحداث من العدم» ولا يتصوّرون إمكان الإحداث من العدم، ولهذا يقدّم المعتزلة صياغةً أخرى للإحداث وهى: «إحداث الشئ كان ثم كان».. أى أن الشئ «كان بصورة ما» قبل أن يتحقق «تحقّقا فعليّا فى دنيا الأعيان». ويطلق المعتزلة على حالة الشئ قبل أن يتحقق «حالة الثبوت أو الممكن» ومعنى ذلك أن الشئ قبل أن يوجد لم يكن عَدَماً، كما يذهب الأشاعرة، بل كان ممكناً، وحالة الممكن هى حالة «بين بين»، بين حالة الشئ متحققا فى الخارج، وبين كونه عدما، وكأنّ المعتزلة يقولون: «إن الخلق من العدم ليس متصَوّرا».. وهذه النظرة عند المعتزلة تذكرّنا بعالم المثل عند أفلاطون.(1)

وعلى كل حال، فإنّ لاهوت أديان السامية يُصِرّ على «زرع اليقين» بين أتباع أديان السامية الثلاثة، ولا يترك لهم فرصة للشك.. أو إعادة القراءة وإعادة التفسير؛ وبينماتخّطى اليهود والمسيحيون «اليقين»، فإن المسلمين (بُسطاء وكهنوت) لا يزالون واقعين تحت أسر «اليقين».

(1) آراء المعتزلة نقلناها عن الزمخشرى (أبو القاسم محمود 1075م - 1144) إمام عصره فى اللغة والبيان والتفسير وهو منسوب إلى «زمخشر» من أعمال فارس. وهو من كبار المعتزلة، والمنقول عنه فى «أساس البلاغة».

التطور العقلى الغربى و« المعقوليّة » الإلهية

اليهودية والمسيحية الغربية، عادتا إلى المعابد والكنائس منذ عصر النهضة، وتركتا البَشَرَ يفكرون ويتشككون ويخرجون من أسر « اليقين »، بل حدث إعادة قراءة، وإعادة تفسير لمتون العهد القديم.. ولكن - وللأسف - لا يزال الإسلام بنصوصه ومتونه، يُستخدم بطريقة لا تسمح بأية هوامش، فضلا عن أن « فهم النصوص لا يزال منصوصا عليه ».. كذلك ، لازالت - بين ظهرانينا جماعات إسلامية تنادى بالعودة للمجتمع « اللاهوتى القديم »، حيث لا حرّيات، ولا دساتير، وحجر هؤلاء على مجتمعاتهم بالإرهاب والقتل والعنف و« العقد الإلهى » بينما تقدمت المجتمعات الغربية، وتجاوزت « العقد الإلهى » إلى « العقد الاجتماعى » بل إن هذه المجتمعات تجاوزت الأوهام والأصنام والأحلام ابتداءً من القرن السادس عشر.

ظهر فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) وقال « إن الإنسان معرّض للوقوع فى أربعة أنواع من الأخطاء العقلية، أطلق عليها اسم « الأصنام » أو « الأوهام »، فهناك « أوهام القبيلة » أى أوهام الجنس البشرى، ومنها تحكم أمانينا فى اتجاه تفكيرنا، وبوجه خاص: توقعنا أن نجد فى الظواهر ما يزيد على ما فيها؛ وهناك أوهام الكهف وهى نقاط الضعف الفردية فى كل شخص وهى لا حصر لها ولا عدد. أما أوهام السوق فهى الأخطاء الناجمة عن ميل الذهن إلى الانبهار بالألفاظ، وهوخطأ يتفشى فى الفلسفة بوجه خاص. وأخيرا فإن أوهام المسرح هى تلك الأخطاء التى تنشأ عن المذاهب والمدارس الفكرية، والمثل المفضل لدى بيكون، فى هذا الصدد هو المذهب

الأرسطي .[1]

ثم ظهر توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) الذى كان يقدّر الاتجاه التجريبى الرياضى . ثم ظهر « رينيه ديكارْت » (١٥٩٦-١٦٥٠) وهو مؤسس الفلسفة الحديثة، بكتابه الشهير « مقال فى المنهج » . . والذى يذكر فيه الكوچيتو الديكارتى الشهير : « أنا أفكر إذن أنا موجود » والذى ينبنى عليه « الشكّ الديكارتى » .

ووصل تلاميذ « ديكارت » مثل جولينكس (١٦٢٤-١٦٦٩) ومالبرانش (١٦٣٨-١٧١٥) إلى نظرية (من خلال فكر أستاذهم ديكارت) هى « مذهب المناسبة » **Occasionalism** إذ يرون « أنّ الله » يرتب الكون، بحيث تسير سلاسل الأحداث المادية والذهنية فى مساراتها الموازية على نحو يجعل الحادث فى إحدى السلسلتين يقع دائما فى المناسبة الصحيحة لوقوع حادث فى السلسلة الأخرى . وقد ابتدع جولينكس تشبيه الساعتين، لكى يضرب به مثلايوضح هذه النظرية : فإذا كانت لدينا ساعتان تدل كل منهما على الوقت بدقة كاملة، ففى وسعنا أن ننظر إلى إحداهما حينما يشير العقرب إلى اكتمال الساعة، بينما نسمع دقات الساعة الأخرى »[2]



(١)،(٢) حكمة الغرب لبرتراند راسل، ترجمة وافية دقيقة للدكتور فؤاد زكريا . . . العدد ٣٦٥ من عالم المعرفة. يوليو ٢٠٠٩ .

المعقولية الإلهية بين الله والطبيعة

ثم ظهر سبينوزا **Spinoza** (١٦٢٢ - ١٦٧٧) الذى رحل والداه إلى هولندا حيث وُلد هو فى « امستردام » ابنا لأسرة يهودية « رحل أجدادهم عن ديارهم فى البرتغال لكى يجدوا مكانا يمكنهم فيه أن يعبدوا الله على طريقتهم الخاصة.. وذلك لأن خروج المسلمين من أسبانيا والبرتغال، قد أتاح الفرصة لمحاكم التفتيش لكى تنشر حكما يسوده التعصّب الدينى، مما جعل الحياة ـ لغير المسيحيين ـ غير مريحة »(١)

وينتقد سبينوزا العهد القديم، ويقرر أن حرية التفكير والتعبير لا تنتمى لأى لاهوت دينى، إذ إن الحرية والإنسانية ترتبط بالتقدم الاجتماعى والعقلانى... ويعبّر سبينوزا عن نفس أفكار المعتزلة من المسلمين « فالجوهر » عند سبينوزا، كما هو عند المعتزلة، يجب ألا يكون متناهيا، إذ إنه لو كان محدودا لكان لتلك الحدود بعض التأثيرعليه، كما يدلل على أن هذا الجوهر هو العالم ككلّ و ـ أيضا ـ الله ذاته، ومن هنا فإن الله والكون هو الشئ نفسه، وهذه هى نظرية « شمولية الآلهة » المشهورة عن سبينوزا.

لقد كان التوحيد بين الله والطبيعة أمرا مكروها، فى نظر المتمسكين بحرفية العقيدة فى جميع الأديان وجميع الآراء والمدارس، وإن سبينوزا يعبّر بوجهة نظره تلك عن آراء كل الفلاسفة الذين عرضناهم، وكلهم يؤمنون - مع سبينوزا ـ أن الله هو « معقولية » القواعد العلمية والرياضية والكونية

(١) برتراند رَسِلْ - حكمة الغرب.

وثباتها، فإذا قلنا: ما الذى يجعل قاعدة «التراكم» تنطبق فى كل وقت إذا ما وُجدَت الظروف الطبيعية؟ «التراكم الكمّى يؤدّى إلى تناقض كيفى» تكون الإجابة أن المعقولية الإلهية هى التى تقف خلف قانون التراكم، كما تقف خلف كل القوانين الطبيعية. (لو سخّنّا الماء فوصلت حرارته إلى مائة، فإنه يتبخّر ولو برّدناه فوصل إلى ما دون الصفر فإنّه يصير ثلجاً، أى أن التراكم الكمى (فى درجة الحرارة صعودا أو هبوطاً) يؤدى إلى تناقض كيفى).

إن الأمم جميعا صارت تؤمن بضرورات الحرية والأمن والديموقراطية، وأن يتولى القيادة السياسية فيها حكام يلتزمون بالعقد الاجتماعى.. ولم يعد أحد يخضع للأساطير ولا للقوانين التى تصادر حرّيّات الناس.. ولا للثابت لأنه ـ فقط ـ قديم.



الكائن الذى لا يتغيّر يُباد

إن خبرة قراءة تطور الكائنات تقول: إن الكائن الذى يثبت على حاله ولا يتغيرّ بما يتفق مع تغيّرات البيئة، محكوم عليه بأن يُباد، وهكذا أُبيد الإنسان الواقف على قدميه (إنسان بكين ساكن الكهوف) أباده نَمَط نياندرتال الأذكى منه، ثم ظهر الإنسان الحديث **Homo Sapiens**، فأباد نمط نياندرتال...

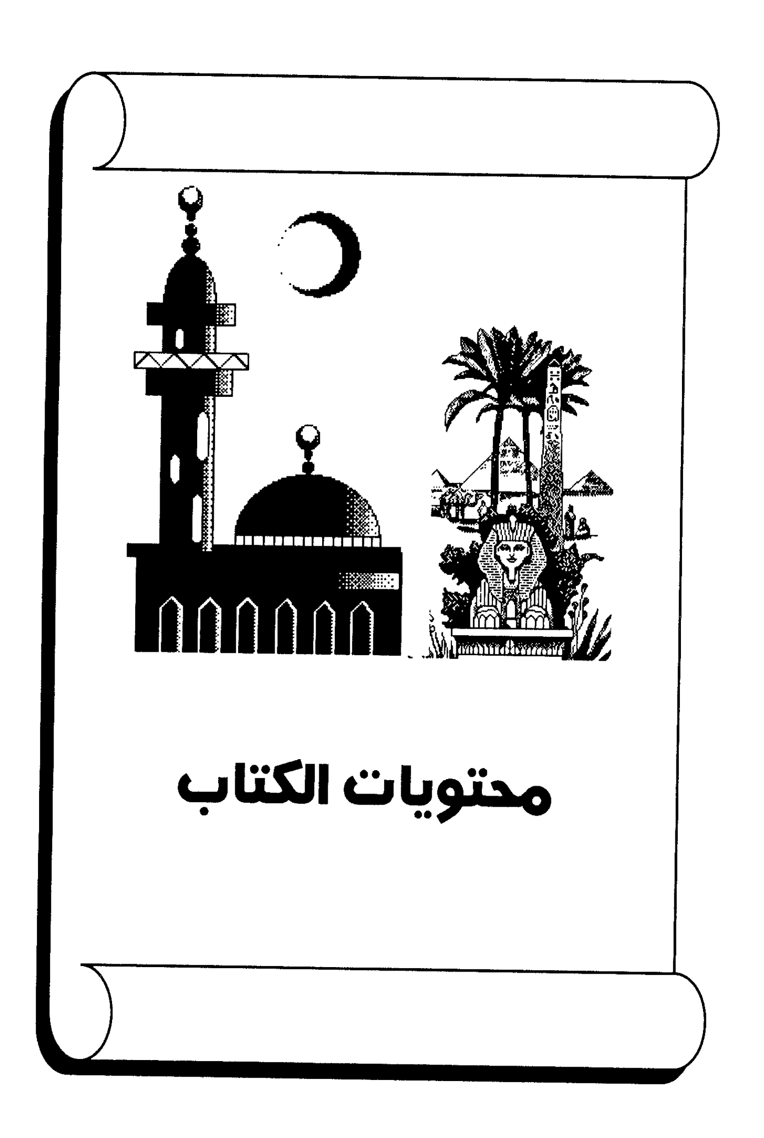
لا تزال مصر المعاصرة، بالرغم من تعاقب القيادات والسياسات تنّفذ «الخطّ الهمايونى»، وهذا الخط (أو القانون) الذى أصدره «همايون كبير» أحدُ الوزراء الأتراك فى زمن سلاطين آل عثمان، وهو يلزم أقباط مصر بارتفاع معين لأبراج الكنائس، وبحجمٍ معيّن للنواقيس، وارتفاع معيّن للأسوار وبمساحة معينة لساحات الكنائس وأحواشها، فضلا عن عدد الكنائس فى المدن والقرى.. ولو سُئِل أى مسئول عن هذا الخط فإنه ـ قطعاً ـ لا يوافق عليه، ولو سُئل أى مسلم فسوف يؤيد إلغاء القانون.. ومع هذا فلا يزال الخط الهمايونى التركى ساريا وكأنّه متن مقدّس.. إنه تقديس القديم لأنه قديم.. ذكر «شارلز ديكنز» فى وصفه الدقيق لرجلٍ عجوز «... والعجيب أنه لا يزال يحتفظ بأحذيته القديمة البالية والتى لن يستخدمها، بل يعتبرها جالبةً للحظ والصحة حتى أكسبها معنى القداسة..».

تماماً، كما اكتشفت القيادة المصرية سنة ١٩٥٧ (أى بعد خمس سنوات من الثورة) أن مصر كانت لا تزال تورّد للخزانة التركية جزية سنوية.

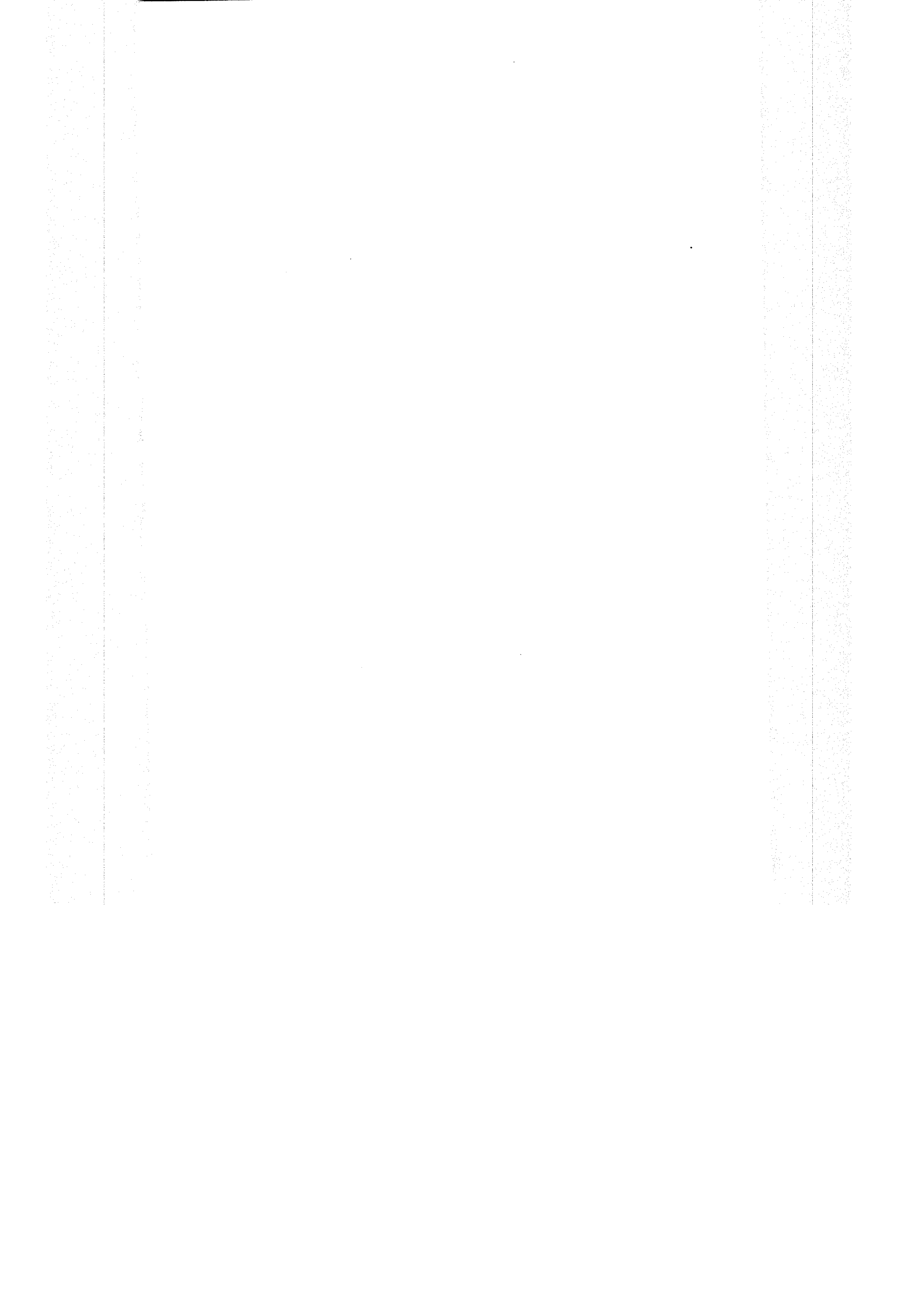
إن البشر ورجال الدين فى كل الأديان، قد أعادوا قراءة وتفسير المتون

الدينية بحيث تتفق مع فكرة «المعقولية الإلهية» .. ولم يعد أحد ـ في الكون كله ـ يقبل بفكرة الأساطير المرتبطة بالأديان .. والحكومات جميعا تشعر بمسئولياتها عن تقدم شعوبها وتنويرها .. إن مغازلة بعض الحكومات للتيارات الدينية، يؤدى إلى تدهور الأمم؛ إذ ثبت ـ عبرَ كلِّ العصور ـ أن الجماعات الدينية لا تصلح للقيادة السياسية للشعوب، كما ثبت أن الحكومات التى تستْقوى برافعى شعارات الدين حكومات هزيلة.

☆☆☆☆☆



محتويات الكتاب



محتويات الكتاب

☆☆☆☆☆



إخراج فنى وكمبيوتر

بانوراما قنديل للفنون

٠١٦٨٣٥٣١٩٩ـ ٠٤٠/٢٢٤١٣٢٩